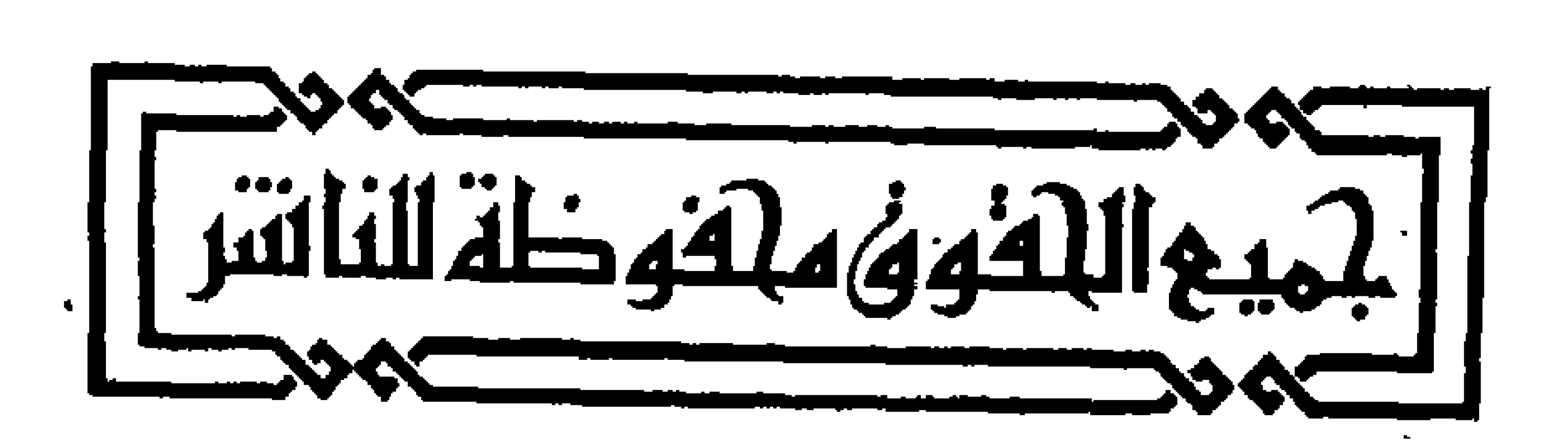
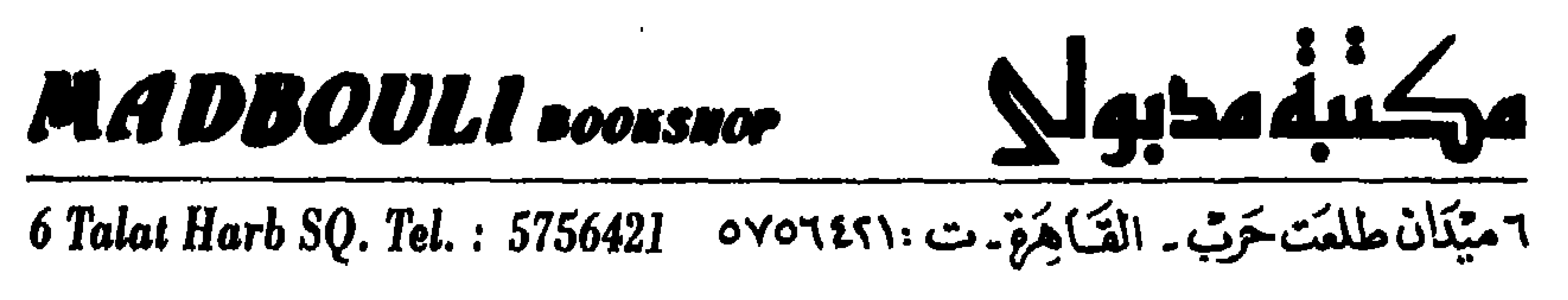
مكتبة
مدبولي

حكايات إفريقية

سليمان مظهر


جميع الحقوق محفوظة للناشر


MADBOULI BOOKSHOP
مكتبة مدبولي
6 Talat Harb SQ. Tel. : 5756421
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١

حكايات إفريقية

سليمان مظهر

الطبعة الثانية

١٩٩٦

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: ٥٧٥٦٤٢١

الفهرس

تقـــــديم

من الصفات الرئيسية التى تميز الإفريقى بعده التام عن التكلف والتظاهر . وقد جعل منه ذلك إنسانا اجتماعيا بسيطا .

ومنذ القدم كان يسود فى بلاد كثيرة من إفريقيا نظام يسمي «نظام أوسو». وكان «أوسو» هذا مواطنا إفريقيا باركته الآلهة ومنعته من الاتصال بغيره من المواطنين. وسار الكثير على منواله. أما الآن .. فلم يعد لهذه الأفكار وجود. فالإفريقى يتمتع بالحرية والاستقلال والمساواة، من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.. وحتى فى الأيام التى ساد فيها الرق كان العبيد يملكون الحرية فى أن يخرجوا من العبودية إلى الحرية ..

إن مايميز الفرد عن غيره فى إفريقيا القديمة أو الحديثة ، ليس هو مولده أو أصله، وإنما هو ماحققه من أعمال .. فنحن نجد فى هذه الأيام اناسا من الطبقة العاملة، ينحدرون من أصل ملكى أو زعامة قبلية.. وليس لديهم الآن مايؤهلهم للانتماء إلى الطبقة الاستقراطية..

على أن الطبقات فى إفريقيا لايفصل بينها حدود ولايوجد مايمنع الفرد من الارتقاء من طبقة إلى طبقة أعلى.. كل ماعليه هو أن يزيد من دخله حتى يكون لديه مايؤهله لذلك.

والإفريقيون لايحبون النظريات الاجتماعية. وليس معنى ذلك أنهم لايبنون حياتهم الاجتماعية على أسس علمية. ولكن كل مافى الأمر أنهم يكرهون أن يدونوها فى الكتب أو يناقشوها فى الندوات العامة. وهذا هو السبب الرئيسى الذى يجعل

الغربى لايفهم العقل الافريقى.. فنحن نكره أن نضطر إلى تحديد معنى شئ ما أو إلى تحليل عقيدة ما.. ولكننا نفضل العمل على العلوم النظرية، وأنت تعتقد أن الإفريقيين يؤمنون بفكرتين متعارضتين فى نفس الوقت. ولكن هذه الطريقة فى التفكير لاتعنى عدم الاستقرار أو الحياد، بل إنها كما ترى على العكس من ذلك تماما. فهى عندنا دليل الحكمة... نحن نؤمن بالعمل فقط.. ولانقبل غير ذلك.

وإذا أردنا أن نتغلغل داخل العقل الافريقى لنعرف أى النظريات الاجتماعية تقوم عليها حياتنا، فعلينا أن نؤمن أولا بأننا لم نفكر فى حياتنا على ضوء النظريات، وأباؤنا لم يناقشوها ولم يكتبوا عنها.. ولكننا نستطيع أن نصف لك مقومات حياتنا الاجتماعية.. وستجد فى النهاية أنك لن تعرف شيئا عن النظريات التى تقوم عليها حياتنا الاجتماعية.

وقد يصل تفكيرنا الاجتماعى الى حد السذاجة أحيانا. فالإفريقى يكره دائما أن يحكى مشاكله لغيره.. وكما يقول المؤرخ الأوغندى جون ميبتى: النظام الاقتصادى السائد فى إفريقيا يعتمد على أساسين لايمكن فصل أحدهما عن الآخر.. أن نملأ معدتنا، وأن نشارك بعضنا بعضا فى ذلك. وقد عبر عن ذلك مثلان من أمثالنا الشعبية، الأول يقول «إن الذى فى معدتى هو ملك لك.. أما ماأضعه على رأسى فهو ضائع» وهذا يعنى أن الغذاء أهم للإنسان من قبعته. أما المثل الثانى فيقول «إن نجاح الإنسان هو نجاح لأخيه» وقد عبرت لغة الهوسا عن هذا المثل فى عبارة أكثر وضوحا إذ تقول «إذا أنعم الله علىّ.. أوليك بنعمتى».

وكثيرا مايتساءل الغربيون.. «هل يشعر الإفريقيون بالحب؟ وإذا صح ذلك.. فكيف وأين ومتى».

إن الحب فى إفريقيا كما تبين حكاياتها الشعبية شئ مقدس يربط بين اثنين لاثالث لهما.. وليس لإنسان آخر الحق فى التلصص عليهما أو النظر إلى مايفعلانه. إنه أمر محوط بالكتمان والاحترام. فالآباء لايناقشونه فى البيت ولاخارج البيت.

والكتاب لايستطيعون وصفه. والوعاظ لايتحدثون عنه. فالناس فى إفريقيا يحسون الحب ويعبرون عنه دون كبت أو ضغط. ولايدعون أنفسهم ينظرون إليه بعين الخيال.. الكل يشجعه ويتمتع به دون احتقار.. ولكن دون تقديس أيضا.

إن «الحكايات الإفريقية» فى الحقيقة دراسة معبرة للحياة فى إفريقيا.. وعلى كل من يريد أن يفهم افريقيا.. أحلامها وأفكارها، والقوى التى تعمل فى داخلها.. سيجد كل مايريد فى هذه الحكايات..

ولعل ذلك يدعونا إلى تناول العقائد والفلسفة الإفريقية من خلال حكايات هذا التراث الإنسانى. فالتراث الإفريقى فى الحقيقة هو بعض من تراثنا الإسلامى والعربى، بحكم الصلات والعلاقات البشرية، وبحكم الزحف الإسلامى ثقافة وعقيدة فى كل أنحاء القارة. وحتى يَكون الحديث عن العقيدة من خلال دراسة الأعماق الإفريقية، فإن ذلك يعنى أن الأغلبية الإفريقية – من خلال حكاياتها – قد آمنت بالاله الواحد حتى وهى تعيش حياتها القبلية، وتمارس قبل دخولها الاسلام إيمانا بقدرة كائن أعلى، مهما تعددت مسمياته وتباينت رموزه. هذا الكائن الأعلى هو الخالق.. وهو الواحد.. الذى لم يلد ولم يولد..

فالحقيقة التى يؤكدها المؤرخ الإفريقى أن مختلف القبائل الإفريقية التى لم يصلها الإسلام ولا المسيحية، لظروف حياتها البدائية المتنقلة فى أعماق الغابة الإفريقية.. هذه القبائل لم تكن بعيدة عن الله.. بل إن الله عند الإفريقى البدائى واحد، وهو عنده أصل كل شئ ونوره، محيط بخلقه متداخل فيهم.. وهو الكائن الأسمى الأعلى الذى لايخفى عليه شئ.. والموجود هنا وهناك حتى الأبد.

والتعبير عن المعرفة الإفريقية بالله موجود فى الأمثال والحكم والأقاصيص والحكايات والأغانى والأدعية والتراتيل الدينية. بل إن الافريقيين حتى فى حياتهم التقليدية لايوجد عندهم ملحدون.. وهو معنى يعبر عنه أحد الأمثال عند قبائل الأشانتى يقول: «لا أحد يطلع الطفل على الكائن الأسمى ومع هذا فهو يعرفه».

إن معرفة الله تتفاوت وتتباين من خلال الخلفية التاريخية والجغرافية للافراد والمجتمعات البشرية الإفريقية، وقد تختلف الصفات الأبديه والأصلية من قبيلة إلى

أخرى، فبعض هذه المجتمعات كما نرى من خلال حكاياتها تعتبر الله «أصل النشوء.. هو عليم بكل شئ .. موجود فى كل مكان .. قهار قادر على كل مايريد وهو جزء من طبيعته الثابتة التى لايمكن اخفاؤها على أى كائن آخر سواه».

وهناك واحدة من أشهر الترانيم التقليدية الإفريقية التى تتخيل صورة الله عندهم فتقول :

«فى البدء كان الله..

وغدا سيكون هناك الله

فمن الذى يستطيع أن يصنع صورة الله !؟

إنه ليس له جسد ..

إنه مثل الكلمة .. تخرج من بين الشفتين ..

هذه الكلمة .. وليس أكثر

إنها ماض .. ولاتزال تعيش .. وستستمر ..

هذا هو الله ..

إنه دائم خالد .. يبقى إلى الأبد

وكما كان .. فإنه كائن وسيكون ..

ولايمكن أن يصبح شيئا آخر ..

غير الله ..»

إن كل هذه التصورات الإفريقية من خلال العقائد والفلسفة ومن خلال الحكايات والأساطير .. تبرز كل المعانى والأفكار التى آمن بها الإنسان الإفريقى ..

ومن خلال «حكايات إفريقية» نستطيع أن نخرج بحقائق كثيرة عن المجتمع الإفريقى والحياة الأخلاقية والفكرية للإنسان الذى عاش فى قلب وعلى حواف هذه القارة المجيدة ... إفريقيا .

سليمان مظهر

كلمـــة ..

«الصديق سعد زغلول أحد الذين تعمقوا فى دراسة الأدب الإفريقى.. ولقد قرأ فصول هذا الكتاب عندما نشرته على صفحات جريدة «المساء».. وخلص من قراءته إلى وجهة نظر ضمنها هذه الكلمة ..

الأسطورة والحكاية الشعبية.. لايكاد يخلو منهما أدب من الآداب.. ولايكاد يوجد شعب من الشعوب دون أن يتوارث أبناؤه بعض الأساطير والحكايات التى قد تصبح فى صورتها الأخيرة أحيانا.. «حدوتة»؛ تماما كهذه «الحواديت» التى تعودنا أن نركن ونحن صغار إلى جداتنا لكى يحكينها علينا!. ولقد تتشابه مواضيع بعض هذه الأساطير والحكايات الشعبية بين مختلف الشعوب.. بل وقد تتشابه أحداثها بصورة تزيدنا ثقة فى وحدة الإنسانية ووحدة الجوهر الأساسى للتفكير الإنسانى وتصوراته للخير والشر والفضيلة والرذيلة.. الخ.

ومثل هذه الأساطير والحكايات الشعبية تتناقلها الأجيال فى الغالب شفاها باعتبارها جانبا من التراث الشعبى. وتظل المشافهة هى طريقة حفظها زمنا طويلا حتى يبدأ تدوينها فى عصور الانتعاش الأدبى التى تحفظ جانبا كبيرا منها من الضياع.

ولقد كانت للشعوب الإفريقية- مثلها فى ذلك كمثل معظم الشعوب الأخرى- أساطيرها وحكاياتها التى عاشت فى أرض القارة الإفريقية زمانا طويلا تعتمد فى حفظها على توارث الأجيال لها عن طريق النقل والمشافهة فقط.. حيث لم يكن لأكثر هذه الشعوب- وخاصة من كان منها وراء الصحراء جنوبا- لغات مدونة تستطيع حفظ هذا التراث الشعبى..

وقديما، زعم الاستعماريون أن إفريقيا ماوراء الصحراء جنوبا قارة بلا حضارة وبلا تاريخ؛ ومن ثم فهى قارة بلا آداب.. لماذا؟ لأن الإفريقيين لم يعرفوا الكتابة.. وكانت لغاتهم للحديث فقط.. وسبب ذلك -فى نظرهم- أنهم كانوا بلا تراث فكرى أو أدبى يحتاج إلى لغة مكتوبة لتدوينه ونقله.

ولقد حاول الاستعماريون من وراء ترويج هذه الدعوى؛ أن يفصلوا الإفريقيين عن ماضيهم وتاريخهم وتراثهم.. وأن يوهموهم بأن الاستعمار هو السبيل الوحيد لوضعهم على عتبات الحضارة الإنسانية. ولقد استغل الاستعماريون حقيقة خلو إفريقيا ماوراء الصحراء جنوبا من اللغات المكتوبة فى تثبيت هذه الدعوى فى أذهان الإفريقيين.. حتى يفرضوا عليهم أفكارهم وتراثهم.. ومن ثم عبوديتهم واستغلالهم. فإن أكثر مايرفع من قيمة الشعوب فى نظر أنفسها أن تجد لها تاريخا وتراثا تستطيع أن تفاخر به.. وتستطيع أن تستمد منه معنويات جديدة وهى فى صدد الكفاح من أجل حرياتها المسلوبة.

ولم تكن هذه وحدها هى الدعوى التى يريد الاستعماريون من ورائها أن يجردوا الإفريقى من كل تراثه القديم.. فقد دأب الاستعماريون دائما على الانتقاص من قدر الإفريقيين فى كل مجال من مجالات الحياة والفكر.. وعندما كانت بعثات التنقيب عن الآثار تكتشف آثارا ذات قيمة تاريخية حضارية فى جنوب القارة؛ كان المغرضون يحاولون بشتى الوسائل أن ينفوا عن أصحاب هذه الآثار الأصالة والابتكار. فهم تارة يرجعونها إلى تأثيرات فرعونية.. أوصينية.. أو آشورية أو بابلية.. إلخ! لماذا؟ لأنه من غير المعقول فى نظرهم أن تكون هذه الآثار نتاج فكر إفريقى مبتكر وأصيل. ليس هذا فحسب بل إن بعض السلطات الاستعمارية كانت تمنع الاستمرار فى عمليات البحث والتنقيب حتى لاتمنح الإفريقيين «تاريخا وحضارة» يمكن أن يفاخروا بهما.. كما فعلت حكومة جنوب إفريقيا بالنسبة للاكتشافات الأثرية الرائعة التى تم العثور عليها فى سنة ١٩٣٨.

كانت الفكرة الاستعمارية إذن؛ تهدف من الأساس إلى تجريد الإفريقيين من تاريخهم وحضارتهم وتراثهم الفكرى والأدبى. ولكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح.. فما لبث العالم كله أن أدرك حقيقة هذه القارة التى فرض عليها الاستعمار الأوروبى عزلة رهيبة منذ بدأ يتسلل إليها فى القرن الخامس عشر.. أدرك أن القارة الإفريقية كانت موطنا لحضارة مزدهرة كان من الممكن أن تؤتى أكلها لو لم يبتل أبناء القارة بلعنة العبودية والاستعمار.. يقول الكاتب الزنجى الأمريكى «ريتشارد رايت»:

«لقد كانت لنا حضارتنا فى إفريقيا قبل أن نؤسر وننقل من بلادنا (إفريقيا) إلى هذه الأرض (أمريكا).. لقد صهرنا الحديد.. وعرفنا أصول الرقص.. ووضعنا الموسيقى.. ونسجنا القطن والصوف.. وصنعنا الملابس والسلال.. واخترعنا وسائل لتبادل التجارة.. وعرفنا النحت على الخشب والعاج.. واستخراج الفضة والذهب.. وصنعنا الآنية الفخارية والآلات الحادة القاطعة.. وهذبنا الأدوات المصنوعة من النحاس والبرونز والعاج والكوارتز والجرانيت.. وكانت لنا آدابنا الخاصة بنا.. وقوانيننا التى تلائمنا.. وكانت لنا عقائدنا وطبنا وعلومنا.. وعرفنا أيضا نظم التعليم..»

وكل هذا الذى ذكره الكاتب الزنجى الأمريكى «ريتشارد رايت» صحيح ولم يعد هنا مجال للشك فى صحته. ولقد أصبح العلماء فى كل مكان يعترفون به.. ولقد يعجب البعض لأننا قلنا إن الإفريقيين لم يعرفوا اللغة المكتوبة بينما نقرر فى نفس الوقت أنه كانت لهم آدابهم وتراثهم الفكرى الشعبى..

وقبل أن نتعرض لمسألة «الكتابة» كوسيلة لحفظ التراث الأدبى والفكرى؛ نحب أن نؤكد وجود هذا التراث الإفريقى الشعبى من ناحية أخرى..

يقول «ج. أرماتو».. فى كتابه «العصر الذهبى لحضارة غرب إفريقيا»: — «إن اللغات الإفريقية لاتقل فى تماسكها عن أية لغة أخرى من اللغات الحية كأدوات لأوجه

التعبير المختلفة.. ولقد كانت هناك فى إفريقيا مجتمعات اقتصادية وسياسية معقدة ومنظمة ونظم عقائدية وتراث فكرى شعبى متماسك يمكن مقارنتها بالتراث الفكرى لأى مجموعة بشرية أخرى».

ولقد بنى «أرماتو» رأيه هذا على أساس أن التراث الشعبى الإفريقى الأصيل قد استطاع أن يفرض نفسه ووجوده فى الأمريكتين حينما انتقل مع الزنوج الإفريقيين الذين سيقوا إلى الدنيا الجديدة فى الأغلال. فقد استطاع الأدب الشعبى الإفريقى- كما يقول الكاتب الزنجى الأمريكى «لورنزو تيرنر» - أن يعيش طيلة قرون من الزمان مع أولئك الذين انتقلوا من الإفريقيين إلى الأمريكتين؛ عاش معهم ومع أولادهم وأحفادهم من بعدهم.. فالأساطير.. والأمثال الشعبية.. والأحاجى الإفريقية لاتزال تحكى فى البرازيل، ليس باللغة البرتغالية فحسب؛ بل باللغات الإفريقية نفسها! وهى تحوى قصصا عن الحيوانات والشخصيات الأسطورية الإفريقية.. وقصصا عن جوانب الحياة فى إفريقيا كالحسد والغيرة بين الزوجات العديدات لزوج واحد! وقصصا عن الحروب القبلية والأعمال الخالدة للأبطال الإفريقيين.. وقصصا عن الطبيعة والمخلوقات تفسر أسباب الخلق. وكلها قصص تمثل جانبا هاما من حياة الزنوج هناك وكثير منها ذو دلالات على جانب كبير من الأهمية؛ فبعضها يتحدث عن الفقراء وحماية حقوقهم إزاء طمع الأغنياء وجشعهم.. واستبداد الطبقة الحاكمة.. وبعضها الآخر يتحدث عن ضرورة الولاء للطبقة الحاكمة.. والبعض الآخر ضد العبودية والرق.. ومنها قصص للأطفال تتحدث عن مضار الكذب وعدم الطاعة والكسل والنهم فى الطعام.. وفى معظم هذه القصص مبادئ أخلاقية.. وتبدو فيها الحبكة القصصية واضحة كل الوضوح».

وفى الولايات المتحدة؛ كما هو الحال بالنسبة لأمريكا اللاتينية ودول البحر الكاريبى؛ يبدو تأثير الأدب الشعبى الإفريقى واضحا.. وقد تم جمع الكثير من هذه الفروع للأدب الشعبى الإفريقى وتم نشره.. كما حدث فى مجموعات «شاندلر

وهاريس» و «أمبروز جونزاليس» و «أروين روسل» وغيرهم.. وخاصة في كارولينا الجنوبية وجورجيا».

نعود الآن إلى مسألة «اللغات المكتوبة» التي يحاول المغرضون من وراء عدم وجودها في إفريقيا ماوراء الصحراء جنوبا؛ أن يتخذوها دليلا على خلو القارة من التراث الفكري والأدبي.. وهنا نتساءل مع «جاينهانزجان» الكاتب الألماني المتخصص في الدراسات الإفريقية: «ماهي الكتابة؟ أليست وسيلة لنقل المعلومات؟ دعنا من «اللغة» فلا ينبغي أن نخلط بينها وبين الكتابة.. فقد كانت للإفريقيين لغاتهم مثلهم في ذلك مثل كل شعوب الدنيا. ولكن الشئ الذي تأخر استخدامهم له هو التدوين.. عن طريق اللغات المكتوبة. ولقد يتخذ الكثيرون من ذوي النظرة المغرضة هذه الحقيقة سبيلا إلى الانتقاص من قدر الفكر الإفريقي، ولكننا إذا درسنا طبيعة حياة الأفريقيين وطبيعة الأرض التي عاشوا فيها لوجدنا أنه كانت لهم بالفعل لغتهم الخاصة بهم.

كانت لهم وسيلتهم لنقل المعلومات.. هذه اللغة قد تبدو غريبة لأول وهلة. ولكن هذه الغرابة تزول عندما نحاول في إنصاف أن ندرك الظروف التي جعلت الإفريقيين يعتمدون على هذه الوسائل دون غيرها.. هذه اللغة؛ هي «لغة الطبول».

وينبغي- قبل أن نفسر حكاية الطبول هذه - أن نشير إلى رأي عالم الأجناس الفرنسي الشهير «ليفي شتراوس» الذي يقول: « من الخطأ أن نعقد أهمية بالغة على مسألة الكتابة في صدد التطور الإنساني الحضاري فلا ينبغي مثلا أن نقول : إن شعبا من الشعوب عاش حياة بربرية لمجرد أنه لم يستخدم «الكتابة» في التدوين.. وبأن شعبا آخر استخدم الكتابة.. هو الشعب المتحضر الذي ينتقل من مرحلة إلى مرحلة في مضمار التقدم».

ومن ناحية أخرى يؤكد «ليفي شتراوس» أن «فن الكتابة» ليست له علاقة مباشرة بالأغراض الفكرية والأدبية، فهو لم ينشأ عن حاجة لممارسة هذه الأغراض.. وإنما نشأ لأسباب أخرى ثم استخدم بعد ذلك في ممارسة هذه الأغراض».

ومرة أخرى نعود إلى «حكاية الطبول»..

لقد كانت للإفريقيين وسيلتهم اللغوية فى التفاهم ونقل المعلومات. كانت دقات الطبول بالنسبة إليهم تمثل حروف الكتابة بالنسبة لأى شعب آخر. والسبب فى ذلك هو كما قلنا طبيعة حياة الإفريقيين وطبيعة الأرض التى عاشوا على ظهرها.

كان المصريون القدماء مثلا «يكتبون» على الصخور وعلى ورق البردى وعاشت كتاباتهم من ثم آلاف السنين. فلماذا لم يفعل الافريقيون فيما وراء الصحراء جنوبا مثلما فعل المصريون القدماء؟.. السبب هو أن الحجارة فى هذا الجزء كانت نادرة أو بعيدا عن متناول أيديهم حيث استقر بهم العيش قريبا من مصادر الحياة والرزق فى الغابات الكثيفة. أما بالنسبة لأوراق البردى أو رقائق الجلود فلم تكن لتؤدى إلى نتائج طيبة فى مجال حفظها فى أرض رطبة وطقس لايسمح على الإطلاق ببقائها مدة طويلة مثلما كان الحال فى مصر القديمة ذات الطقس المعتدل الجاف الذى سمح ببقاء هذه الأشياء الاف السنين.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى- كما يقول «جانها ينزجان» - «فإن حفظ المعلومات ليس إلا استخداما ثانويا لفن الكتابة.. فأول استخدام لها فى الواقع أنها وسيلة لنقل المعلومات.. ولقد كانت للإفريقيين وسيلة أخرى غير الحروف الهجائية المكتوبة لنقل المعلومات.. إنها لغة خاصة بهم هى لغة الطبول التى تطورت لديهم لدرجة فائقة مذهلة أغنتهم عن الحروف الهجائية فى أرض تكثر فيها الغابات والتلال والوديات والمياه التى تعرقل الانتقال. فكانت دقات الطبول بالنسبة لهم أسرع الوسائل لتبادل المعلومات.. وكانت أيضا اقدرها على نشر هذه المعلومات وإبلاغها إلى اكبر عدد ممكن من الناس للغات الإفريقيين. إنها حروف صوتية مسموعة.. وليست حروفا «مكتوبة». ومن ثم أيضا فإن «التراث الثقافى الإفريقى» لم يكن تراثا بغير كتابة أو تدوين كما يدعى البعض. إن كلتا الثقافتين الغربية والافريقية مثلا؛ كانت لهما «كتاباتهما».. كانت للأولى حروفها المكتوبة؛ وكانت للثانية حروفها

المسموعة عن طريق دقات الطبول. الأولى تحفظ المعلومات مدة أطول.. والثانية «تنقل» المعلومات بصورة أسرع!.

والواقع أن معظم اللغات الإفريقية لغات «صوتية» تعتمد على مايشبه النغمات الموسيقية، ولهذا وجد الإفريقيون صعوبة كبيرة عندما استخدموا الحروف اللاتينية فى كتابة لغاتهم، فقدد اضطروا إلى إضافة كثير من وسائل التنغيم والإمالة والمد الموسيقية إلى هذه الحروف لكى يخضعوها لطبيعة لغاتهم الموسيقية.. بينما كانت لغة الطبول أكثر إيفاء بالغرض فى حياتهم الأولى. وكما كان الأطفال الأوربيون مثلا يتعلمون منذ صغرهم الحروف الهجائية المكتوبة، كان الأطفال الإفريقيون يتعلمون الحروف الهجائية «المسموعة» بدقات الطبول.

ومع ذلك فقد كانت دقات الطبول هذه، تستخدم حتى فى مجال «حفظ المعلومات» وليس فى نقلها فحسب. نحن نعرف مثلا أن معظم الآداب العالمية بدأت فى شكل شاعرى حيث كان الشعراء المتجولون هم أول «أدباء» الإنسانية. كان الشاعر فى أوربا مثلا «ينشر» الأدب فى شكل منظوم منغم ينتقل من فم إلى فم حتى يصبح من التراث المحفوظ، وكذلك كان الشعراء فى الجزيرة العربية، تنتقل قصائدهم من فم إلى فم عن طريق الرواية. وكانت هذه الوسيلة فى نقل المعلومات ثم حفظها بطيئة نوعا ما.. أما بالنسبة للإفريقيين فقد كانت الوسيلة أكثر سرعة. وكان الإفريقى الذى يتولى دق الطبول يعتبر من أهم الشخصيات فى مجتمعه.. ولم يكن عمله مقصورا على مجرد نقل المعلومات العادية. ولكنه كان يعتبر راوية المجتمع. ينقل بدقات طبوله قصص الأسلاف والأبطال ويشارك فى مختلف الاحتفالات بنشر الأقاصيص الشعبية المتوارثة «وإذاعة» الملاحم الرائعة لماض مجيد.

ومنذ أن وطأ الاستعمار أرض إفريقيا بقدمه، والمبشرون يعملون كل جهدهم للقضاء على هذه الوسيلة الافريقية الخالدة مع رواية التاريخ وأقاصيص الأسلاف وحكاياتهم.. ومن ثم القضاء على الوسيلة التى كان ينتشر بها «أدب الإفريقيين»

وتراثهم الفكرى لكى يستطيع الاستعمار أن يجد أرضا سهلة بالنسبة إليه، شعوبها «بلا تاريخ.. وبلا حضارة.. وبلا تراث شعبى» قد يحفزهم يوما ما على الانتفاض والتحرر للعودة إليه.. وهكذا استطاع الاستعمار أن يقضى على «مؤرخى» إفريقيا.. وعلى مصادر تاريخ هذه القارة وآدابها وتراثها الفكرى..

يقول شاعر «ليبريا» الكبير «كارى توماس»: – «لم تعد الطبول تدق.. لم يعد هذا الإرسال اللاسلكى يعبر التلال.. اليوم أصبح من الصعب أن نترجم أغنيات مديح الأسلاف.. قليلون من شعوب اليوروبا هم الذين يستطيعون اليوم فهم لغة الطبول.. فإذا عثرنا على من يستطيع دق الطبول، فإن الناشئة من الصغار لن يفهموا لغته.. لقد أصبحوا يعرفون كل شئ عن شكسبير! ولكنهم ممنوعون من التحدث بلغة اليوروبا فى مدارسهم.. وقد خرجت لغة الطبول عن دائرة تعليمهم الجديدة.. ترى كم قصة رائعة.. وكم قصيدة.. وكم ملحمة ممتعة ضاعت من الأدب الإفريقى عندما خفتت دقات الطبول.. حتى أصبحت لاتسمع ؟!»

على أن كل المحاولات الاستعمارية المغرضة، لم تنجح فى طمس معالم التراث الإفريقى إلى الأبد.. فلازالت هناك بقايا من حكايات الشعوب الإفريقية.. ومن أساطيرها.. التى تعكس أفكارها الإنسانية وتصوراتها فى مختلف مجالات الحياة.. وإذا كان الجانب الأكبر من هذا التراث الشعبى الإفريقى، قد ضاع بسبب «خفوت دقات الطبول»، فإن الكثيرين من المخلصين من أبناء القارة من المهتمين بدراسة التراث الإفريقى.. يعملون جهدهم على جمع مابقى من هذا التراث لكى يكون صورة حية للضمير الإفريقى.. وللفكر الافريقى.. فى مرحلة من التاريخ تحتاج منا نحن أبناء هذه القارة المجيدة إلى كشف كل الأستار التى أسدلها الاستعماريون على تاريخ القارة وحضاراتها.

والله الموفق ...

ابن السلطان

حكاية من الجزائر

عندما وقف يطل أمامه بعيدا جدا إلى حيث اللانهاية، وفى الأعماق منه حيرة صاخبة مذهولة، لم يكن يتصور قط أن أخويه كانا هما السبب فى كل ذلك الذى حدث.. ومع هذا فما كان يستطيع أن يرفض الطلب.. خاصة وأن والده السلطان كان يبدو وهو يطلب منه ذلك الطلب وكأنه يتوسل إليه.. وهو أمر لم يخطر له ببال قط..

وراح الفتى يستعيد كلمات السلطان ويذكر كل كلمة منها :

– ياولدى الحبيب.. أنا أعلم أن الشجاعة لاتنقصك قط.. وأعلم أنك أنت الوحيد الذى يستطيع أن يحقق لى ذلك الأمل الذى ملأ رأسى. فهل أجد عندك الجرأة لتحقيق أملى ..!؟

وفتح الفتى عينيه فى دهشة.. وانحنى على يد والده يلثمها وهو يقول:

– وحق الله لو طلبت منى نجوم السماء ماأعجزنى شئ عن تحقيق ذلك الأمل.. مرنى ياأبى.. تجدنى طوع أمرك.

– إن ماأريده لايقل عن نجوم السماء ياولدى.. أنه غصن من شجرة تفاح الحياة..!؟

– تفاح الحياة.. وكيف السبيل اليه يامولاى!؟

– الشجرة تنبت هناك فى وادى الجن الذى لايبتعد أكثر من بضعة فراسخ فى قلب الصحر ولو أتيت لى بالغصن حقا لأعلنتك على الفور وليا للعهد ووارثا للعرش..

هز الفتى كتفيه وهو يقول:

– لست بطامع فى شئ هو من حق أخوى قبلى.. وكفانى يامولاى أن أحقق أملك وأنال رضاك..

غير أن الفتى لم يكن يتصور أن أخويه هما اللذان تمكنا من ابتداع تلك الحيلة من أجل أن يتخلصا منه.. فقد كان ملء قلبيهما حقد وغيرة لذلك الذكاء الذى وهبته له السماء دونهما.. وتلك المهارة التى يتمتع بها أخوهما الصغير فى ميدان الصيد

والقنص، حتى لقد كانا يبدوان إلى جواره غاية فى الضآلة، عندما يعود من الصحراء بصيد ضخم بينما صيدهما هزيل لايزيد عن بضعة من السمان وأرانب الجبل. وماأكثر ماضاق الأخوان بشقيقهما الصغير لكثرة ماقتل من الفهود والنمور والسباع أيضا، ولكثرة ماسخربهما أبوهما وهو يقول لهما:

– أنظرا كيف بلغت الشجاعة دونكما بمحمد.. والله لو استمر على ذلك لاجعلنه خليفتى على العرش، وحاكما على كل المدن والصحارى..

ولعل هذا هو ماجعلهما يجتمعان ذات يوم يتدبران الأمر، ثم يقرران أن يكون ردهما على السلطان حين يعيرهما بعد ذلك بقولهما:

– إذا كان أخونا شجاعا إلى هذا الحد.. فلماذا لاترسله للبحث عن غصن من شجرة تفاح الحياة، إن الذى يأكل من ثمارها يسترد شبابه وحيويته مهما بلغ به العمر.

وكان هذا هو ماحدث بالفعل ..

وامتثل السلطان – دون أن يدرك السر – لمؤامرة ولديه.. فأرسل بولده محمد ليأتيه بشجرة التفاح من وادى الجن.

وإذا كان الأخوان الكبيران قد فركا أكفهما فى ارتياح لنجاح خطتهما، وانطلقا فى فرحتهما الكبرى ينتظران أنباء نهاية أخيهما فى وادى الجن الذى يعرفون مدى الخطر الذى يترقب أى شخص يحاول الاقتراب منه.. وكيف ضحى بحياته كل من حاول الوصول إليه. إلا أن الفتى مع كل هذا وجد من الجرأة لديه مايجعله ينطلق إلى الوادى، وفى أعماقه ثقة كبيرة بالنجاح. ولعل الظروف هى التى ساعدته فى تحقيق غرضه دون ماخطر عليه. فقد تصادف وجود الجنى فى مكان بعيد كان يبحث فيه عن عروس لأيام وحدته، ووجد الأمير المكان خاليا، والباب موصدا، فاعتلى السور فى قوة وهبط فى الحديقة، واقترب من الشجرة السحرية، وبحد سيفه قطع أول الأغصان قربا منه، وعاد منتصرا فى فرحة إلى أبيه.

وبقدر ماكانت فرحة السلطان بعودة ولده، وتحقيق أمله. كانت غضبة الأخوين لنجاح أخيهما الصغير. إلا أنهما ماكانا ليستطيعا شيئا قط وهما يشهدان فرع الشجرة وقد غرسه البستانى فى أرض حديقة القصر يرتفع ويزداد نموا، حتى ماكاد عام واحد ينقضى حتى كان الغصن قد أورق وأثمر، وتدلت من فوقه ثلاث تفاحات لم ير أحد مثل جمالها من قبل قط. وهبط السلطان بنفسه إلى الحديقة، واقتطفها. ولم يكد يأكلها حتى تحولت صورته، فإذا بتجاعيد وجهه تزول، وظهره المنحنى يصلب ويقوى، وصوته الذى طالما ملأته الرعشة يتحول إلى صوت جهورى، عرف كيف يحيى به ولده الصغير فى قوة وفرحة، وتقدير كبير.

وملأ الغيظ الشقيقين، غير أنهما ماكانا يستطيعان أن يفعلا شيئا، حتى وهما يشهدان العام يمر، والثمرات تظهر من جديد على فرع الشجرة، وتفاحات ثلاثا جديدة تنمو ليأخذها السلطان ويستعيد بها شبابه بعد أن كان أثر التفاحات الأولى قد انتهى مع نهاية العام.

وكانت التفاحات الثلاث الجديدة لاتزال تتدلى من الشجرة فى انتظار تمام نضجها حتى يقطفها السلطان، حين فوجئ الجميع بها تختفى ذات صباح، وارتفع صوت السلطان منذرا متوعدا ولكن أحدا لم يستطع الوصول إلى السارق قط، مما جعله يكلف أولاده الثلاثة برعاية الثمار الغالية عندما تنمو فى العام التالى.

ووقف أكبر الإخوة طوال ذلك العام، حارسا على الشجرة، والسيف فى يده وكله تصميم على قطع رأس أى لص يأتى ليسرق الثمار.

وفى نفس اليوم الذى بلغت فيه التفاحات الثلاث الجديدة تمام نضجها، فوجئ الجميع فى الصباح بالثمرات الثلاث وقد اختفت. واختفى معها أكبر أبناء السلطان!

وحدث الشئ نفسه فى العام التالى.. وفى مثل الصباح المتشابه لزميله فى العام الأسبق، اختفت التفاحات الثلاث الجديدة، واختفى معها الابن الأوسط الذى كان قد كلف بالحراسة.. فى مكان أخيه..

ولم يكن بدأن يقسم الأمير الصغير محمد، أمام أبيه، إلا أن يكون هو الحارس التالي لشجرة التفاح؛ حتى ولو تكلف في سبيل ذلك حياته، وأعلن أنه لن يكتفي بقتل السارق، بل سيعيد أيضا أخويه إذا كانا لايزالان على قيد الحياة.

ووقف الفتى محمد إلى جوار شجرة التفاح السحرية، طوال الشهور والأيام التي سبقت نضج الثمرات الجديدة، وهو يشرع في يده سيفا كبيرا في انتظار اللحظة التي يظهر فيها اللص.

وذات صباح فوجئ الأمير محمد أمامه بعملاق رهيب، من خلال عينيه ينطلق الشر، ومن بين شفتيه ينطلق الزبد..

غير أن الفتى تمالك رباطة جأشه، وتمكن من السيطرة على الرعشة التي كادت تهزه، ورفع يده في قوة وعزم وانهال بسيفه على ذراع العملاق وهي تمتد لقطف الثمرات الثلاث.

ولم يكن العملاق السارق يتصور هذه المفاجأة، وفوجئ بذراعه وقد انفصلت عن الجسد. والدم ينزف من القطع الغائر. وفي لحظة، اختفى السارق عن الأنظار.. ولكن التفاحات الثلاث كانت قد اختفت معه أيضا، ولم يبق هناك سوى الذراع المبتور، وبجواره شريط طويل من الدم.

ووقف الأمير يطل حوله في استغراب، ولكن أشياء كثيرة كالدوامة ظلت تدور في رأسه، ولايدري كيف يتصرف. ومع ذلك فما أسرع مااتخذ قراره، وصمم إلا أن يتبع الجني السارق، مسترشدا بآثار الدم التي كانت تسير في طريق طويل ينتهي عند قطعة كبيرة من الحجر تستلقي على رمال الصحراء.

وتردد الفتى هنيهة، فقد توقفت نقطة الدم عند الحجر ولم يعد هناك آثار أخرى بعد. وتأكد الأمير أن السارق لم يتجاوز قط هذا المكان ولكن أين؟ هذا هو مالم يستطع كشف سره. وجلس الأمير يستريح قليلا على قطعة الحجر، ولم يكد يستقر فوقها حتى أحس باهتزاز خفيف تحته. ونهض لفوره. وانحنى على قطعة

الحجر يحاول زحزحتها من المكان. ولم يكد يفعل حتى بدت من تحتها فوهة بئر لايكاد يرى عمقها أو يبلغه البصر قط.

وصمم الفتى على مواصلة العمل الذى بدأه، وأطل فاذا حبل طويل يتدلى من غصن شجرة مجاورة. فأسرع اليه، ودلاه فى فوهة البئر، وانزلق عليه حتى بلغ القاع البعيد. وكانت الظلمة تملأ المكان، غير أن عينيه عندما تعودتا الظلام كشفتا أمامهما بابا مغلقا لايكاد يبين من بين جوانب البئر. واندفع الفتى نحو الباب، وضغط عليه فى قوة. وفى لحظة انفتح الباب. وأغمض الأمير عينيه بسرعة من قوة الضوء الذى جابهه. ومضت لحظات قبل أن يفتح عينيه من جديد، ليشهد أمامه مدينة رائعة ذات شوارع وميادين وبيوت، تمتد إلى مدى لايكاد يرى آخره، وبينما هو يحرك بصره فى المكان إذ به يشهد خيط الدم أمامه، فانتبه إلى نفسه، وذكر مقصده. فمضى فى طريقه إلى حيث يقوده شريط الدم الطويل، وانتهى السير به إلى قصر بالغ حدا كبيرا من الروعة والجمال. ولم يكد الأمير يدفع الباب حتى وجد نفسه فى غرفة واسعة يتوسطها سرير من ذهب؛ ترقد عليه فتاة رائعة الجمال؛ مكبلة بالأغلال.

وفوجئت الفتاة للحظات؛ ولكنها انتبهت بعد ذلك لتقول فى شبه همس:

– أيها الفتى المسكين. ما الذى جاء بك إلى هذا المكان. أثقلت عليك الحياة حتى جئت لتضع حدا لها فى ذلك القصر الملعون!

وتكلم الأمير فقال:

– إنما جئت ياأختاه بحثا عن شخص أصبته بسيفى، وقادتنى دماؤه التى امتدت فوق الأرض إلى مكانه.

وهزت الفتاة رأسها فى حسرة وهى تقول :

– من المؤكد أيها الصغير أن اللعنه قد أصابتك، فلقد عاد من تبحث عنه دون ذراع، والدماء تنزف منه، والشرر ينطلق من عينيه الشريرتين كمثل الشهب.

قال الأمير:

– ليكن هياجه مايكون.. ولكن لابد من قتله.

وتوسلت إليه الفتاة أن يرحم نفسه.. ولكن التصميم الذى كان يبدو فى عينيه جعلها تحس شيئا من الأمل، فأشارت إلى باب فى أقصى الغرفة وهى تقول:

– فى هذه الحالة.. عليك أن تدخل من هذا الباب.

واندفع الأمير نحو الباب، ولم يكد يجتازه حتى وجد نفسه فى غرفة ثانية، يتوسطها سرير آخر مصنوع من الفضة.. ومن فوقه ترقد حسناء رائعة.. تزدان يداها وقدماها المقيدتان باللآلئ والجواهر.

وسألته الفتاة:

– إلى أين تذهب ياسيدى؟

أجاب الأمير:

– أريد منازلة سارق تفاح أبى.. ومعرفة مصير أخوى..

هزت الفتاة رأسها الصغير وهى تقول:

– ليحرسك الله..

وراح الفتى يجيل بصره فى المكان.. ولاحظت الفتاة حيرته فقالت له:

– نحن هنا ثلاث فتيات، خطفنا الجنى الذى يسكن هذا المكان يوم زفافنا، وقيدنا على هذه الأسرة لنكون أسيراته..

قال الأمير:

– إذن لابد من مواصلة البحث عنه والتخلص منه.

ظهر الأسف على وجه الحسناء وقالت للأمير:

– لن تستطيع هزيمته أبدا.. لقد عاد مقطوع الذراع ينزف دما. ويبدو لى أنه يستطيع أن يحطم كل شئ وهو فى هياجه الشديد الذى ينتابه.

قال الأمير فى إندفاع:

– لن تحول قوة بيني وبينه..

واندفع إلى باب آخر فى ركن الغرفة. وعندما فتحه وجد عروسا وكأنها الملاك، ترقد على سريرها فى إعياء، والقيود تربطها إلى أطراف الفراش، بينما اللآلئ والجواهر تغطيها من الرأس حتى أخمص القدمين..

وكما سمع من الفتاتين الأخريين، سمع أيضا من الفتاة الثالثة التى تفوق زميلتيها جمالا، قصة الجنى والثورة التى انتابته.. وقالت الفتاة:

– لتجعلك السماء قاهرة، وسنكون مدينات لك بكل حياتنا نحن الثلاث..

وفتح الأمير بابا جديدا.. وإذا بالجنى يرقد على فراش ضخم وهو يغط فى نوم عميق..

واستكثر الأمير أن يقتل عدوه وهو نائم. فاقترب منه وشكه بحد سيفه. ونهض الجنى وهو يزمجر، ولم يكد يرغى ويزبد ويندفع بكل قوة نحو الأمير، حتى انحرف هذا فى سرعة بارعة، وانهال بسيفه على رقبة الجنى فاذا الرأس ينفصل عن الجسد الذى ماكان أسرع مااختفى بفعل خاتم سحرى يحمله الجنى ويجعله غير مرئى، بينما الرأس ظل ظاهرا، يقفز فى الهواء ويسقط على الأرض، وكأن شيئا يتقاذفه هنا وهناك ليصيب الأمير. غير أن أقدام الفتى وحركاته كانت سريعة حذرة، فظل ينحرف عن الرأس المجنون الصاخب حتى خمد كل شعور فيه بالحياة.

وهدأ كل شئ بالغرفة للحظات، ثم ارتفعت صيحات الفرحة من الفتاة التى كانت تشهد المعركة من خلال فتحة الباب الموارب. ثم تبعتها زغاريد زميلتيها اللتين أدركتا أن الجنى قد مات.

وانطلق الفتى يفك قيود الفتيات الثلاث.. وهو يسألهن عمن يكون قد وقع فى أسر الجنى من قبل. وقالت له الحسناء الصغيرة:

– لقد أحضر الجنى شابين آخرين، وكان يقسو عليهما كل يوم ويرغمهما على العمل وهما يحبوان على اليدين والقدمين، بينما يظل يضربهما بالسوط حتى يفقدا

الوعى. وكان الجنى يرغمهما على خدمته والقيام بكل شئونه بما فى ذلك نظافة القصر. وعندما عاد آخر مرة مقطوع الذراع انهال عليهما ضربا حتى كادا يفقدان الحياة، ثم أغلق عليهما سجنا مظلما وهو يقسم أنهما لن يخرجا منه إلا جثتين هامدتين.

وانطلق الأمير مع الفتيات الثلاث وهن يقدنه إلى السجن الذى ألقى فيه الشابان. وعندما فتح الباب وجد الأمير أخويه فى حالة يرثى لها من الانهيار الذى يشبه الاحتضار. وأسرع الفتى مع الفتيات يحضرون الماء والطعام للشابين المنهارين، حتى إذا استعادا حيويتهما، ونهضا من الرقدة الرهيبة التى استسلما لها من قبل، انهالا على قدمى شقيقهما الأصغر لثما وتقبيلا وهما يعترفان له بأنهما كانا مذنبين. وأنهما يعرفان أن ما أصابهما لم يكن سوى لعنة من عند الله ونقمة منه على مافعلاه.

وبدأ الجميع يستعدون للرحيل من المكان الملعون، وحرص الأمير محمد على جمع التفاحات التسع التى كان الجنى قد سرقها من الشجرة السحرية، بينما كان أخواه يحرصان على جمع كل ماكان بالمكان من ذهب وجواهر ولآلئ.

وقبل أن ينطلقوا جميعا نحو فوهة البئر التى تقود إلى ظهر الأرض، قام محمد بتوزيع ثمرات التفاح التسع على الفتيات الثلاث، وهو يرجوهن أن يحتفظن بها معهن. وإذ بلغوا مكان الحبل المدلى من فوهة البئر رفع الأمير أخويه ليكونا أول من يفتح عينيه على نور الشمس من جديد، ثم تبعتهما الفتيات الثلاث بينما انتظر الأمير ليكون آخر الجميع.

وكانت الحسناء الصغيرة، واسمها جميلة، هى آخر من بارح المكان من الفتيات، وقبل أن تمسك بطرف الحبل سحبت الفتاة من أصبعها خاتما أعطته لمحمد وهى تقول له:

– احرص يامحمد على الاحتفاظ بهذا الخاتم فسوف تحتاج اليه، أما الوصية التى

أوصيك بها فهى أن تحتاط لنفسك بعد أن تمس قدماى الأرض. فإذا انقطع بك الحبل عند صعودك، فعد إلى القصر وافتح دولاب الغرفة التى كنت أقيم فيها، وهناك ستجد قصبتين إذا أخذتهما وألقيتهما على الأرض فسيتحولان الى خنزيرين أحدهما أسود والآخر أبيض.. احذر أن تضع يدك على الأسود، وضعها على الأبيض. فإنه سيحملك إلى بلدك. أما إذا كانت الأخرى فسيحملك الخنزير الأسود الى الطرف الآخر من العالم. حيث تظل منفيا حتى الأبد..

ولم تكد الفتاة تتم كلماتها حتى راحت تصعد على الحبل بينما وقف هو فى انتظار وصولها ليتبع الجميع.

على أن الأخوين اللذين حملا كنوز الذهب واللآلئ، ووجدا إلى جوارهما حسناوين رائعتين، عادت الغيرة تنهش قلبيهما من جديد، وبدا لهما أن الفرصة قد سنحت لهما للتخلص من أخيهما حتى الأبد. فما كادت الفتاة الثالثة تصعد، ليبدأ محمد بعدها الصعود بمعونة الحبل، حتى فوجئ بالحبل يقطع، ووجد نفسه يسقط من جديد على أرض القاع حتى كاد رأسه ينشطر، وأحس بالحجر الضخم وهو يتحرك ليسد الفوهة المفتوحة للبئر..

عندما استرد الأمير الصغير وعيه، وتنبه إلى وجوده، تذكر توصيات «جميلة»؛ فجر قدميه إلى القصر، وانطلق إلى الدولاب حيث تناول القصبتين وألقاهما على الأرض؛ وفى لحظة فوجئ بخنزيرين ضخمين يقفان أمامه؛ أحدهما أبيض والآخر أسود. وفى غمرة الفرحة أسرع يقفز على ظهر واحد من الخنزيرين ليصعد إلى سطح الأرض، غير أنه نسى أى الخنزيرين يختار، وجاء ركوبه على ظهر الخنزير الأسود. ولم يكد يفعل حتى أحس به يندفع فى قوة، وكأنما الأرض تنشق من فوقه. ثم إذا به يطير فى الهواء إلى مدى، بعيد ثم يهبط من جديد على ظهر الأرض؛ ليلقى به على سطحها.. هناك فى الطرف الآخر من العالم.

ونهض الفتى بعد قليل وهو يحس كأن عظامه قد أصابها البلى. وأطل أمامه فإذا

كوخ صغير، تجلس أمامه عجوز شمطاء، وبالقرب منها كلب وحمار وعنزتان وخنزير كل منها مربوط إلى شجرة، وكان أمام الكلب كومة من الحشائش؛ وأمام الحمار كمية من العظام، وأمام العنزتين والخنزير بضعة أعواد من النباتات الشوكية. وكان كل من الحيوانات يطل إلى ماأمامه فى كثير من اليأس.. فما يستطيع أن يأكل شيئا منه برغم الجوع الذى يفريه.

وأخذت الأمير شفقة بالحيوانات البائسة. فاقترب منها وتناول العظام فوضعها أمام الكلب؛ وأخذ الحشائش فوضعها أمام العنزتين والخنزير، والأشواك فوضعها أمام الحمار.

وانطلق كل من الحيوانات يسد جوعه فى نهم كبير.

وفتحت العجوز عينيها وهى ترى حيواناتها تأكل، بينما عجزت عن إطعامها لأمد طويل. ورحبت بالفتى واعتبرته ملكا هبط عليها من السماء !

وقال لها الأمير:

- سوف أبقى بجانبك ياأماه أرعى غنمك وأعاونك فى أعمال الدار. واستمرت الحياة..

ذات يوم، بينما الفتى يرعى قطعان الماعز التى كانت قد تكاثرت منذ تولى أمر العنزتين الخاصتين بالعجوز، إذ اكتشف وجود عش للنسور فى أحد الأشجار.. وبينما هو يطل إليه إذ شهد ثعبانا يزحف من فرع إلى فرع فى محاولة للوصول الى العش والتهام الأفراخ الصغار. وأسرع الأمير محمد إلى تسلق الشجرة، وماكاد يقترب من الثعبان حتى رفع سيفه وانهال به فى قوة ففصل الرأس عن الجسد.. ثم عاد، بعد أن استقر الجسد الهامد على الأرض، إلى تقسيمه إلى سبعة أجزاء حملها وقدمها للأفراخ الصغار لتكون غذاءها.

ولم يكن محمد يدرى أن فصله رأس الثعبان المسحور عن جسده بضربة واحدة يعطيه القدرة على فهم لغة الحيوانات. وكان ماحدث بعد ذلك هو وصول النسر

الأب، ورؤيته لما قام به الفتى من إنقاذ أفراخه، وفوجئ الأمير بالنسر يخاطبه ويقول له:

– أيها الشهم، إنك لمن الشجعان.. فهذا الثعبان هو عدوى اللدود أترقبه منذ سنوات عديدة دون أن أصل منه إلى مبتغاى. وها أنت قتلته وزدت على ذلك قسمته على صغارى يقتاتون به. إننى أدين لك بالشكر والجميل.. فقل لى مطلبك.

قال محمد:

ـ أمنيتى أن أعود إلى وطنى الحبيب:

قال النسر:

ـ ارتفع فوق ظهرى، وسأحملك إلى حيث أهلك وبلدك.

وأسرع الفتى يقفز فوق ظهر النسر الذى ما كان أسرع ماطار يخترق الأجواء حتى بلغ مملكة أبيه، فهبط بالقرب من قصر السلطان. ولم يكد الفتى يجر قدميه ليقف عليهما حتى طار النسر واختفى فى الفضاء.

وفى فرحة صاخبة انطلق الأمير محمد يضرب أبواب القصر.. ولكن الحراس الذين فتحوا الباب أبعدوه بقسوة عن القصر وهم يتصورونه أفاقا شريدا.. واستغرب الفتى تلك المعاملة. وقد نسى أن طول المدة التى قضاها بعيدا قد بدلت ملامحه فما عاد أحد ليعرفه قط، حتى أبوه وأخوته أنكروه عندما تمكن فى محاولة ثانية من دخول حديقة القصر فطرد منها شر طردة.

مضى الأمير الشريد فى طرقات المدينة على غير هدى، وقد غمره يأس قاتل، وكاد الجوع يقضى عليه. ووجد نفسه آخر الأمر أمام باب شيخ الخياطين.. وقال الفتى فى توسل:

– هل لك ياسيدى أن تجد لى عملا لديك.. فأنا غريب شريد بغير ماورد على الإطلاق.

وكان الرجل غاية فى الطيبة، حتى أنه أجلسه بالقرب منه، وراح يسمع من الفتى آلامه التى كان هذا يذكرها دون أن يذكر شيئا أبدا من حقيقة أمره.

ومضت أيام طويلة كثيرة، والأمير محمد يتعلم أصول فن خياطة الملابس. والشيخ يزداد له حبا وتقديرا للبراعة التى بدت منه فى سرعة التعلم والتقليد. ولكن هذا الحب ازداد قوة ذات يوم حين أتاه من يدعوه الى قصر السلطان.. فهرع إليه وهو يستعد لنيل أجر ضخم لقاء ماسيكلف به. وانحنى شيخ الخياطين أمام السلطان وهو يقول:

– لبيك يامولاى..

وقال السلطان:

– أريد ثوبا رائعا لفتاة شابة هى أجمل فتيات البلاد .

قال شيخ الخياطين:

– مر تطع يامولاى.. فما تكون أوصافه ومقاييسه؟

أجاب السلطان:

– إنها تطلب أن يقص الثوب دون مقص وأن يحاك دون إبرة، وأن يقف ويرقص عندما يصفق له..!

وبهت الرجل، وبدا عليه الارتباك.

– ولكن.. كيف يمكن أن يصنع هذا الثوب يامولاى؟

– لابد من صنعه.. أيا كانت الطريقة ياشيخ الخياطين.. وستكون جائزتك مجزية ثمينة إذا تم صنعه.. أما إذا لم يتم فستقطع رأسك..!

وكان الشيخ يعلم الكثير عن قسوة السلطان.. ففضل ألا يتمادى فى المناقشة.. ولم يملك إلا الانحناء، وانسحب من المكان..

ومضى الرجل منحنى الظهر زائغ النظر إلى حانوته، وهو يردد طوال الطريق.

– ثوب يقص دون مقص، ويحاك دون إبرة، ويرقص عندما يطلب منه ذلك..!!

ودخل الحانوت وهو لايزال يردد هذه الكلمات فى سرعة غريبة.. وسمع الفتى شيخه وكأنه يحدث نفسه ، وانصت إلى الكلمات التى كان يرددها ويكررها بين لحظة وأخرى.. وقال الفتى:

– سيدى.. ماالذى تتحدث عنه؟

– ثوب لفتاة جميلة عند السلطان..

– وماالذى يحزنك ياسيدى؟ إن الأمر لغاية فى اليسر !؟

وفتح الرجل عينيه فى دهشة واستنكار.. وأطل بعد لحظات إلى الفتى وهو يقول:

– كيف أكون شيخ الخياطين وأعجز عن إتمام هذا العمل، بينما تقول أنت يامن لاتزال صبيا بعد، أن الأمر غاية فى اليسر؟

– دعها لى ياسيدى.. وستجد الثوب لديك باكر ..!

– لو كان ماتقول صحيحا فلسوف أعترف لك جيدا بالجميل.. وأسدد لك المعروف..

– وماهى طريقة السداد ياسيدى؟

– إن لدى ابنة واحدة، رفضت قبول عشرات من أثرياء التجار، ولكنى سأعطيها لك، وستكون وريثا لكل أموالى إذا نفذت هذا الطلب.

– سيدى.. غدا سيكون الثوب عند السلطان..

وبالرغم من تأكيدات الصبى، إلا أن الشيخ كان يجد صعوبة ضخمة فى تصديق هذا الكلام، وكان يجد مشقة كبيرة فى الاعتقاد بنجاحه فى الوفاء بما التزم به.

ومع ذلك فما كان الشيخ يجرؤ على تصور الفشل ونتائجه.. ولهذا فقد تمسك بقشة النجاة التى ظهرت له، وحاول إمساكها بكل جهده. وفى تلك الليلة فعل كما اعتاد أن يفعل كل ليلة، إذ أغلق باب الحانوت على صبيه لكى يقضى فيه ليلته.

وبمجرد أن فعل الشيخ ذلك، نهض الفتى، وتذكر الخاتم الذى أعطته له صغرى الفتيات عند بئر الجنى، وأدار الأمير الخاتم بالطريقة التى تعلمها..

وفى لحظة.. ظهرت أمامه سبع حسناوات كل منهن تجيد لونا معينا من الفن، وقالت الحسناوات السبع:

– نحن خدمك يامولانا.. ثروات الشرق والغرب ملك يديك، سل ماتريد نحققه لك للفور..

قال الأمير:

– أريد ثوبا لفتاة دون مقص، ويحاك دون إبرة، وينهض راقصا عندما يصفق له.

وردت عليه واحدة منهن.. هى المتخصصة فى هذا اللون من الفن :

– وماهو اللون الذى تريد؟

ولم يستطع الفتى أن يجيب، وعندما سكت وتردد.. اختفت الفتيات السبع..

وفى اليوم التالى قال الفتى للشيخ عندما فتح الحانوت وأسرع يسأله عما فعل.

– لقد نسيت أن تذكر لى اللون المطلوب للثوب.

وكان الفتى على حق.. فانطلق شيخ الخياطين إلى القصر، ومثل أمام السلطان الذى سمح له بالدخول إلى الحريم ليسأل بنفسه طالبة الثوب. وقالت له.

– أريده من ثلاثة أجزاء.. الأول أزرق، والثانى أخضر، والثالث فى لون زهرة الخوخ..

وتعجب الشيخ لهذه الألوان التى ذكرتها.. وخاصة لون زهرة الخوخ.. وما كان يدرى أنها إنما قصدت ذكر هذا اللون لأنه رمز للحب اختارته لتنبه الأمير عندما يسمع الطلب إلى أنها لاتزال تحبه..!

– قل لمن يتولى إنجاز الثوب أن يأتينى ويطرق بابى فإنى فى انتظاره لأزيده شرحا وتوضيحا..

وكان هذا هو ماقصدته الفتاة بالفعل.. فإن الرجل لم يكد يعيد ذكر مطالب الحسناء أمام محمد، حتى أدرك الفتى أن الفتاة ليست سوى صغرى الفتيات الثلاث، وأنها هى نفسها التى أعطته الخاتم، وقد قصدت بطلبها أن تصل إليه..

وما أكثر ماحاول الشيخ أن يبقى مع الفتى ليشهد كيف ينجز الثوب.. ولكن الفتى رفض وأصر.. وأفهمه أن عليه أن يتركه وحده، حتى يمكن أن يقدم له الثوب جاهزا فى الغد.

ولم يكد الرجل يمضى حتى أدار الفتى الخاتم فى أصبعه. وظهرت الجنيات السبع فى الحال. وقال الأمير:

- إذهبن بى إلى المرأة التى تعرفونها

وفى لحظة، كان يقف بباب غرفة جميلة التى رحبت به وهى تقول:

- تذكر.. فمازال أمامك اختباران أخران.. ومع هذا فإننى أعدك أنى لن أكون لسواك..

وعاد الأمير إلى الحانوت تحمله جنيات ست.. بينما كانت السابعة قد أنجزت وهى فى الحانوت الثوب المطلوب.

وجاء الشيخ فى اليوم التالى.. وفتح اللفافة التى تضم الثوب، وكم كان غيظه عندما رأى القماش قطعا ممزقة، صغيرة الحجم بشكل النقود.

وصرخ الشيخ فى الفتى:

- ماهذا الذى صنعت؟ هل هذا هوالثوب الذى كلفت به؟؟ أرى أنك تسخر بى وتهزأ منى..

وهز الفتى رأسه وهو يؤكد لشيخه أن الثوب أعد تماما كما طلب. وتناول الأمير الثوب ورفعه بيده.. وفى لحظه استقام الثوب كاملا وكأنه قطعة واحدة.. ثم راح يرقص مع تصفيق الأمير.

وسجد شيخ الخياطين لله شكرا.. ولم يعرف كيف يشكر الفتى الصغير.

وانطلق الشيخ حاملا الثوب إلى السلطان. الذى أخذته النشوة فأمر بكيس من المال أن يقدم له. وإذ عاد الشيخ إلى الحانوت ألقى بالمال كله إلى الأمير.. ولكن هذا رفض قبول أى شئ.

وأخذت النشوة بالسلطان وهو يحاول إرضاء الفتاة وتلبية طلبها. ولكن الفتاة لم تدع له فرصة للمتعة فقد عادت وفى جعبتها طلب جديد:

- أريد دجاجة من الفضة، صغارها من الذهب، وغذاؤها من اللؤلؤ..!

وبهت السلطان، وقضى الليل كله يفكر فى غيظ ويأس. ولكن مستشاريه خففوا عنه وأتوا له بشيخ الصياغ الذى سمع بأذنيه كيف سيفقد رأسه إذا هو عجز عن تنفيذ طلب الأميرة..!

ولم يكن أمام شيخ الصياغ إلا أن ينطلق لفوره إلى صديقه شيخ الخياطين فقد كان يذكر أن هذا الصديق سبق له أن وقع فى مثل مأزقه، ولكنه استطاع أن يحقق الطلب الذى كان غاية فى الإعجاز.

وأشار شيخ الخياطين إلى الفتى الصغير وهو يقول:

– هذا هو الفتى الذى أخرجنى من ورطتى.. فعليك به..

وراح شيخ الصياغ يرفع بصره ويخفضه فى عجب إلى الفتى محمد.. وبعد فترة من السكوت قال له:

– إذا كان هذا صحيحا.. وكان فى إمكانك تحقيق هذا الطلب الجديد، فسوف أمنحك كل الذهب الذى سآخذه من السلطان..

وأطل إليه الأمير فى سخرية، فقد أدرك لتوه أن الصائغ كان يهوديا.. من ذلك النوع الذى يعرفه الجميع وقال الفتى آخر الأمر:

– أن ماتعرضه على لايكفى.. فإذا كنت تبغى تحقيق طلبك.. لإنقاذ رقبتك.. فلتترك لى كل ثروتك أوزعها بالعدل والقسطاس على الفقراء أبناء الحى.

وهز اليهودى رأسه ونهض لتوه وهو يرفض العرض.. ولكنه لم يكد يخطو خطوتين حتى عاد يتحسس رقبته وقد تذكر تهديد السلطان.. ودارت رأسه وهو يوازن بين الثروة وبين الحياة كلها.. ولم يجد آخر الأمر بدا من أن يقول:

– لتكن مشيئتك.

وابتسم الأمير وهو يجيب:

– غدا.. سوف يكون الطلب جاهزا؟

ولم يكد الفتى ينفرد بنفسه ويغلق عليه باب الحانوت، حتى أدار الخاتم، وطلب من الجنيات السبع صنع دجاجة الذهب، وأفراخها.. واللآلئ التى تأكلها.. ولم ينس أن يطلب منهن أن يذهبن إلى حسناء القصر يسألنها عما سوف تطلبه من السلطان فى المرة القادمة حتى يعد للأمر عدته..

وفى لحظة انطلقت الفتيات إلى القصر ولكنهن عدن إليه مؤكدات أن الحسناء تطلب منه أن يأتيها بنفسه فى القصر.

وانطلقت الجنيات من جديد إلى قصر السلطان ومعهن الأمير الذى وقف أمام الحسناء وراح يستمع إليها فى كثير من الذهول.

قالت الحسناء للأمير:

– لقد صمم السلطان على عقد الزواج غدا.. عندما يقدم لى الدجاجة والأفراخ.. وسينطلق المنادون فى جميع أنحاء البلاد يعلنون بدء الاحتفالات بمهرجان يتسابق فيه الفرسان تكريما لولده الأمير الأكبر الذى سيزفنى إليه. ومن أجل أن أعطل هذا الزواج، سألجأ من جديد إلى الحيلة.. وسيكون ذلك بأن أطلب من الأمير أن يلقف تفاحة ألقى بها فى الهواء وهو يجرى بفرسه فى أرض السباق. أما الذى أريده منك فهو أن تدير خاتمك وتطلب إحضار فرس أبيض وثوب من نفس اللون، وتأتى بنفسك حيث المهرجان.. وعليك أن تحرص على تلقى التفاحة قبل أن يصل إليها الأمير واحذر جيدا أن يتلقاها قبلك.. فإنه إذا فعل فسيضيع منا كل شئ..

وكان هذا هو ماحدث بالفعل ..

ففى اليـ التالى ا لق المنادون فى جميع أنحاء البلاد يعلنون بدء مهرجان الفروسية ا ى سيمتد سبعة أيام كاملة تعزف فيها الموسيقى ويمتد الغناء طوال الليل والنهار، احتفالا بزفاف الأمير الأكبر وولى عهد السلطان.

وبدأ المهرجان فى موعده المحدد..

وشهد الناس فى ذلك اليوم فارسا كل ثيابه بيضاء.. وهو يعتلى ظهر فرس أبيض غاية فى الجمال.. يقف بين المتسابقين ويتخذ مكانه بجوار فرس ولى العهد.

ومن شرفة القصر كانت العروس الحسناء تطل إلى الميدان وفى يدها تفاحة، وفى اللحظة التى بلغ فيها المتسابقون المكان ألقت الفتاة بتفاحتها من الشرفة.. وأسرع المتسابقون إلى التفاحة الطائرة.. ومد الأمير الأكبر يده يتلقف التفاحة.. لولا أن

فوجئ فى نفس اللحظة بالفارس ذى الحصان الأبيض يدفعه من فوق فرسه ويتلقى التفاحة بيديه ثم ينطلق فى سرعة لم تدع لأحد من كل المتسابقين حوله أن يبلغه.

وساد الاضطراب المكان.. وبينما كان رجال القصر يحملون ولى العهد إلى سريره فاقد الوعى مستسلما للحمى، كان الحراس يقلبون المدينة رأسا على عقب بحثا عن الفارس الأبيض دون جدوى، فقد خطفته جنيات الخاتم وأسرعن به إلى حانوت الخياط حيث جلس يشد الإبرة والخيط وكأن شيئا لم يحدث قط.

وكان اليوم الثانى للمهرجان..

وكما حدث فى اليوم الأسبق كان هناك فارس يرتدى السواد ويركب فرسا أسود يقف إلى جوار الأمير الأوسط الذى كان يجرب حظه فى السباق، وهى الحصول على تفاحة الحسناء.. ولم يكن أحد ليدرى أن السلطان كان قد أعد خطة لمراقبة المكان، فوقف عند إحدى نوافذ القصر وفى يديه قوس وسهم.

وفى لحظات تكرر مشهد الأمس..

التفاحة تلقى من الشرفة إلى المتسابقين، والأمير الأوسط يمد كفه ليتلقاها فإذا بالفارس الأسود يسبقه اليها وهو يدفعه من فوق حصانه..

ولكن الذى حدث بعد ذلك لم يحدث مثله بالامس.. فقد انطلق سهم من إحدى نوافذ القصر ليصيب الفارس الأسود فى ساقه..

وفوجئ الفارس بالسهم. وكاد يسقط على الأرض وهو يحاول الهرب، لولا أن ثوبا غريبا ألقى إليه بسرعة من الشرفة، عرف لفوره كيف يتنكر فيه.. ليختفى بعد ذلك فى لحظات.

وكان السلطان قد تأكد من إصابته للفارس الغريب، فأمر فى الحال بإغلاق كل أبواب المدينة، وانطلق المنادون فى كل مكان يعلنون أن حرس القصر سيفتشون المنازل والحوانيت بحثا عن الفارس المصاب..

فى ذلك الوقت كان الفتى قد عاد إلى حانوت الخياط، وربط فخذه المجروح ليوقف نزيف الدم وإن لم يستطع إخفاء العرج الذى أصابه..

وأطل شيخ الخياطين إليه وهو يستفسر عن سبب عرجه.. وكان رد الفتى عليه أنه يحس قليلاً من المرض والاجهاد ولاشئ أكثر..

وبينما كان المنادون يواصلون الطواف فى شوارع المدينة، كان شيخ الخياطين قد بدأ يساوره الشك فى حقيقة إصابة صبيه.. وتذكر أنه غاب بعض الوقت بالأمس وفى اليوم الذى سبقه دون أن يدرى أين كان..

وانطلق الشيخ فى هدوء إلى الفتى وقال له:

ـ لست أتهمك بشئ ياولدى.. ولكنى لم أعد أدرى كيف أظل محتفظا بك فى حانوتى، وأنا أعلم أن حراس السلطان سيصلون بين لحظة وأخرى ويفتشون المكان.. وأظنهم سيقبضون عليك حالما يجدونك ويشهدون إصابتك.. فهل ترضى أن تعرضنى للمتاعب والإهانات..!؟

وسيطرت فترة من الصمت على الإثنين كانت الأفكار خلالها تتباين وتتصارع دون الوصول إلى قرار..

وفجأة، هز الخياط رأسه وهو يقول للفتى.

– اسمع يابنى.. سأتحمل كل شئ.. وسأعد العدة على الفور لأعلن زواجك من ابنتى، فترتدى رداء العرس، وتجلسان خلال الحفل معا.. ولن يستطيع أحد عند ذلك أن يتهمك بشئ.

وسكت الأمير الصغير ولم يبد أى تعليق. غير أن الرجل أدرك أن الفتى كان منشغلا عن كل ذلك بأفكار أخرى لم يفصح عنها قط.. وتحير الرجل، وعاد يقول للفتى:

– يبدو يابنى أن هناك شيئا خطيرا يشغلك.. فما هو؟

وتكلم الفتى آخر الأمر. وراح يقص قصته كلها على شيخ الخياطين الذى فتح عينيه فى دهشة بالغة وهو يستمع إلى كل ماجرى للأمير منذ غدر به أخواه حتى إصابته بالسهم الذى صوبه إليه أبوه.. ومن خلال الحديث عرف الخياط قصة الحب

التى ربطت قلب الأمير بالصبية الحسناء التى أنقذها من قصر الجنى.. وكيف استطاعت أن ترد اليه الجميل بخاتمها السحرى الذى حقق كل مطالب السلطان التى وجهتها إليه.

وهز الرجل رأسه فى النهاية وهو يؤكد للأمير أن لابد من إطلاع السلطان على كل مايجرى فى القصر.. وعندما قبل الفتى عرض الرجل استحلفه الا يذكر لأبيه أى شئ حتى يحصل منه على الأمان والعفو عما سيقصه عليه.

وانطلق الخياط يلتمس مقابلة السلطان. وعندما مثل بين يديه طلب منه أن يؤمنه أولا على حياته، وأن يضع يده على رأسه لإعطائه هذا الأمان.

وقال السلطان:

– تكلم دون خوف..

وتكلم الشيخ:

– كم عدد أبنائك يامولاى !؟

وبدا السؤال غريبا للسلطان الذى أجاب:

– ثلاثة أبناء.. ولكن أصغرهم أصابه الموت.

قال الشيخ:

– وإذا كان حيا يرزق يامولاى!؟

وراح شيخ الخياطين يقص على السلطان كل ماحدث.. وقبل أن يختم كلامه قال له:

– والآن.. قد ذكرت لك كل ماكان.. ومن أجل أن تحصل على برهان قاطع فالتمس أن تسأل الفتيات الثلاث اللاتى جئن مع ولديك تجد عندهن الدليل على صدق قولى..

كان السلطان قد استسلم فى ذلك الوقت لغضب يختلط بالحيرة التى أصابته من

تفاصيل الحديث. واستدعى الفتيات الثلاث اللاتى كان فى كل كلمة قلنها تأكيد لقصة الشيخ..

وجئ بالولدين ليمثلا أمام السلطان.. ولم يكن أحدمنهما ليجرؤ على الاعتراف.. بل راحا يؤكدان وفاة أخيهما الصغير..

وقال السلطان للشيخ:

– آتنى بولدى محمد.

ولم تمض لحظات حتى كان الفتى ينحنى أمام السلطان ويلثم يديه.. بينما أخوا وقد انهارا تماما يحاولان جاهدين الهرب من أمام والدهما..

وقال محمد :

– هناك برهان آخر ياأبى.. هاتان التفاحتان اللتان تلقفتهما فى السباق.. أما بقية التفاحات التسع التى سرقها الجنى فهى مع الفتيات الثلاث وقد سلمتها لهن بنفسى..

وقال السلطان للصبية الصغيرة:

– ومن الذى أنقذك من الجنى..

أجابت الفتاة:

– لقد أعطيت خاتمى لمنقذى.

وهنا خلع الأمير محمد الخاتم السحرى وقدمه للسلطان.

وأطل السلطان إلى الجميع.. وانطلق صوته عميقا هادرا:

– تقدم يابنى وتسلم عرش السلطنة.. وليكن هذا الشيخ وزيرك ولتكن جميلة زوجتك..

وتحول إلى الفتاتين الثانيتين ثم قال:

– وأنتما ياطفلتاى فأمر كما متروك لمنقذكما.. يتصرف فيكما كما يشاء.

وحول السلطان بصره بعد ذلك إلى ولديه.. وقال فى صوت رهيب:

– أما الخائنان فليس أمامهما إلا الموت.. ولتكن عقوبتهما وطريقة إعدامهما فى يد السلطان الجديد..

ونهض السلطان يحتضن ولده، بينما سقط الخائنان على الأرض يلتمسان العفو والغفران..

ونطق السلطان محمد بالحكم على أخويه..

وكان الحكم بالعفو.. وتسليم عنقهما لرباط الزواج بزميلتى جميلة.. على أن تكون العصمة بيد الفتاتين..

وقد كان ..!

ياقوتـــــة

حكاية من الجزائر

لم يكن يدرى يوم ورث تلك الثروة الهائلة وهذه التجارة الواسعة عن أبيه، أن كل ذلك يمكن أن يضيع خلال سنوات قليلة.. فقد كان الله وحده يعلم قدر تلك الثروة، وكان الأب يعلم جيدا أنه إنما يترك تلك التجارة المزدهرة الواسعة لولد وضع فيه كل آماله وثقته، فقد كان الفتى فى الحق غاية فى الأخلاق الحميدة والخصال الرائعة الكريمة..

من أجل ذلك كان عجيبا لدى الأم أن تجد ولدها يواصل تبديد تلك الثروة بين يوم وآخر.. وماأكثر مانصحته أن يسير سيرة أبيه، ولكن الفتى، وقد رأى تلك الثروة الواسعة تجرى بين يديه، راح يستسلم فى سهولة لإخوان السوء الذين كان كل همهم أن يستنزفوا تلك الثروة على ملاذهم الصاخبة وسهراتهم الفاجرة.. وانطلق الأصدقاء المزعومون يتملقون الفتى ويطرونه ويصورون له أن قيمة السعادة إنما هى فى تلك الحياة الصاخبة الماجنة التى يبذر فيها الأموال عن يمين وشمال.

وكان لابد للبحر الزاخر أن يتسرب ماؤه ليغيض بين رمال الرذيلة والسفه والتبذير.. وفوجئ الفتى وأمه ذات يوم ولاشئ لديهما قط.. لامال.. ولاتجارة.. ولابيت يسكنان فيه بعد أن فقداه فى سداد الديون التى تراكمت عليهما من كل مكان .. وخاصة من نفس هؤلاء الأصدقاء الذين كانوا يعملون فى الخفاء على الاستيلاء على كل ما يمكن الاستيلاء عليه من ثروه الفتى الغر الصغير ..

وكانت الصدمة قاسية .. عرفت كيف تعيد العقل إلى رأس الفتى .. وإن كان ذلك قد حدث بعد أن كان الأمل قد ضاع. ومع هذا فقد قرر الفتى أن يبتعد وأمه عن تلك البلدة إلى حيث يستطيع أن يبدأ حياة جديدة يحاول خلالها تعويض ما فات ..

وعلى ظهر البغل الوحيد الذى بقى لهما من الثروة الطائلة، وضع الفتى أمه، ومعها القليل من المؤن التى استطاع أن يحصل عليها .. وانطلقا معا فى الصحراء وقد أسلما أمرهما لله .. بعد أن أقسم الفتى أن يكد ويشقى ويكافح بعرق جبينه من أجل أن يكون ثروه لا تقل عن تلك التى تركها له أبوه.. بالعرق والكفاح الأمانة فى كل شئ.

وذات يوم بلغ موكب سى عبد القادر وأمه غابة واسعة عريضة لم يسمع بمثلها من قبل. وكان لابد للفتى وأمه قبل أن يخترقا طريقهما فى الغابة وليس معهما سوى البغل .. أن ينزل الفتى أولا ليتحسس حقيقة المكان قبل أن يمضيا فيه. وانطلق الفتى يخترق الغابة شاهرا سيفه وهو يطل الى يمين وشمال ولايجد شيئا مثيرا قط .. وفجأة، توقف وقد فتح عينيه فى رهبة وذعر.. فهناك من فوق أحد أغصان أشجار الغابة، كانت هناك جثة فتاة رائعة الجمال تتدلى وقد علقت فى فرع الشجرة بحبل غليظ. واضطرب سى عبد القادر وهو يشهد ذلك المنظر المثير، خاصة وقد بدت الفتاة فاقدة كل مظاهر الحياة، ومن تحت رأسها المائل المتدلى بقع كثيرة من الماء تساقطت من جرح كبير فى عنقها المكشوف.

ولفت نظر الفتى ثلاث نقط من الدم وقد تحولت إلى ثلاث حبات كبيرة من الياقوت الأحمر. كل منها فى حجم العنبة.

وبينما الفتى يتراجع ليترك المكان فى رعب، كانت فى رأسة دوامة حائرة بين أن يمد يده ليأخذ حبات الياقوت، وهو لايدرى من يكون صاحبها، أم يتركها دون أن يستولى عليها ..

ويبدو أن الحيرة جعلته ينطلق عائدا إلى أمه دون أن يمد يده إلى كل حبات الياقوت، وإن كان قد وضع واحدة منها فى جيبه على أمل أن يعيدها إلى مكانها فيما بعد. وعنما راح الفتى يقص على أمه ما كان ويسألها إذا كان يمكن أن يحصل على الحبات الرائعة ما دامت بغير صاحب.. أجابت أمه:

- إن الحياة قاسية ياولدى .. ولكن أنسيت أن اباك كسب بالشرف والأمانه ثروة ضخمة لم تضع إلا بسبب أطماع الآخرين .. فهل ترضى لنفسك أن تبدأ حياتك الجديدة بالطمع فى مال الغير والاستيلاء على ماليس لنا حق فيه!؟. ابتعد يابنى عن هذا الطريق ولاتغريك حبات الياقوت فهى لن تغنيك أبدا..

واقتنع الفتى بنصيحة أمه.. ولكنه لم يستطع أن يكشف لها أن بجيبه واحدة من

حبات الياقوت حتى لاتسئ الظن به. ومع هذا فقد قرر أن يعيد الحبة إلى مكانها بعد أن يصل بأمه الى مكان أمين.

وانطلق الموكب الصغير.. حتى بلغ فى اليوم نفسه مدينة كبيرة على الجانب الآخر من الغابة. وعزم الفتى على أن يستقر مع أمه فى تلك المدينة وأن يستأجر بيتا صغيرا ودكانا يبدأ فيه ممارسة تجارته..

وبدأ الفتى يقيم حياته الفاضلة من جديد..

ولم يكد ينجلى صباح اليوم الذى تلايوم الوصول.. حتى ضربت أسماع سى عبد القادر كلمات غريبة يطوف بها أحد المنادين فى جميع طرقات المدينة.

وكان المنادى يقول فى صوته الجهورى:

«باسم السلطان الأعظم.. أعلن لكل من يبغى الثراء وكل من كتب له الله الغنى الوفير.. أنه يستطيع بلوغ أمله إذا تمكن من الحصول على ثلاث حبات من الياقوت الأحمر.. فسيمنحه السلطان مكافأة كبيرة تجعله من أكبر أثرياء البلاد..»

وانطلق الفتى فى عجب يتقصى الخبر ويتسمع حقيقة النبأ.

وكانت القصة التى سمعها غريبة مثيرة.

فقد كان للسلطان ابنة رائعة الجمال تسمى «دم الغزال»، طمع ابن الوزير فى الزواج منها. ولم يجد السلطان مايمنعه من قبول العرض، لولا أنه لم يكد يسأل ابنته ليستشيرها قبل التصرف فى الأمر، حتى هزت رأسها وهى تقول:

– لن أتزوج ياأبى إلا بعد أن أحصل على ثلاث حبات من الياقوت الأحمر أتزين بها.. واحدة لأضعها على جبهتى.. واثنتان لتكونا زينة أساورى..

وأدرك السلطان أن ابنته لاتبغى من وراء ذلك الشرط الغريب إلا أن تعلن رفضها المستتر للزواج من ابن الوزير.. وكان يعلم جيدا أن أحدا من فتيان المدينة كلها لن يستطيع تحقيق ذلك الشرط حيث لم ير أحد قط من السكان ذلك الياقوت الأحمر، وإن سمعوا عنه قبل ذلك القصص فحسب..!

وحاول السلطان أن يثنى ابنته عن قرارها.. غير أنها كانت - وهى البارعة فى فن العرافة- قد عرفت وهى تفتش فى بطن أحد الجمال أنه قد قدر لها الزواج من فتى يأتى لها بثلاث حبات من الياقوت الأحمر الكبير النادر الوجود..

على أن الوزير كان رجلا لايستسلم للهزيمة بسهولة، ويعرف جيدا كيف يصل إلى تحقيق أغراضه. وفوجئ أهل المدينة ذات يوم بذلك المنادى الذى انطلق فى كل الطرقات يعلن المكافأة الضخمة لمن يستطيع أن يحضر ثلاث حبات من الياقوت.. كل منها فى حجم العنبة.

وكان للنداء وقع كبير فى نفوس الكثيرين من شباب المدينة.. فانطلق عدد من المغامرين يغادرون المدينة ويقومون بجولات واسعة خارج البلاد بحثا عن الياقوت الأحمر الغريب..

وتحسس سى عبد القادر الياقوتة التى كانت لاتزال فى جيبه، ثم جمع أطراف شجاعته، وانطلق يجر ساقيه الى قصر السلطان..

ومثل الفتى أمام السلطان وهو يقول:

- مولاى.. إننى أملك حبة واحدة من الياقوت الأحمر النادر أقدمها هدية لك..

وملأت الفرحة قلب السلطان.. فأخذ الياقوتة بعد أن منح الفتى منحة مالية كبيرة..

وانطلق الفتى يحمل الثروة التى هبطت عليه من السماء، وبدأ يضاعف ويوسع أعماله، وهو يحاول أن يتبع خطى أبيه. ولم تكد تمضى أيام قليلة حتى كان اسم الفتى يدوى فى المدينة كواحد من أكبر تجارها وأكثرهم نزاهة وأمانة وشرفا وحسن سيرة.

عندما عاد المغامرون من حيث ذهبوا يبحثون عن الياقوت الأحمر الذى طلبته الأميرة، كانوا جميعا يحملون خفى حنين.

وانطلق السلطان إلى ابنته وقال لها:

– إن طلبك ياابنتى بعيد المنال.. وقد فشل الجميع فى تحقيقه إلا واحدا استطاع أن يعثر على ياقوتة واحدة حمراء نادرة..

وهزت الفتاة رأسها وهى تجيب:

– لن أتزوج إلا بعد حصولى على ثلاث حبات من الياقوت! وغادر السلطان غرفة ابنته وقد ملأه اليأس والضيق، ولكن أحد مستشاريه ممن عرفوا بالحكمة والفهم قال له :

– مولاى.. إن الذى حمل إليك الياقوته الحمراء الكبيرة هو وحده الذى يملك أن يحضر لك بقية الياقوت المطلوب.

واستغرب السلطان كيف نسى ذلك من قبل.

وعندما وقف التاجر الفتى بين يدى السلطان كان أول ماسمعه ذلك النذير الرهيب:

– لقد استطعت أن تقدم لى حبه من الياقوت.. ولما كنت فى حاجة إلى ثلاث من هذه الحبات فسأجعل أمك رهينة لدى حتى تحمل إلى الحبتين الباقيتين.. فإذا عدت بهما فستكون لك مكافأة سخية.. وأما إذا فشلت فستكون رأس أمك هى الثمن..

وكان التهديد رهيبا.. ولم يجد الفتى أمامه إلا أن يجيب:

– حسنا يامولاى.. سأحقق لك رغبتك.. ولكن كل ماأطلبه هو أن تزودنى بعبدين أسودين لمصاحبتى بدواب ومؤن تكفينى شهرين..!

وكان سى عبد القادر يعرف جيدا أن المكان الذى يستطيع أن يجد فيه بقية حبات الياقوت على بعد عدة فراسخ قليلة منه.. ولكنه كان حريصا على إشاعة جو من الغموض حول ذلك المكان الذى سيذهب إليه..

وانطلق سى عبد القادر ليبدأ رحلته.. ومعه العبدان والمؤن الكثيرة التى أمده بها السلطان. ولم يكد يقترب من المكان الذى يعرفه حتى أوقف العبدين ومضى فى الطريق وحده وهما فى انتظاره.

واستبدل الفتى بملابسه ملابس أخرى حتى لايعرفه أحد.. وراح يتوسل إلى الله طوال الطريق أن يسهل له بلوغ مهمته..

وبينما هو فى سرحته إذ توقف فجأة.. فقد كان قد بلغ المكان الذى يبحث عنه.. وهناك فى نفس المكان.. ومن نفس غصن الشجرة، كانت جثة الفتاة لاتزال تتدلى، ورأسها الى أسفل، والجرح يشق عنقها بينما الدم يتساقط على الأرض قطرة وراء قطرة كما شاهده قبل ذلك بأسابيع..

وذهل الفتى وهو يتابع النظر إلى الجثة التى ظن من قبل أنها تبددت لطول مابقيت معلقة فى هذا المكان.. وفكر أن يزداد اقترابا ليرى حقيقة ماهناك.. ولم يكد يفعل حتى تسمر فى مكانه بسرعة.. فقد رأى الساحر اليهودى يظهر فجأة.. ويتقدم من الضحية المعلقة. واختفى الفتى وراء إحدى أشجار الغابة وراح يتابع الأمر بعينين مفتوحتين من الذهول والاستغراب..

وقف اليهودى إلى جوار الجثة المدلاة، ثم مد يديه وراح يفكها من قيودها. وعندما أنزلها وتلقاها بين ذراعيه اقترب بها من حوض به ماء إلى جوار الشجرة، ودلى راسها فى الحوض بعض الوقت ثم رفعها ووضعها فوق ساقية.

ولم تمض لحظات حتى فتحت الفتاة عينيها وهى تفيق من إغماء طويل .

وعندما انتبهت الفتاة إلى نفسها فوجئت باليهودى ينهض واقفا على قدميه وفى يده عصا رهيبة، وانهال بها على كل مكان من جسد الفتاة وهو يقول بين كل ضربة وأخرى:

– ياقوتة..!؟ ألا تزالين مصممة على رفض الزواج منى!؟ تكلمى..؟ أجيبى!؟ قولى أنك ستتزوجيننى وتتحولين عن دينك!؟

وكانت الفتاة تتلقى التعذيب فى صمت وصبر عجيبين وتجيب:

– لن أتزوجك.. ولن أترك دينى..؟! حتى لو مزقت جسدى وقطعته إربا..

وراح اليهودى يواصل تعذيبه للفتاة ويزداد بعد كل رد من ردودها قسوة

ووحشية. ولم يطق الفتى هذا المشهد الرهيب.. ولم يهتم لما يمكن أن يلحقه من اليهودى الدنس، فخرج من مخبئه، وانهال على الرجل العملاق بسيفه فى قوة وصخب. ولكن اليهودى انحرف عن مكانه فى سرعة ليختل بالفتى توازنه ويسقط على الأرض. غير أن الفتى أسرع الى استعادة توازنه ونهض فى سرعة بينما اليهودى يحاول الهرب والتحول إلى شكل أسد مفترس رهيب.. وشق سيف الفتى طريقة إلى رأس اليهودى الذى كان قد بدأ يتحول إلى رأس أسد، وبلغ السيف الرأس فى الوقت المناسب فإذا به ينفلق فلقتين.. وإذا بجسد العملاق ينهار فوق الأرض وقد انبثق منه الدم..

وبينما سى عبد القادر يعتدل فى مكانه ويسحب سيفة من الرأس المقطوع. كانت الفتاة تطلق صيحة فرح عالية وقد رأت عدوها الرهيب قد سقط جثة لاحراك بها..

وفتح الفتى ذراعيه يتلقى الفتاة التى ألقت بنفسها إليه وهى تقول :

– سوف تكون زوجى أمام الله وحسب شريعته!

ومضت لحظات والهدوء يسيطر على المكان.. ثم تناول الفتى ذراع الصبية فى لطف وقادها ليبتعد عن المكان.. وعندما اختفى المنظر الرهيب من أمام عيونهما بدأ سى عبد القادر يحدث الحسناء فى بساطة، وراح يسألها عن حقيقة قصتها.. وقالت الفتاة:

– أنا ياقوته ابنة ملك الجان.. وقد مضى على الآن مالايقل عن عام كامل وأنا أسيرة هذا اليهودى، يعذبنى خلاله بين كل مساء ومطلع النهار وينهال على بمثل هذا الضرب المبرح الذى رأيت.. حتى إذا فقدت صوابى حولنى إلى شكل الذبيحة الميتة عن طريق السحر وعلقنى من قدمى فى غصن الشجرة وترك الدم يقطر من رقبتى ويسيل على الأرض ليتلقاه بنفسه فى إناء صغير..

وقال سى عبد القادر بعد أن أنصت لها فى اهتمام شديد:

– ولكن كيف استطاع اختطافك؟

أجابت ياقوتة:

– كنت أجلس ذات يوم فى مدخل قصر أبى، عندما هبت ريح عاصفة شعرت معها بنفسى وقد انتزعت من مكانى، ووجدتنى فجأة ملقاة فى حوض ماء.. وعندما انزاحت الريح فوجئت بذلك اليهودى يقف أمامى فى شكله الرهيب ويأمرنى بأن أتزوجه وأعلنت له رفضى فى قوة.. فلم أكد أفعل حتى فوجئت به ينهال على ضربا، ثم يعلقنى من قدمى فى غصن الشجرة، ويجرح عنقى، ثم يمضى بعيدا. ومنذ تلك الليلة والقصة تتكرر كل يوم.. ولا أستطيع إلا أن أتلقى ذلك التعذيب بكل صبر واحتمال وأنا مصممة على رفض الاستسلام لليهودى الدنس. وكنت أعرف أنه يستغل تلك الفرصة ويجرحنى بتلك الطريقة حتى يحصل على دمى الذى يسيل فيتحول الى ياقوت يجمعه فى الإناء ليعود فيحصل فى اليوم التالى على كمية أخرى جديدة. ولست أدرى كيف عجز أبى عن إنقاذى وهو ملك كل الجن الذين يعيشون فى قاع البحر ..

سار سى عبد القادر وإلى جواره ياقوتة حتى بلغا المكان الذى وقف فيه العبدان. وأطلت ياقوته آخر الأمر إلى الفتى وطلبت منه أن ينطلق بها قريبا من المكان الذى يقيم فيه أبوها حتى تستطيع أن ترد لمنقذها بعض الجميل وتقدم له بعض الهدايا والحلى.. ولم يجد الفتى ما يمنعه من أن ينطلق بها حتى شاطئ البحر.. حيث ترجلت الفتاة من فوق الجواد وقالت له:

– انتظرنى هنا حتى أعود.. ولن أتأخر عليك قط.

وأحس الفتى كأنها تخدعه، فأمسك بذراعها وقال:

– لن أدعك تذهبين حتى تقسمى لى يمينا.

وأقسمت الفتاة، فما خطر ببالها قط أن تهرب منه. وعندما ترك ذراعيها، انطلقت فى سرعة إلى الماء.. حيث غاصت بين لججه واختفت عن ناظريه.

ومضت الساعات طويلة قاسية.. والفتى يرقب صفحة الماء لعلها تنشق عن

ياقوته، غير أن شيئا من ذلك لم يحدث أبدا.. وبدا له البحر كأنه يسخر منه وكانما ضربات أمواجه دقات هائلة تمزق منه القلب والعقل والأعصاب..

واقترب الليل ولم يعد هناك جدوى من الانتظار..

وبدأ الفتى يتحول إلى الطريق ليبدأ رحلة العودة الفاشلة وفى الأعماق منه يأس مرير..

ولم يكد يبدأ السير حتى ضرب سمعه دبيب فرسان ينطلقون فى سرعة وكأنهم يسبقون الريح. وأطل مدققا النظر فإذا بموكب ضخم يقترب من بعيد.. ولايكاد يبلغ مكانه حتى يتوقف.. بينما الفتى يفتح عينيه فى دهشة لذلك المشهد الذى رآه..

فهناك.. وسط موكب الفرسان.. كانت ياقوته تجلس فوق هودج فخم.. تزينه اللآلئ والجواهر.. بينما الذهب يثقلها من كل جانب ومن حولها عشر وصيفات.. فى مقدمتهن فارس بدا منذ أول وهلة صاحب مركز فى عالم الجن..

وعندما اقترب الجنى من سى عبد القادر انحنى أمامه فى احترام وتقدير وقال :

– باسم ملك الجان أقدم لك ياسيدى كل تقدير وتحية. وإنى لمبلغك رسالته التى يتمنى لك فيها السعادة ويدعو رب العالمين أن يزيد من شجاعتك وقدرتك، فقد عجز طوال عام كاه ١،، رغم كثرة من أرسل من الأتباع، عن القبض على اليهودى الملعون الذى أسر ابنته، ولكن هذا اللعين كان يسخر من كل من يحاول الاقتراب منه، ويواصل تعذيب ياقوتة تماما كما كان يعذب فتيات أخريات مثلها هن هؤلاء الوصيفات العشر اللاتى أنقذن مع ياقوتة منذ قضيت على اليهودى الساحر الملعون. ولما كان مولاى يقدر لك تلك الشجاعة، ويبغى أن يتمكن من رد الجميل، فهو يقدم لك ابنته ياقوتة.. لتكون زوجة.. فاذهب بها والسلام عليك..

ولم يكد الفارس ينهى حديثه حتى رفع يديه ثم غاص بحصانه بين لجج مياه البحر.

واضطرب سى عبد القادر لبضع لحظات.. غير أن ياقوتة نادته فى صوت رقيق

فانتبه لنفسه.. وانطلق إليها ليأخذها بين ذراعيه، ثم ينطلق بها وبالموكب كله فى الطريق إلى المدينة.

وفتح سكان المدينة عيونهم فى دهشة وعجب وهم يبصرون ذلك الموكب الرائع الذى راح يخترق الطريق إلى بيت سى عبد القادر.. وراحوا يتأملون الجواهر واللآلئ والذهب الذى كان يكاد يغطى كل من بالموكب من الوصيفات إلى العروس التى وجدوها تجلس إلى جوار التاجر الأمين الذى طالما عرفوه وأحبوه..

ومن داخل بيت التاجر راحت الموسيقى وأصوات الغناء ترتفع لتملأ جو المدينة ضجيجا وضخبا.. وضربت الأصوات سمع السلطان الذى لم يستطع أن يدرك سر ذلك التحول الغريب إلا عندما تنكر ودخل إلى بيت التاجر كواحد من مدعويه.. وشهد بعينيه لأيام ثلاثة كل ذلك الجو الرائع من البذخ والفتنة والجمال الذى غرق فيه الفتى إلى أذنيه..

ولم تكد الليلة الثالثة من ليالى لزفاف تتم، ويبدأ المدعوون فى الانصراف، حتى انطلق صوت السلطان من أقصى القاعة إلى عدد من الحراس المتنكرين فى أمر كدوى الرعد:

– أيها الحراس.. اقبضوا على هذا الأفاق..

وسكتت أخر دقات الموسيقى ليرتفع ضجيج الحراس وهم ينطلقون بسيوفهم ليحيطوا بالفتى الذى انتفض فى مكانه وقفز إلى جانب من الجدار فاختطف سيفه.. وانطلقت من بين شفتيه صرخة كزئير الليث .. وهو يلقى بنفسه فوق الحراس وسيفه يضرب عن يمين وشمال.

كان واضحا منذ اللحظة الأولى أن المعركة غير متكافئة.. فما كان سى عبد القادر، ولو ملك قوة الشياطين، ليستطيع أن ينتصر على عشرات من حرس السلطان دربوا جيدا على القتال. وعندما وجد الفتى نفسه أخر الأمر يقف مستسلما أمام السلطان، لم يكن يدرى كيف يمكن أن يتصرف بعد..

وقال السلطان فى صوت غاضب مثير:

– أين حبتى الياقوت أيها اللص؟

وأجاب التاجر الشاب وهو ينتفض:

– لست لصا يامولاى.. وإذا كنت قد نسيت أن أواصل البحث عنهما فأؤكد أننى لن أتراجع عما وعدت..

– متى تأتى بالياقوتتين؟

أجاب سى عبد القادر:

– أعطنى مهلة لاتزيد عن شهر.. أعود لك بما تريد..

وهز السلطان رأسه وهو يقول:

– لتكن لك تلك المهلة.. على أن رأسك لن تبقى فوق جسدك إذا تجاوزت يوما واحدا..

وانطلق الفتى عائدا إلى داره.. والهموم تثقل على صدره ورأسه حتى ليكادان ينفجران. وملأ الضيق عروسه وهى تحاول بكل ماستطاعت من جهد أن تخفف عنه عبئا.

واضطر أن يتكلم آخر الأمر:

– إن الأمر يتعلق بحياتى يا ياقوته.. وليس أمامى سوى شهر أحضر فيه للسلطان حبتى الياقوت..!

وانطلقت من بين شفتى ياقوته ضحكة مرحة.. جعلت سى عبد القادر يقفز من مكانه، ويكاد لضيق أنفاسه أن يقذفها بأى شئ يمكن أن يكون فى متناول يده.. وسكتت الفتاة ثم ربتت على كتفه وقالت له:

– هذا كل مايخيفك..!؟ إن ماطلب منك من اليسير تحقيقه.. ابعد الحزن عن نفسك.. واقض ساعتك فى هدوء وأمل.. وسيكون طلبك جاهزا قبل الموعد المحدد..

ومضت الأيام.. وعاد الأمل يراود سى عبد القادر حتى كاد ينسى أن الأمر كان

يشكل فى رأسه دوامة من الحيرة.. وعند نهاية الشهر المحدد تذكر فجأة طلب السلطان.. فانطلق إلى ياقوته وقال لها:

– وماذا بعد ياقوته؟

ردت الفتاة:

– أحضر لى سكينا حادا..

وجاءوا بالسكين. وبينما ياقوته تهز السكين فى يدها وتمسحه، إذ بحده يمر فى سرعة على أصابعها، وإذ بنقطتين من الدم الحار تهبطان على الأض وتتحولان فى لحظة إلى حبتين من الياقوت..

وفتح الفتى الباب على السلطان وصرخ:

– هاهو الياقوت الأحمر المطلوب يامولاى..

وكانت مفاجأة مبهجة للسلطان. فما تصور من قبل أن أحدا قط سينجح فى إحضار الياقوتتين الباقيتين. من أجل ذلك اهتز السلطان فى مقعده وهو يمد يده إلى الفتى مرحبا.. ويقول له:

– أحييك أيها الفتى على الجهد الذى قمت به لتحقيق رغبتى.. ولهذا فسأعطيك أى شئ تريد مقابل هذا النجاح. فما الذى تبغيه؟

أجاب التاجر الشاب:

– لاشئ قط.. سوى تنازلك بقبول الهدية.

عندما انطلق السلطان إلى ابنته يقدم لها الياقوت والسعادة تملؤه، فوجئ بها وهى تبدو غير راضية. وسألها الأب عن سر عدم ترحيبها بالياقوت الذى طلبته وتمنته.. وكان الجواب الذى تلقاه:

– لقد كان ذلك أول مطالبى فحسب ياأبى لأقبل الزواج من ابن الوزير.. أما مطلبى الثانى فهو إحضار عقد من اللآلئ الثمينة يمكن أن يلتف حول صدرى عشر مرات..

وفوجئ الرجل.. وماأكثر ماحاول أن يثنى ابنته «دم الغزال» عن ذلك الطلب، إلا أنها صممت عليه ولم تبد أى مظهر من مظاهر الاقتناع.

وعاد السلطان إلى مستشاره يسأله مشورته..

وأجاب العجوز:

– لن ينجح فى إحضار العقد إلا الرجل الذى جاء بالياقوت.. وانطلق السلطان من جديد يدعو التاجر الشاب ويهدده بقطع رأسه لو فشل فى تحقيق مطلبه.

ولم يكن أمام الفتى إلا أن يتحسس رقبته فى أسى، ثم يمضى فى حيرته وهمه إلى زوجته وهو يكاد ينفجر من الغيظ..

غير أن ياقوته لم تكن لترضى بذلك الحزن والأسى يسيطران على رأس زوجها فما أسرع ماهدأت باله، وسهلت له الأمر. وأعطته ورقة كتبتها على عجل وهى تقول:

– امض بتلك الرسالة إلى نفس المكان الذى غصت فيه عند الشاطئ.. وهناك ارفع صوتك واهتف مناديا «أيها الأب سعدان..» وكرر النداء ثلاث مرات.. فستجد متى فعلت عملاقا أسود يخرج لك من الماء.. ويقف أمامك فى سكون. فلا يتملكنك الذعر، واقفل فمك دون أن تنبس بكلمة، ثم مد يدك له بهذه الرسالة دون أن تنتظر منه ردا. سيأخذ الأب سعدان منك الرسالة ويغوص فى الماء من جديد. فإذا ظهر بعد ذلك بقليل دون أن يغيب، ثم غاص مرة أخرى، فعليك أن تنتظر فى نفس المكان ثلاثة أيام فى انتظار أن يعود.. أما إذا أبطأ فى العودة إليك، فاعلم أن رحلتك فاشلة، وتستطيع أن تعود أدراجك فى اليوم نفسه.. ولتفكر بعد ذلك فيما يكون..

مضى سى عبد القادر فى طريقه فى الصباح التالى متجها إلى الشاطئ الذى غاصت فيه ياقوته من قبل.. وعندما وقف هناك رفع عقيرته فى رعشة مناديا:

– أيها الأب سعدان.. أيها الأب سعدان.. أيها الأب سعدان.

وفجأة.. ارتعش سطح الماء، وخرج عملاق ضخم أسود اللون، راح يقترب منه فى خطوات واسعة.. حتى إذا بلغه كان سى عبد القادر يمد له يده المرتجفة برسالة ياقوتة.

ولم يكد العملاق يتناول الرسالة حتى تراجع إلى الخلف ثم غاص فى الماء من جديد. ومضت لحظات كأنها الدهر، وقلب الفتى يدق، فى انتظار العودة العاجلة للعملاق.. على أن اللحظات التى انقضت فى الانتظار لم تتجاوز بضع ثوان، ارتعش بعدها الماء بينما العملاق يطل بين أمواجه، ويبدى للفتى إشارة بالانتظار، ليغيب من جديد..

على أن ذلك كان هو كل مايتمناه سى عبد القادر.. فقد كان بوسعه أن يطمئن بعد ذلك، وأن يقضى الأيام الثلاثة فى الانتظار حتى يعود العملاق بعقد اللؤلؤ.

غير أن مالم يتوقعه قط هو ذلك الذى حدث على الفور، فقد انشق سطح الماء لتقترب خيمة ملكية رائعة، وتنتصب فى مواجهته. وبرغم الدهشة التى ملأته فقد تقدم نحو باب الخيمة. فإذا مائدة عامرة فى وسطها مليئة بكل أنواع الطعام بينما صوت لم يدر من أين يحدثه يقول له:

- إن هذا التكريم من أجل الشخص الذى أنقذ بنت ملكنا وقضى على الشرير الذى عجزنا عن هزيمته.. إن سعادته وهناءه سيزدادان كل يوم..

وانقضت الأيام الثلاثة.. والأطعمة تتعدد مرات ثلاثا كل يوم.. وسبل الراحة تتنوع بين وقت وآخر.

ولم يكد النهار الثالث ينتصف، حتى سمع الفتى أصوات جياد تقترب وخرج ليطل من داخل الخيمة. فإذا قافلة كبيرة تتقدم من بعيد، يتوسطها هودج فخم تحمله ناقة بيضاء. وعندما توقفت القافلة أمام الخيمة، تقدم عبد أسود وانحنى عند قدمى التاجر الفتى. ثم قال له:

-خيرات الشرق والغرب تحت أمرك.. هذه لؤلؤة بنت رئيس وزراء مملكة الجان البحريين نقدمها إليك لتكون زوجتك.. وبصحبتها عشر جوار وعشر مغنيات وعشرة من العازفين.. فضلا عن العبيد السود. وكلهم ملكك تتصرف فيهم كما تشاء.

وبينما العبد يحدثه، إذ بالخيمة تحتفى فجأة، والعبد يواصل كلامه:

– امض الآن فى طريقك.. وستجدنا لحظة وصولك موجودين فى دارك مع ياقوتة..

وأطل الفتى حوله فإذا كل شئ قد اختفى.. وكأن شيئا لم يكن هناك قط.. لاخيمة، ولاموكب، ولا عروس ولاجوار وعبيد.. لاشئ سوى جواده الذى أتى به ثم اختفى ليظهر أمامه من جديد.

ومضى سى عبد القادر عائدا إلى المدينة فى طريقه إلى داره. ولم يكد يصل حتى فوجئ بموسيقى وأغان تنطلق من داخل الدار، وإذا بلؤلؤة جالسة فوق كرسى عرسها تماما كما تفعل العرائس ليلة زفافهن.

وسمع ياقوته تقول له:

– اذهب الآن إلى الحمام وبدل ملابسك. فهذه زوجة ثانية قدمت لك شكرا على ماقمت به نحوى.

فى صباح ليلة الزفاف جلس سى عبد القادر بجانب ياقوته وسألها عن عقد اللؤلؤ الذى يجب أن يحمله إلى السلطان.

وربتت ياقوته على يده ثم قالت:

– أنصت لما أقول الآن.. سأنادى على لؤلؤة.. ثم أقسو عليها قسوة بالغة فى الحديث الذى سيبلغ مبلغ الإهانة.. لاتتكلم أبدا.. ولاتنطق بأى كلمة.. مهما حدث..

وبينما سى عبد القادر غارق فى استغرابه، كانت ياقوته قد نادت على الزوجة الجديدة التى جاءت على عجل. ولم تكد تقترب حتى انطلق من بين شفتى ياقوته سيل من الشتائم والسباب لم يكن لها سبب على الإطلاق. وفوجئت الفتاة. وفتحت عينيها فى ذهول. غير أن ياقوتة كانت لاتزال تواصل توبيخها وتأنيبها وتجريحها فى قسوة لم يكن من الممكن احتمالها قط. غير أن الفتاة كانت تعرف جيدامكانة ياقوته منها. فهى ابنة ملك الجن. بينما هى نفسها ليست سوى ابنة وزيره.. ولم

تستطع الفتاة أن تفعل أكثر من أن تستسلم للبكاء. غير أنها تمالكت نفسها قبل أن تسقط دموعها. فما كان من ياقوتة إلا أن صفعتها بقوة على وجهها. وعجزت الفتاة عن الاحتمال. فانفجرت باكية.

وفى نفس اللحظة، كانت ياقوته تمد يدها نحو طبق من الذهب كانت قد وضعته بجوارها، فقربته من وجه لؤلؤة بحيث تتلقى دموعها التى تساقطت غزيرة فإذا بالدموع قد تحولت إلى لآلئ ثمينة راحت تتوالى حتى تكون منها عقد كامل.. سلمته ياقوته إلى زوجها وهى تقول:

– أسرع به الآن إلى السلطان..

وبينما سى عبد القادر ينطلق مسرعا وفى يده عقد اللؤلؤ، كانت ياقوته تكفكف دموع لؤلؤة، وتصالحها بكلمات حلوة رقيقة طيبة.

لم تكن «دم الغزال» ابنة السلطان لتستسلم قط لما جاء مخالفا للطالع الذى رأته من قبل. ولهذا فقد هزت كتفيها لأبيها عندما جاء متهللا يقدم لها عقد اللؤلؤ الذى جاء به التاجر الشاب، ورفضت أن توافق على قبول يد ابن الوزير. وكاد أبوها ينفجر من الغيظ وهى تقول له :

– هناك الشرط الثالث.. أريد العطر الذى يأسر العقل..!

وصرخ السلطان فى ابنته:

– إن الشيطان هو الذى يوحى لك بكل هذا العناد.. فكرى جيدا.. ولاتبالغى فى هذه الطلبات والشروط..

وهزت الفتاة رأسها من جديد:

– لن أتزوج ياأبى حتى تحضروا لى ماطلبت..

ومن جديد وجد سى عبد القادر نفسه يقف أمام السلطان وهو يتحسس رقبته.. وكان الطلب هذه المرة أيضا فى غاية الغرابة.. فما سمع من قبل عن ذلك العطر الذى يأسر العقل..

غير أن ياقوته كانت تستطيع دائما مواجهة مثل هذه الطلبات عسيرة المنال.. فقد كانت تدرك أن أباها لن يدع فرصة دون أن يؤكد اعترافه بجميل الفتى الذى أنقذ ابنته من يد اليهودى الشرير.

وهكذا راح سى عبد القادر يستمع إلى زوجته وهى تمد يدها برسالة جديدة وتقول له:

– عد إلى الموضع الذى ذهبت إليه من قبل.. وكرر النداء ثلاث مرات على الأب سعدان.. وسوف يخرج لك هذه المرة جنى من البحر وجهه أسود وله ذقن طويلة بيضاء تغطى منه صدره كله. أعطه هذه الرسالة دون أن تتكلم.. وسيفعل تماما كما فعل زميله من قبل فإذا ظهر لك بعد لحظات واختفى من جديد فعليك بالانتظار ثلاثة أيام أخرى.. أما إذا تأخر فى الظهور فعد أدراجك.. ولنبحث بعد ذلك مايمكن أن يكون.

ومضى سى عبد القادر إلى المكان الذى يعرفه.. وكما حدث فى المرة السابقة حدث نفس الشئ.. لبى الأب سعدان النداء.. وبعد أن ظهر أول مرة وتسلم الرسالة عاد بعد لحظات ليختفى على الفور.. ولينشق الماء بعد ذلك عن خيمة رائعة، فيها كل سبل الراحة والإقامة والغذاء.. ليقضى فيها أيامه الثلاثة فى انتظار مايرسله إليه ملك الجن..

وعندما انتصف اليوم الثالث.. حدث ماكان سى عبد القادر يتوقعه. انشق سطح الماء عن هودج رائع راح يتقدم فى بطء حتى إذا مابلغ الشاطئ اقترب الهودج ليقوم أمامه وبداخله حسناء رائعة كأنها العروس ليلة الزفاف.. ومن حولها عشر فتيات..
بينما يتقدم الجميع اثنان من العبيد انحنيا أمام الفتى ثم قالا فى صوت واحد:

– خيرات الشرق والغرب ملك يديك.. هاهى «العطر الذى يأسر العقل» ابنه الوزير الثانى من وزراء مولانا الملك.. يرسلها إليك لتكون زوجتك.. فامض فى طريقك.. وسوف تجدها فى دارك..

وفى لحظة اختفى الموكب الكبير.. ولم يعد هناك شئ سوى فرسه الذى جاء عليه من قبل.. ونهض سى عبد القادر ليعتلى الفرس، وانطلق عائدا إلى المدينة ليدخل داره وسط زغاريد وموسيقى وغناء.. تشرف عليها ياقوتة.. بينما «العطر الذى يأسر العقل» جالسة وسط المكان فى رداء العروس.

وطلبت ياقوته من زوجها أن يمضى إلى الحمام ويرتدى ثيابا جديدة، وعندما عاد وجد مكانه قد أعد إلى جانب الفتاة.. وقد قدمتها له ياقوتة كزوجة ثالثة.

ومضت أيام ثلاثة..

وفى صبيحة اليوم الرابع قالت ياقوته لسى عبد القادر:

– الآن.. استمع إلى ماسأقول لك.. سأنادى «العطر الذى يأسر العقل» وأتمادى فى توبيخها لأنها تزوجت ولم تغتسل لثلاثة أيام.. وسأتهمها بالقذارة وأقسو عليها كل القسوة.. فإياك أن تنطق بكلمة.. فإنى أعرف أنها ستضطر للذهاب بعد ذلك إلى الحمام.. فاذهب متى فعلت هذا وانتظر إلى جانب الباب.. وسوف يأسر عقلك رائحة عطرها المنبعث من جسدها..

وجرت الأمور كما ذكرت ياقوتة.. ولم تكد الفتاة تدخل الحمام وتخلع ثيابها.. حتى انتشرت فى جو المكان رائحة تسلب العقل حقا.. لدرجة أن الفتى ترنح وهو بجوار الباب.. وبدا وكأنه قد فقد وعيه.

ولم تكن ياقوتة لتضيع الوقت عبثا.. فقبل أن تمضى الفتاة إلى الحمام كانت هى قد أعدت ثلاثة صناديق من الذهب ووضعتها فى الحمام بجوار المكان الذى ستستحم فيه «العطر الذى يأسر العقل». وعندما بدأت الوصيفات يدلكن جسدها بقوة، كانت مادة غريبة تخرج من مسام جلدها تثير الثمل، لتتكور بين أصابع الوصيفات اللاتى رحن يبرمنها فى مثل عيدان صغيرة ليضعنها فى الصناديق الذهبية الثلاثة.

وانتهى الحمام.. وخرجت العروس. بينما مضت ياقوته ومعها الصناديق إلى حيث كان سى عبد القادر يسترد وعيه، وقدمتها له وهو تقول:

- خذ أسرع إلى السلطان، فهنا فى هذه الصناديق ذلك العطر الذى يأسر العقل.

وفى هذه المرة أيضا.. أبى سى عبد القادر أن يحصل على أى ثمن مقابل تنفيذ رغبة السلطان.. واكتفى بإهدائها له..

وفتحت ابنة السلطان عينيها فى دهشة وهى تتناول من أبيها صناديق العطر، بينما كان هو يفرك يديه ارتياحا وقد اطمأن إلى زواج ابنته من ابن وزيره.

ووضعت «دم الغزال» الصناديق جانبا وقالت لأبيها:

- ولكن.. لمن أدين ياأبى بهذه الهدية.. لمن أحضر لى حبات الياقوت وعقد اللؤلؤ.. أم لابن الوزير؟!

وأجاب السلطان:

- تدينين لابن الوزير..

وهزت الفتاة رأسها وهى تقول:

- كلا ياأبى.. فما كان هو الذى أحضر هذه الهدايا كلها.. فأنا أعرف من جاء بها وحقق مطالبى..

ولم يعرف السلطان كيف يجيب.. بينما واصلت الأميرة كلامها قائلة:

- إنه ياأبى ذلك الفتى الذى قطع الصحارى والقفار، ولم يخش مواجهة الأخطار.. هذا الفتى هو الذى أقبله زوجا مقابل تحقيقه لكل شروطى التى فرضتها عليه..

وارتعش السلطان وهو يجيب:

- انتبهى ياابنتى إلى مكانتك.. ولاتتمادى فى مطالبك إلى هذا الحد.. ولست أدرى.. كيف تفضلين شخصا تافها تجهلينه على ابن الوزير.. كلا ياابنتى.. لن أقبل لك زوجا سوى من أختار.. وقد اخترت.

ومع هذا فما استطاع السلطان قط أن يفرض قراره على ابنته..

ومضى السلطان غاضبا.. وانطلق إلى غرفة عرشه حيث بعث يستدعى سى عبد القادر من جديد..

وجاء الفتى وفى أعماقه الحيرة.. فما كان يدرى ماذا تكون المطالب الجديدة بعد..!

ومثل الفتى بين يدى السلطان الذى ابتدره قائلا:

– لقد قررت أن أدفع لك ثمن الياقوت واللؤلؤ والعطر الذى جئت به.. فإذا رفضت قبول الطلب فسأقطع رأسك..!

وأجاب سى عبد القادر حائرا:

– لقد قلت لك يامولاى أننى لن أقبل ثمنا.. فهى كلها هدية أقدمها عن طيب خاطر إليك.. ولايمكن أن انكص على عقبى وأقبل ثمنا ولو كان كل كنوز الأرض.

وسكت السلطان وبدأ يخفف من لهجة التهديد إلى لهجة الملاينة والإغراء.. وراح يعرض على التاجر الشاب ألوانا من الوعود بالثروة والجاه والمجد.. وكل مايمكن أن يتمناه شاب مثله.. ولكن كان كل ذلك عبثا..

وقال السلطان آخر الأمر لسى عبد القادر:

– تعال معى إذن لتقابل ابنتى.. ولكنى أحذرك الموافقة إذا هى طلبت منك أن تكون زوجا لها..

وهز الفتى رأسه وهو يجيب فى ثقة:

– أما هذا ياسيدى فلا.. ولن أستطيع أن أتصرف فى مثل هذا الأمر طالما أن القانون يعطيها الحق في اختيار الزوج الذى يوافقها..

وثار بالسلطان غضب شديد.. ولم يكن هناك سوى أن يأمر الجلاد بقطع رأسه..

وتقدم الجلاد وقد رفع سيفه.. ولم يكد يفعل حتى اصطدم السيف وهو فى الجو بشئ لايدريه أحد.. وإذا به يرتد فى سرعة ليسقط على الأرض فى ضجيج جعل الجلاد يهرب مندفعا من القاعة وهو يكاد يسلم الروح.

وكان هذا كل ماحدث مع كل من استدعاهم السلطان والغضب يأخذ به ليقتل الفتى البرئ الذى لم يفعل سوى أن يلبى طلبات السلطان..

ولم يعد هناك من يقبل دخول القاعة لتنفيذ الأمر.. واجتمع كل رجالات القصر وكبار القوم يتهامسون متسائلين عن سر جنون السلطان..!

وفى ثورة الغضب، نهض السلطان بنفسه وتناول السيف.. وانقض به على الفتى.. ولم يكد يفعل حتى فوجئ بالسيف يتصلب فى يده.. ثم يعود مرتدا.. ليتخذ طريقه فى سرعة إلى رأس السلطان الظالم فيلقيها على الأرض الى جوار جثته..

وفى نفس اللحظة ظهر فى القاعة عملاق مهيب الطلعة يرتدى ملابس فاخرة لم يشهد مثلها أحد من قبل.. بينما تدلت ذقنه الطويلة البيضاء لتغطى كل جسده..

وقال العملاق وهو يخاطب التاجر الشاب:

– أيها الرجل السعيد.. إن سعادتك ماتزال فى فجرها..

وانحنى العملاق العجوز يلتقط التاج الملقى على الأرض.. واقترب من الشاب فوضعه فوق رأسه وهو يقول:

– ابعث تحياتى إلى ياقوتة.. واطلب منها أن تكتب لى رسالة جديدة بكل ماتتمناه..

وفى نفس اللحظة.. اختفى العملاق.. بينما كانت الهتافات تدوى للسلطان الجديد..!

عندما سار السلطان فى طريقه من القصر إلى داره.. كانت جماهير الشعب تحيط به من كل جانب.. والهتافات ترتفع من الأفواه والقلوب: «اللهم حقق النصر لمن صار لنا سلطانا».

وعندما بلغ الدار كانت زوجاته الثلاث ياقوتة ولؤلؤة وعطر يجلسن بين جموع كثيرة من المهنئين والمهنئات، وقد امتلأ جو المكان بالموسيقى والأنغام والغناء..

وانحنى السلطان على زوجته ياقوتة وهو يهمس مجيبا على تساؤلها:

– كل شئ حدث فى لحظات.. وجاء شيخ وقور فى لحية بيضاء.. فوضع التاج على رأسى.. وقبل أن يمضى قال لى إنه ينتظر رسالة منك بما تطلبين..

وابتسمت ياقوته قبل أن تجيب :

– هذا الشيخ هو أبى.. وسأعطيك الرسالة التى عليك أن تمضى بها إليه..

وفى الصباح التالى.. كان السلطان يمضى على صهوة جواده وهو فى نفس ثياب التاجر الذى كأنه من قبل، وانطلق إلى الشاطئ حيث وقف إلى جانبه، ورفع صوته مناديا الأب سعدان ثلاث مرات.

وحدث نفس الشئ الذى حدث من قبل مرات.. العبد ذو اللحية.. الخيمة.. والمائدة المليئة بكل ألوان الطعام..

وفى ظهر اليوم الثالث.. أطل السلطان فإذا هودج جديد ينشق عنه الماء.. ومن حوله عشر فتيات حسان، وعلى رأس الموكب جنى يركب فرسا..

ومن جديد عاد السلطان يسمع الجنى:

– خيرات الشرق والغرب بين يديك.. هذه «دم الغزال» تقدم لك زوجة..

ودهش السلطان.. فقد ترك «ذم الغزال» فى القصر قبل أن يمضى فى رحلته.. ولم يتصور قط أن من الممكن أن تكون هى تلك الحسناء الرائعة الجالسة فى الهودج.. والقادمة من أعماق البحر.. حيث يعيش ملك الجن.

وقبل أن يختفى الفارس الجنى قال:

– الآن امض فى طريقك.. تجد دم الغزال وجواريها وعشرة عبيد معهم مائة ناقة.. فى انتظارك فى القصر السلطانى.

وهكذا وجد السلطان فى انتظاره عند عودته إلى القصر. أربع زوجات واحدة يتحول دمها إلى ياقوت.. والثانية تذرف الدموع لتصير عقودا من اللآلئ.. والثالثة تفرز من جلدها عطرا يأسر العقل.. والرابعة تقرأ المستقبل فى أحشاء الجمال.

أبـو ســتة

حكاية من الجزائر

لم يكن يتمنى قط أكثر من أن يكون له ولد.. فقد ضاق ذرعا بما كانت تنجبه له امرأته كل عام من إناث بلغ عددهن ستا.. رغم ماكان يتمناه طوال عمره من ولى للعهد من صلبه بدل أن يضيع العرش لأى من ذوى قرباه. وبلغ به الضيق حد أن هجر قصره وطلق امرأته المسكينة وعاش فى الصحراء أياما طوالا راح يدعو ربه خلالها فى كل صلاة أن يرزقه زوجة أخرى تأتيه بغلام يكون فيه تحقيق أمله.. ولعل السماء قد ألمت لذلك الملك الذى يعيش نهاره ولياليه بين هجير النهار وبرد الليل بين صلاة وصوم، فملأت أذنيه ليلة وهو نائم على الرمال همسات بدت له كأن ملاكا أبيض يسوقها إليه ويقول:

– اصغ إلى أيها الملك.. ستكون لك زوجة جديدة تحمل منك.. فإذا اقتربت أيام وضعها فستقف أمام باب قصرك فرس من نوع غريب، لونها ناصع البياض. فإذا حدث فاعلم أنه سيكون لك ولد.. ولن يكون الوحيد الذى تنجبه لك امرأتك.. بل سيكون آخر أولادها منك سبب موتك.

وانتبه الملك من النوم.. وراح يطل حوله فى حيرة، ثم نهض من مكانه وانطلق مستبشرا إلى القصر ولاتزال الكلمات التى صبها الملاك فى أذنيه تطن فى دوى شديد..

وانطلق الملك يبحث عن زوجة جديدة كما أوصاه المبعوث السماوى.. وماأسرع ماوجد عروسا رائعة لم يكد يتزوجها ويجعل منها ملكة حتى جاءه البشير بعد شهور قليلة يؤكد أنه سيكون أبا..

ومضت الأيام تتتابع فى قلق كبير.

وذات يوم.. فوجئ حرس القصر بفرس ناصعة البياض تروح وتجئ أمام البوابة الكبرى.. ولم يكد النبأ يبلغ الملك حتى أخذ به الفرح وعرف أن قد آن تحقيق أمله. وانطلق مسرعا إلى باب القصر فإذا به أمام فرس بيضاء شاهقة البياض تماما كما وصفها له الملاك الأبيض خلال حلمه السعيد. وراح الملك يربت فى حب على ظهر

الفرس وعنقها، ثم أمر غلمانه بإيداعها الحظائر الملكية ضمن جياده الكثيرة. على أن يفرد لها مكان خاص، وأن يعتنى بأكلها ومشربها كما لم يعتن بجواد من قبل قط.

وتحققت النبوءة..

ولم يكن المولود الجديد هو أول أبناء الملك فحسب.. فقد تبعه على مدى السنوات ولد ثان وثالث ورابع وخامس.

وكانت الفرحة تزداد كل عام بالملك.. لولا النبوءة المشئومة التى كانت تؤرق مضجعه.. فكان يسأل نفسه كل يوم:

«أى هؤلاء الابناء أخشى منه قتلى!؟»

ولكن الأيام راحت تمضى.. والقدر يتابع دورته.. حتى وضعت الزوجة ولدا للمرة السادسة..

وفى نفس اليوم الذى أنجبت فيه المرأة ولدها السادس.. وضعت الفرس مهرة صغيرة بيضاء.. لاتختلف فى لونها وبياضها الناصع عن أمها قط..

وكان للولد السادس ستة أصابع.. ومن هنا أطلق عليه اسم «أبو ستة».

وملأت هذه التسمية رأس الملك بذكرى نبوءة الملاك الأبيض الذى قال له أن الولد الأخير سيكون سببا فى مصرع أبيه وأخوته.. هم الآن ستة..

وكان هذا التفكير يملأ نفس الملك بالضيق والقلق، ولكنه لم يبح لإنسان قط بخوفه من هذا الإبن الأخير..

راحت السنوات تمضى وأبو ستة يزداد نموا بشكل غير عادى، وفى السن التى يبدأ فيها الأطفال المشى عادة كان أبو ستة قد صار صبيا له عضلات الرجال..

وذات يوم، مضى الصبى إلى الحظيرة وامتطى ظهر المهرة التى ولدت يوم مولده. وكانت هى الأخرى قد كبرت بسرعة وصارت فرسا رائعة الجمال. وانطلق بها أبو ستة إلى الصيد، وعندما عاد كان يحمل وراءه صيدًا كثيرا أعطاه كله لوالده الذى فرح به وهنأه على مهارته أمام جميع أبنائه الآخرين..

وأحس الإخوة الخمسة بغصة شديدة.. فقد كانوا لايصيدون مجتمعين ماصاده أبو ستة وحده منفردا..

ومنذ تلك اللحظة بدأت غيرة شديدة تدب فى أعماق الإخوة وتأكل قلوبهم حقدا على أخيهم الذى بدأ ينفرد بين يوم وآخر بحب أبيهم.. خاصة عندما ازدادت مع الأيام مهارة أبو ستة وشجاعته، تماما كما ازدادت أدلة الخيبة والغباء على الأبناء الآخرين..

وانفرد الإخوة الخمسة بعضهم ببعض.. يبحثون أمر أخيهم.. ويتآمرون على التخلص منه..

وقال قائلهم: ليس علينا إلا أن نصحبه إلى المكان الذى تقيم فيه «الغولة» ونتركه هناك لتلتهمه..!

وأحس الجميع بفرحة إذ توصلوا إلى الحل.. وانطلقوا كلهم نحو أخيهم يظهرون له الحب ويغرقونه فى التهنئة والمديح.. ولم يتركوه إلا بعد أن قبل أن يذهب معهم فى نزهة رائعة إلى الريف يعودون منها عن طريق الغابة حيث يقطفون من هناك باقات بديعة من الزهور.

وانطلق أبو ستة فرحا مع إخوته.. وقد ملأته الفرحة بعودة الصفاء بينه وبينهم.

ومضى الجميع فى الطريق.. وماكادوا يبتعدون عن المدينة حتى عرج الإخوة الحاقدون على المكان الذى تقيم فيه «الغولة». وكان المساء قد جاء وبات عليهم أن يطلبوا الضيافة إلى أقرب دار.. وكانت هذه الدار بالتحديد هى بيت الغولة..!

وهناك على باب الدار.. كانت الغولة تجلس ومن حولها بناتها الست.. حين رأت الإخوة مقبلين نحوها. وملأتها الفرحة لهذا الرزق الذى جاءها هى وبناتها دون انتظار. واتخذت وجها باسما وهى تدعو الأولاد الستة إلى دارها لتقوم بواجب الضيافة والكرم.

وإذا كان الإخوة الخمسة يعلمون حقيقة هذه الضيافة، إلا أن أبا ستة كان يجهل كل شىء.. ولهذا فقد جلس بجوار الغولة الأم دون أن يسئ ظنا بها.. بينما كان الإخوة

قد حاولوا الهرب بعد أن اطمأنوا إلى انفراد الغولة بأخيهم، ولكن بناتها لحقن بهم وأرغمنهم على العودة مكرهين إلى الدار..

ومدت الغولة وبناتها الموائد وفرشت لهم سجادة وثيرة يبيتون عليها..

وإذا كان الإخوة الخمسة قد فقدوا كل شهية فى الطعام، وراحوا يرتعدون من الخوف وقد ملأهم الندم لإقدامهم على تلك المغامرة التى لم يعملوا لها حسابا.. إلا أن أبا ستة لم يبد عليه شئ من الاهتمام قط.. بل ظل يروح ويغدو داخل الدار وكأنه يدور فى قصر أبيه.. وحين جاءت ساعة النوم.. سأل الصبى الغولة:

– ياأماه.. أريد أن أعرف كيف ندرك أنك تنامين!؟

وفوجئت الغولة بسؤال الصبى؟ فقد وجدت فيه فضولا غريبا. ولكنها مع هذا ابتسمت له وهى تجيب:

– ياابنى الصغير .. عندما تسمع ثغاء الماعز ونقيق الضفادع ونباح الكلاب وصيحات كل حيوان فى الوجود تخرج كلها من بين شفتى. فتأكد فى هذه اللحظة أننى قد استغرقت فى نوم عميق..!

ثم واصلت الغولة ابتسامتها وهى تقول للصبى:

– وأنت ياصغيرى.. كيف أدرك أنك نائم..!؟

وأجاب أبو ستة:

– إننى لاأستطيع إغلاق عينى وأنا نائم.. وحينما تكون عيناى مفتوحتين بشدة فتأكدى عندئذ أننى فى نوم عميق!

ومضى الليل.. ورقد أبو ستة فوق السجادة بجوار إخوته.. ولكنه لم يستسلم مثلهم للنوم وإنما راح يرقب كل حركة من حركات الغولة التى كانت تتابع النظر إليه وهى ترى عينيه مفتوحتين بشدة فتظن أنه فى سبات عميق..

وعلى نفس السجادة كانت البنات الست يرقدن وتغط كل منهن فى نومها.. كما مضت الغولة عندما اطمأنت إلى استغراق الجميع فى النوم، فرقدت هى الأخرى لتستيقظ بعد أن ينتصف الليل وتفعل ماتريد..

وأصاخ أبو ستة بأذنيه جيدا.. وظل ينتظر حتى ملأ جو الغرفة غطيط الغولة مختلطا بأصوات ثغاء ونقيق ونباح وصيحات كل الحيوانات وكأنها آتية من بطنها الرهيب..

ولكن أبو ستة، وإن اطمأن تماما إلى استغراق الغولة فى النوم، إلا أنه ظل راقدا فى مكانه فى انتظار أى جديد. وانتصف الليل، واستيقظت الغولة من رقادها، واقتربت من أبو ستة وراحت تهزه وتناديه. ومد الصبى كفيه إلى عينيه يدعكهما، ثم تظاهر باليقظة والانتباه ونهض ليرد على الغولة.. وقالت له:

– إن خيولكم تكاد تموت من الجوع فقد نسيت أن أقدم لها العلف. خذ يابنى هذا الشعير واحمله إليها لتشبع جوعتها ثم أسرع فى العودة..

أجابها أبو ستة:

– بالنسبة لفرسى فإنها صاحبة نزوات لا تأكل الطعام إلا من حجرى..

وهزت الغولة رأسها وأعطته جزءا من الشعير ليقدمه لفرسه، بينما مضت هى معه وقد حملت بقية الشعير لتقدمه بنفسها للجياد الأخرى..

ولم تكن الغولة فى الحقيقة لتفعل ذلك بالجياد.. فقد كانت تهدف لغرض آخر، إذ خلطت الشعير بكميات كبيرة من الملح لتسبب لها عطشا شديدا.. فإذا خطرت للفتية فكرة الهرب فستجد الجياد نفسها مع عطشها الشديد. مضطرة للتوقف عند النهر الذى لايبعد كثيرا عن الدار لتشرب، وعندئذ يكون لديها متسع من الوقت للحاق بهم والقبض عليهم..

واطمأنت الغولة إلى تناول الجياد للشعير. فعادت ومعها أبو ستة ليتمدد من جديد فوق السجادة.. ولم تكد تمضى لحظات حتى ملأ الغطيط جو القاعة مختلطا بالثغاء والنباح والعواء..

وفى تلك اللحظة بالذات لم يضع أبو ستة وقته..

وكان الذى أثاره فى الواقع تصرف غريب لجأت إليه الغولة، فقد لحظ أنها قد

عصبت رأس كل واحدة من بناتها الست بمنديل حريرى، بينما كان هو وإخوته يضعون على رؤوسهم طواقى حمراء. وأدرك أبو ستة أن فى الأمر شيئا فمضى إلى البنات فخلع مناديلهن الحريرية وألبسهن الطواقى الحمراء، ووضع المناديل على رؤوس إخوته تماما كما وضع على رأسه هو الآخر آخر المناديل.

ورقد أبو ستة.. ينتظر مايمكن أن يكون..

على أنه لم ينتظر كثيرا.. فبعد ساعة أو أقل.. نهضت الغولة من نعاسها، ومضت إلى فأس كان بجوار الحائط.. واقتربت من مرقد الجميع حيث ترقد بناتها الست إلى جوار الفتية.. ثم انحنت تتحسس الرؤوس الإثنى عشر..

وكلما عثرت الغولة على رأس فوقه إحدى الطواقى انهالت عليه بالفأس تقطعه حتى أتت على الرءوس الستة كلها. واطمأنت الغولة إلى فعلتها وعادت تستسلم لنعاسها من جديد وهى تحس سعادة ضخمة إذ اعتبرت فعلتها نوعا من الحرص يجنب ضيوفها أى محاولة للهرب..

وعاد ثغاء العنزة ونقيق الضفدعة ونباح الكلب وكل صيحات الحيوانات يؤكد استغراق الغولة فى نوم عميق..

ونهض أبو ستة فى لمح البصر.. وانطلق إلى إخوته يوقظهم واحدا بعد الآخر. وراحوا يتأملون البنات الراقدات إلى جوارهم وقد فصلت رؤوسهن فى ذعر شديد.. وكاد المنظر الرهيب أن يسلمهم لإغماء كامل لولا محاولا أبو ستة تنبيههم ودفعهم إلى الخارج فى هدوء ليمتطوا جميعا ظهور الجياد وينطلقوا بها بعيدا فى اتجاه النهر...

وفى صوت قوى راح أبو ستة يستحث إخوته على الإسراع ليجتازوا النهر قبل أن تنتبه الغولة إلى ماكان.. فتتبعهم لتقضى عليهم وتنتقم لبناتها..

وكان هذا هو ماحدث بالفعل..

فقد نهضت الغولة من رقدتها بعد مضيهم بوقت قليل. وكان أول ماصدمها كما

بدا لـها أول الأمـر اختـفاء بـناتـها الـست.. غـير أنـها عـندمـا رفعـت الطـواقى مـن فوق الرؤوس المقطـوعة وجدت نفسها أمام بـناتها الست مقـتولات ولاأثر للفتية السـتة فى القاعة قط.

وانطلقت الغولة تجرى فـى جنون لتلحق بالفتية الهاربين.. غيـر أنها توقفت فـجأة وهـى تراهـم قد اجتازوا الـنهر الذى كانت قد أعدت عدتها لعـدم اجتيازهـم له.. ووجدت نفسـها غير قادرة قط على أن تفعل بهم أكثر من أن تشـيعهم بلعناتها وشتائمها، فما كانت تستـطيع أن تتبعهم إلـى ماوراء النهر إذ كانت تعـلم جيدا أنها فى نفـس اللـحظة التى تمس أقدامها فيها مياه النهر تفقد طـبيعتها غير الآدمية وتتـحول إلى امرأة عادية ذات مـلامح مملـوءه بالرقة والجمال.. وكانت هـى تفضـل أن تظل غـولة عـن أن تتـحول إلى امرأة.. ولو عجزت عن ملاحقة الإخوة الهاربين..

وكانـت نفوس إخـوة أبوسـتة لاتزال تمتـلئ حقـدا على أخـيهم، مـن أجل ذلك فـلم يحاولوا أن يذكروا قط أنهـم مدينون له بنجاتهم، وماحاولوا أن يذكـروا حقيقة القصة أمام أبيهم عندما عـادوا إلى القصـر، بل اكتفوا بأن قصـوا عليه كـيف هـربوا من الغولة ولاشئ بعد..

أما فـى الأعماق مـنهم فقـد ظلوا يـبحثـون عن وسـيلة جديـدة يتخلـصون بهـا من أخيـهم.. وكـانت أسـهل الطـرق التـى توصلـوا إلـيـها هـى أن يتركـوه يعـود وحده عـند الـغولـة التـى لاشك سـتنتقـم منه شر انـتـقام. وانـطلـق الإخوة الـخمسـة إلى أبـيهـم يقولـون:

– الا ما اعظم سطوتك يـامولانا الملك.. لولا أنه ينقصك تلك الدجـاجة التى رأيناها عند الغولة وهـى تبيض الذهـب.

وعجب المـلك.. وتمنى أن يمتـلك تلك الدجاجـة العجيبـة.. ولكن الحيرة مـلأته وهـو يفكر من الذى يمكن أن يأتى إليه بها.. ولـم يكن أمامه بالطبع غير ولده أبوستة.. فهو وحـده من بـين أولاده الـذى يثـق فـيـه ويعلـم قدرتـه عـلى اجـتـيـاز المخاطـر وتحـقيـق مايريد..

ونادى الملك على أبو ستة.. ومن أجل أن يمنعه من التردد فى تنفيذ طلبه هدده بأنه سيقطع رأسه إذا لم يعد ومعه الدجاجة التى تبيض الذهب..

ولم يستطع أبو ستة أن يرفض طلب أبيه، وأنطلق نحو فرسه ليمتطيها، بينما الدموع تكاد تفر من عينيه لإدراكه مدى الخطورة التى يتعرض لها بذهابه إلى دار الغولة..

وفجأة.. سمع الفرس تحدثه وتقول له:

- لاتخش شيئا يا أبوستة.. فسوف تأتى بهذه الدجاجة للملك.. وعليك أن تذهب إليه وتطلب منه أن يوصى أحد الحدادين بعمل قضيب من الحديد ينتهى طرفه بسن حاد..

وأسرع أبوستة إلى أبيه.. وفى المساء امتطى فرسه ومعه القضيب الحديدى فى الطريق إلى دار الغولة. ولكنه قبل أن يصل إلى هناك سأل فرسه عما يجب أن يقوم به وأجابته:

- إنك تعرف الدار جيدا. أما عن المكان الذى توجد فيه الدجاجة فهى محبوسة فى الغرفة التى ترقد فيها الغولة، فإذا نامت فعليك أن تمرر القضيب الحديدى من تحت الباب وتخز به الدجاجة التى ستطلق صيحاتها مذعورة. وعندئذ ستصرخ فيها الغولة فارغة الصبر وتقول «كفى عن الصياح وإلا ألقيت بك إلى أبوستة» ذلك أن الغولة تعودت هذا القول منذ استطعت الهرب منها أنت وإخوتك.. فهى تستعمل اسمك للتخويف..!

وحدث كل شئ تماما كما ذكرت الفرس إذ أقبل الليل وأغلقت الغولة بابها ورقدت وندت منها بعد لحظات أصوات النقيق والنعيق. وكان أبوستة يعرف ساعة العمل، فانطلق ينفذ ماذكرته له الفرس.. ولم تكد الدجاجة تصيح حتى صاحت الغولة العجوز «أيتها الشريرة.. سألقى بك إلى أبو ستة إذا لم تسكتى على الفور».

وساد السكون، وعاد أبو ستة يكرر نفس الشئ.. ومع استمرار انزعاج الدجاجة

وصرخات الغولة، انقضت هذه على الدجاجة وفتحت الباب والقت بها إلى الخارج، ولم تكن الغولة تدرى أنها ألقت بها لتقع بالفعل فى يد أبوستة، الذى يسرع إلى امتطاء فرسه وينطلق بها إلى القصر ليسلم الدجاجة لأبيه الملك.

وازداد الحقد بالإخوة الخمسة.. وانطلقوا بعد أيام إلى أبيهم يقولون له:

– إنك ياسمولانا تعتقد أنك ملك قوى.. ولكن الحقيقة تؤكد أنه لايزال ينقصك سجادة وثيرة مثل تلك التى توجد فى دار الغولة.

ومن جديد، ثار فضول الملك، وعاد يطلب من أبوستة إحضار السجادة أو يقطع رأسه..

ولم يكن أمام الفتى الا أن ينطلق إلى فرسه، التى قالت له وهى تطلب منه أن يكفكف دموعه:

– لاتبتئس.. فستحصل على السجادة. ولكن كل ماأطلبه هو أن تذهب الى والدك ليأمر بأن يجمع من المدينة عددا كبيرا من البراغيث والبعوض والبق يملأ ثلاث حقائب من الجلد.

وذهب أبوستة مستغربا إلى أبيه الذى لم يكن منه إلا أن استجاب لما طلبه ولده وأعلن فى المدينة عن ذلك الطلب الغريب. وسرعان ما استجاب الناس واستطاع أعوان الملك جمع ثلاث حقائب من البراغيث والبعوض والبق سلموها إلى أبى ستة الذى رحل بها فى الحال.

وقالت الفرس لأبى ستة وهى تعبر به النهر:

– فى هذه الساعة ستجد الغولة نائمة. اذهب واجلس أمام الباب وافتح حقائبك الثلاث على التوالى.. وعندئذ ستنطلق الحشرات كلها لتدخل الدار من خلال الثغرة الموجودة فى أسفل الباب وتتسلل منها إلى داخل الغرفة. وستجد الحشرات دفئا فى السجادة التى ترقد عليها الغولة. فإذا ماشعرت بلدغ الحشرات لها ستثور وتظن أن السجادة هى السبب فتصيح قائلة. «أيتها السجادة الملعونة.. سأقذف بك إلى أبى ستة».. فإذا حدث فعليك أنت بالباقى..

وكان ماتوقعته الفرس بالفعل.. فإن الغولة لم تتحمل لدغات الحشرات ولسعاتها، فانطلقت فى ثورتها تقذف السجادة إلى الخارج.. على أنها انتبهت لنفسها بعد قليل وأطلت فإذا أبوستة يمضى مسرعا فى اتجاه النهر ومعه سجادتها. فصرخت الغولة فى جنون، وانطلقت من خلفه فى مطاردة رهيبة.. لولا أن حال النهر وماؤه دون أن تواصل متابعته..

وراح الملك يسخر من الإخوة الخمسة وهو يربت على كتف أبوستة ويقول لهم:

– أرأيتم.. إن أحدا منكم لايستطيع القيام بمثل هذه الأعمال البطولية التى يقوم بها أخوكم الشجاع..

ورد الإخوة فى غيظ مكبوت:

– إذا كان شجاعا كما تقول فعليه أن يأتى ببرهان قاطع.

وتساءل الملك:

– أى برهان تريدون؟

قال الحاقدون الخمسة:

– ليأت لك بالمرأة التى سحب منها الدجاجة والسجادة.. فهى فى الحقيقة حسناء لاتساويها فى جمالها واحدة من نساء قصرك..

ومن جديد ثارت الرغبة بالملك العجوز ونادى على ولده الذى قال له وهو يجيبه:

– سيكون من غير اليسير أن أشبع رغبتك.. وربما كانت تلك التى سأصحبها لك أقل كثيرا مماتتوقع من صور الجمال.. على أنى سأذهب وأقوم بالمحاولة وان كنت أعلم جيدا سر مايفعلون..!

وقالت الفرس لأبى ستة وهى تخفف غيظه:

– جفف دموعك أيها الصغير.. فستصحب المرأة الى والدك وسيكون راضيا.. وعليك أن تذهب إليه الآن وتطلب منه أن يأتيك بصندوق من الخشب على طراز الصناديق التى توضع فوق قبور الأولياء بشرط أن يعجز من يغلق عليه عن فتح غطائه..

ونفذ الملك طلب ولده الذى رحل بفرسه ومعه الصندوق حتى اقتربا من النهر.. وقالت له الفرس:

– عندما نعبر النهر ستنزل أنت وانتظرك على ضفته. خذ الصندوق واتجه نحو دار الغولة واظهر كأنك بائع متجول ينادى على صندوق لايموت من يملكه. حينئذ ستثور الرغبة فى الغولة لهذا النداء وتفتح الباب.. فإذا رأتك ستعرفك وتقول لك أنك أبوستة.. عليك عندئذ أن تجيبها.. حقيقة أننى أبوستة.. ولكن هناك أيضا أبوستة ابن الملك وهو ليس تاجرا مثلى.. فإذا تقدمت الغولة لتفحصك جيدا فلا تهتم وارفع صوتك من جديد مناديا عمن يريد شراء الصندوق العجيب.. سيزداد بالغولة الفضول وتنتبه إلى الصندوق وتدور حوله لتتأكد من مطابقته لقامتها.. دعها تجرب حتى تدخل فى الصندوق لتقيسه.. فإذا فعلت فأغلق الغطاء على الفور وستبوء كل محاولتها للخروج بالفشل..

وقام أبوستة بالتنفيذ.. وتم كل شئ كما قالت فرسه، ولم تكد الغولة تدخل الصندوق حتى وجدت نفسها حبيسة واستحال عليها الخروج. وأسرعت الفرس تقترب من أبى ستة الذى وضع الصندوق على ظهرها، وانطلق معها يعبران النهر..

وكان الذى حدث عند عبور النهر شئ مثير.. فقد تحولت الغولة فجأة لتصبح حورية ذات جمال يأخذ بالألباب.. حتى أن الملك العجوز عجز عن النطق عندما رأها لفرط ماالم به من الإعجاب.

وارتعد الإخوة الخمسة.. فما تصوروا قط أن أبا ستة ينجح بينما حاولوا أن يوردوه موارد التهلكة.

وبدأ الملك يفكر فى امتلاك هذا الجمال الرائع.. ولم تعد لديه سوى رغبة واحدة هى الزواج بهذه المرأة التى ردت عليه قائلة:

– لن أكون لك زوجة أبدا، إلا إذا جئت هنا بوالدى وجدى وجد أبى.. فلابد من حضورهم وموافقتهم ليتم الزواج.

وهز الملك رأسه فى حيرة:

– ليكن ماتريدين.. ولكن كيف يمكن أن أذهب لمقابلة من ذكرت وإحضارهم إلى هنا!؟

قالت الحسناء:

– عليك أن تذهب إليهم بنفسك.. فإذا لم ترد أن تفعل فابعث إليهم رسولا يجب أن يحمل مشطا ومقصا وموسى للحلاقة. وسأسلمك ثلاثة خطابات يحملها من يذهب إليهم. وعلى هذا الرسول أن يتجه إلى ناحية الشرق وهناك سيواجه فى طريقه بجبل قائم من حجارة سوداء، فإذا تجاوزه فسيقابله جبل آخر حجارته صفراء، ثم يليه جبل ثالث حجارته بيضاء. فإذا استطاع تجاوزه فسيجد أمامه على الأرض حجرا أخضر هو فى الحقيقة جنية ستبدأ بالكلام وتطلب منه العودة على عقبيه. عليه ألا يصغى لحديثها ويواصل السير بسرعة أكثر حتى يجد نفسه فى مواجهة صخرة ضخمة تحول بينه وبين المضى فى الطريق إلا إذا انقسمت إلى نصفين. فإذا حدث فسيبدو أمامه مدخل سرداب طويل عليه أن يهبط فيه. وهناك سيجد بلاد الغيلان والرعب.. حيث يجلس ثلاثة شيوخ لايعرف منذ كم من القرون جلسوا هناك.. وقد طالت شعورهم وذقونهم حتى لحقت بالأرض وامتدت فى طيات طويلة، عندئذ فإن على رسولك أن يستعمل المقص والمشط والموسى ويبدأ فى جز الشعر وحلقه.. وعندما ينتهى فعليه أن يسلم كلا منهم خطابه. وسوف يشكر الشيوخ صنيعه ويقومون من مجلسهم ويتبعونه وهم يحملون قدرا كبيرة.

ووقف الملك مشدوها.. فكيف يمكن أن يواجه بنفسه كل ذلك.. وأى الناس يستطيع أن يكون رسوله.

وانتبه إلى نفسه فجأة وهو ينادى أبا ستة، وعندما جاء يلهث قال له

– سوف ترحل إلى بلاد الغيلان والرعب.. لتنفذ كل ماقالته عروسى.

وهز الفتى رأسه.. ولم يستطع أن يرفض..

وفى الحق، كان ملء أعماق أبى ستة شقاء كبير، وراح يتساءل:

«كيف يمكن أن ينتهى من هذه المآزق التى يورده فيها طمع أبيه الذى لايقنع بشئ أبدا..»

وقالت له الفرس:

– تفاءل ياصغيرى.. وسأذهب معك إلى تلك البلاد ونعود منها فائزين بإذن الله..

وفى نفس الوقت الذى كان أبوستة يمضى فيه فوق ظهر فرسه، كان إخوته الخمسة يفركون أيديهم فرحا لتخلصهم منه حيث لاشك أنه لن يعود على الإطلاق.

غير أن أياما قليلة لم تكد تمضى حتى شوهد أمام القصر ثلاثة أشخاص مجهولين يحملون قدرا كبيرا وكل منهم يمسك بأحد أطرافه. وعندما علم الملك بوصولهم تقدم نحوهم وهو يرحب بهم فى أدب كبير.

وسألهم الملك فى تقدير:

– ماهى الشروط التى تطلبونها منى لأحصل على يد ابنتكم الموجودة عندى الآن فى القصر؟

أجاب الشيوخ الثلاثة معا:

– سنضع هذا المرجل فوق النار ونملؤه بالماء ونتركه يغلى ثلاثة أيام وثلاث ليال. فاذا ماجاء اليوم الثالث فعليك أن تضع نفسك عاريا فى المرجل، وأنت تمسك بمنديل فى كل يد. وعندما تخرج من المرجل فسيكون المنديلان مليئين بالجواهر واللآلئ، وهى التى ستصير مهرا لابنتنا. أما إذا لم تخضع لهذه الاختبارات فلن نوافق على الزواج وسنصحب فتاتنا معنا..

قال الملك:

– إن شروطكم جد قاسية وأجدنى غير مستطيع تنفيذها. ولكن انتظروا.. فسوف أجعل واحدا من أبنائى يقوم بهذا العمل بدلا منى.. حتى ولو تزوجها هو نفسه.

وارتفع صوت الملك ينادى كبير أبنائه وأفهمه مايراد منه. ولكن الابن رفض أن

يعرض نفسه لتلك التجربة الرهيبة.. ونادى الملك ولده الثانى.. ثم الثالث، والرابع والخامس.. ولكن احدا لم يقبل أن يكون موضع اختبار.. ولاكان لدى أى منهم استعداد للمخاطرة بحياته فى سبيل والده..

حينئذ قال الملك لنفسه: أبوستة وحده هو الذى يستطيع أن يفعل.!

وكان أبوستة هو الابن الوحيد الذى امتثل لأمر والده.. فقد كان فى هذه المرة يبغى الموت تخلصا من طمع أبيه وأحقاد إخوته..

وخلع أبوستة ثيابه وألقى بنفسه فى المرجل وماؤه يغلى..

ولكن صرخة واحدة لم تنطلق من داخل المرجل.. بل كان ماحدث هومالم يتوقعه أحد.. فقد خرج أبوستة من داخل المرجل وبين يديه منديلان مليئان بالجواهر واللآلئ..

وفتح الرجل عينيه فى دهشة.. وبدأ يحقد على ولده الذى سيكون له حق الزواج من الحسناء مادام قد نجح فى تنفيذ شروط الشيوخ.

وصرخ الملك: انتظروا.. سأنجح أنا الآخر فى تنفيذ الشروط.. ولتكن العروس لى وليس له..!

وخلع الملك ثيابه فى لحظة.. وقفز فى المرجل..

وارتفعت صرخة رهيبة.. وهمد كل شئ..

وفى نفس اللحظة حدثت أشياء.. هرب الإخوة الخمسة مسرعين بعد أن تأكدوا من موت أبيهم وانتصار أبى ستة.. ومد الشيوخ الثلاثة أيديهم ليضعوها فى يد الفتى وهم يباركون زواجه من ابنتهم الحورية الحسناء.. ويحملونه إلى العرش.. ليصير ملكا بعد أبيه..

وأطل الفتى يبحث عن فرسته.. ولكنه لم يجدها قط.. فقد كان فى مكانها فتاة رائعة الجمال باذخة الفتنة، لم تكن فى الحقيقة سوى أكبر إخواته البنات الست اللاتى طردهن أبوهن من قبل بعد أن طلق أمهن.. عادت من جديد لترعى أخواتها الصغار.. وتعيش معهن فى رعاية أكرم الإخوة وأرفقهم..

الملك الجديد.. أبوستة.

بن قدور وسيدي آمون

حكاية من تونس

كل الذين يسكنون قرية البور بالقرب من «أومال».. كانوا يعرفون جيدا الفرق بين النور والظلام، والليل والنهار.. فقد كان أمامهم مثل واضح لهذا البون الشائع الكبير.. مثل ملموس فى كل لحظة من لحظات العمر.. هو الفرق بين بن قدور وسيدى أمون..

وكانت هذه فى الواقع هى الحقيقة.. فبينما كان سيدى أمون يمثل قمة السعادة والثراء.. كان بن قدور يمثل حضيض الشقاء والفقر..

لم يكن بن قدور يدرك قط معنى الحياة.. كل ماكان يدريه هو هاتان القطعتان من القماش المزق اللتان التقطهما ذات يوم من مهملات قبيلة غيرت مكانها.. فجعل منهما كوخا يستظل به من هجير الشمس وقارص البرد، وتلك الأشياء التى يضمها على جسده بيديه وذراعيه لتبدو فى شبه ثوب، وهاتان القطعتان من الجلد اللتان ربطهما إلى قدميه بقطعة من حبال الخيام ولاشئ بعد. أما الطعام فلم يكن يهمه منه شئ قط.. فقد كان يكفيه أن يجد بين اليوم والغد كسرة من العجين المقلى فى الزيت، يحصل عليها من بعض سكان القرية عندما يفيض بهم الكرم، وإن كان هذا لايمنع أسنانه من أن تلوك بعض لحم الماعز.. عندما يرزق ذات يوم بإنسان مجهد.. يكلفه بحمل متاعه..

ولكنه برغم ذلك كان ماهرا فى الصيد.. بل لقد كان الجميع يعرفون امتيازه فى نصب الشباك واقتناص الحمام. ومع هذا فما استطاع يوما أن يحصل على شبكة يستأجرها ليصطاد بها إلا بشق النفس..

ولم يكن حال سيدى أمون بشئ قط من كل تلك الصورة الكالحة الداكنة السواد..

فهناك.. فى طرف القرية البعيد.. كان يقوم قصره بكل مافيه من متع الثراء والنعيم.. ومن حوله حديقة لايعرف لها طول ولاعرض.. فيها من كل أنواع الزرع بين بصل وطماطم وفلفل أحمر وخرشوف.. غير قطعة أخرى من الأرض لاتبلغ

نهايتها العين مليئة بالكروم وأشجار الزيتون. من أجل ذلك فما ارتدى يوما نفس الثوب الذى كان يرتديه بالأمس.. فالبرنس يتغير باستمرار.. وكل البرانس من الصوف المستورد الذى لايماثله فى ارتدائه سوى السلطان وأبناؤه وكبار العلية من القوم.. بينما يحيط به عبيد سود يتفانون فى خدمته ويزرعون له أرضه.. وكل واحد منهم قد خصص لنقل إنتاج الحقول والحدائق إلى السوق والعودة منه وقد حمل فى العربة المال الوفير..

وبالاختصار.. كان من المستحيل أن يوجد إنسان أتعس من بن قدور.. ولا إنسان أسعد من سيدى أمون..

غير أن بن قدور تصور يوما أن القدر قد نسيه فترك له الحبل على غاربه.. فقد وجد نفسه فجأة وبين يديه بندقية صيد وإن كانت رديئة.. وشبكة لم يدر كيف أمكن لواحد من القوم أن ينساهما فى الصحراء الشاسعة غير بعيد من الكوخ. ولم يهتم بالبحث عن صاحبهما بقدر مااهتم باستغلالهما ذلك اليوم.. فلعله أن يعود بصيد وفير يجتر حصيلته خلال الأيام الطويلة القادمة..

وانطلق فى عرض الصحراء.. غير بعيد من شاطئ البحر ونصب الشبكة فى سكون.. ثم ابتعد.. واستلقى على الرمال..

وفجأة اهتز قلب بن قدور طربا وفرحة.. فقد كان هناك سرب من الحمام قادم من بعيد.. لعله وجد مايغريه فى تلك القطعة من الأرض .. فهبط إليها.. ولم يكد يفعل حتى أطبقت الشباك على عشرات كثيرة منه لم تستطع فكاكا قط..

وصفق بن قدور فرحا وهو يطل من بعيد إلى الرزق الوفير الذى جاءته به السماء.

وراح بن قدور يلم قطع ثوبه ليستر بها نفسه جيدا قبل أن يمضى إلى الشباك.. وانطلق وهو يتعثر لفرط ماأخذت به الفرحة المضطربة.

غير أنه توقف فجأة، وهو يحملق إلى بعيد.. وساقاه تنهاران لقسوة مارآه..

فهناك.. غير بعيد منه.. كانت الشباك ترتفع مندفعة فى الجو.. وكأنها بساط الريح..

وصرخ بن قدور وهو ينهار على الأرض ويلعن الشياطين.

ولم يكن يدرى أن الشياطين لم يكن لها أى صلة بالأمر.. فقد كان كل ماحدث هو أن أحد الغربان شهد الحمام وهو يتلوى وينتفض مضطربا داخل الشباك.. فساءه أن يراها فى تلك الحال.. وأسرع إلى عونه.. وإذ خبر ما هم فيه قال لهم فى حمية:

- كونوا يدا واحدة.. واجعلوا من وحدتكم قوة.. واندفعوا سويا فى وقت واحد ثم طيروا فى الهواء.

وكان هذا هو ما حدث.. فقد تجمع الحمام فى ركن واحد من الشبكة، ثم اندفعوا كلهم فى لحظة واحدة كانت كافية لانتزاع الأوتاد التى تربط الشباك بالرمل. وكان فى هذا الكفاية.. فقد وجد الحمام نفسه وقد طار فى الجو متحررا من الأسر.. فاستمروا يرتفعون بالشباك، ويرفرفون بأجنحتهم ليبتعدوا عن مكان الأسر.. وليكن بعد ذلك مايكون..

وإذا كان بن قدور قد لعن الشياطين وانهار.. إلا انه مع ذلك استرد جأشه بعد قليل.. وإذ شهد الحمام وهو يطير فى بطء بسبب الشبكة التى تعوق سرعته، أدرك أنه يستطيع بمتابعة الشبكة الطائره أن يصل إليه إذا حدث وهبط على الأرض.

ونهض بن قدور من مكانه.. واندفع يجرى وعيناه فى السماء.. وملؤه أمل جديد فى سقوط الشبكة بالحمام حيث يستطيع أن يمسك به فى يسر..

وكان تقدير بن قدور صحيحا مصيبا.

فقد أخذ الجهد بالحمام آخر الأمر.. ولم يكن أمامه إلا أن يستسلم ويهبط إلى الأرض بالرغم من كل شئ..

وملأت الفرحة من جديد قلب بن قدور..

على انه لم يكن يدرى أن الغراب لايزال هناك.. وهو يؤمن انه مادام قد بدأ صنع جميل فإن عليه أن يتمه..

وقدر الغراب المسافة التى كانت لاتزال تفصل بين بن قدور والشباك.

وأسرع إلى العمل ..

ولمحت عيناه الحادتان فأرا يتلصص من جحره.. غير بعيد من المكان الذى سقطت فيه الشبكة..

وانقض الغراب فى لحظة.. بينما أسرع الفأر يدخل رأسه فى الجحر.. ليخفيه..

وراح الغراب يتوسل إلى الفأر وهو يشرح له حقيقة الأزمة التى مر بها أبناء جلدتهما من غير الإنس، وكيف أن حياة الجميع متعلقة بارادة الفأر وحده.. إن أراد سلمهم كلهم إلى العدو.. وإن أراد أنقذ الجميع وأوقع العدو فى حيص بيص..

ولم يطل التفكير بالفأر.. فقد كان يؤمن بالمثل الذى يقول: أنا وابن عمى على الغريب. وتحركت أسنان الفأر فى سرعة مذهلة تعترض الشباك، بينما كانت أقدام بن قدور تقترب هى الأخرى فى سرعة من الشباك..

وكانت خطوة واحدة لاتزال أمام الرجل.. حين فوجئ بالحمام كله يندفع من الشباك إلى الهواء.. حتى أن أجنحة عدد منه ضربته بقوة فى وجهه لحظة اندفاعه السريع..

ولم يستطع بن قدور أن يفعل شيئا.. وهو يفتح عينيه ويدلى شفتيه فى ذهول.. بل لقد عجز أيضا عن رفع البندقية فى يديه لإطلاقها نحو الطيور الهاربة..

كان لقاء الغراب بالفأر فرصة لتبادل الحديث والتشاور فى شئون الحياة.. خاصة بعد أن تأكدت صداقتهما بسبب تعاونهما معا لإنقاذ أبناء جلدتهما . وقال الغراب وهو يتحدث إلى الفأر:

– مادامت أواصر الصداقة قد ربطت بينى وبينك.. فلا بأس أن أقدم إليك صديقة عزيزة.. هى السلحفاة.. فسيسرها كل السرور أن تتعرف بك.

أجاب الفأر:

– لشد مايسعدنى التعرف بها، غير أنى سمعت أنها تقيم فى مكان بعيد جدا قد لاأستطيع الوصول إليه بسبب أرجلى القصيرة..

قال الغراب:

- لاتحمل هما.. سوف أحملك إليها..

وتم الاتفاق فى يسر، وأمسك الغراب صديقه الجديد بين أصابع رجليه.. وحمله.. وطار فى الهواء..

ومضى وقت ليس بالقليل، حين بدأ الغراب يهبط بحمله.. قريبا من السلحفاة التي أدخلت رأسها فى صندوقها عن حذر أول الأمر، ثم لم تلبث حين اطمأنت إلى القادم أن عادت ترحب بصديقها وضيفه العزيز..

ودار الحديث فى غير كلفة.. وعرفت السلحفاة قصة التعاون الصادق من أجل تخليص الحمام من براثن الصياد. ولم ينس الغراب أن يغرق فى الضحك وهو يصف لصديقته خيبة الأمل التى بدت على بن قدور حين فوجئ بالفريسة القريبة تهرب منه..

وراح الفأر يحكى ذكرياته، فقد كان له فى ذلك المجال تاريخ طويل..

وراح الصديقان يصيخان السمع إلى صاحبهما فى لذة وانبهار.. وهو يقول:

- كنت أسكن فى صومعة يعيش فيها رجلان ملا حياة البشر وضاقا بالصراع الرهيب الذى يدور بين الناس، فاعتزلا فى ذلك المكان البعيد وقد قررا أن يمارسا حياة مليئة بالزهد والتقشف. وكنت أرقبهما من خلال جحرى.. فعرفت فيهما نقيضين غريبين.. كان أحد الرجلين يقضى يومه كله فى الصلاة.. أما الآخر فقد كان يذهب إلى القرية المجاورة ليجمع الصدقات والنفايات.. ولايعود من جولته الا وقد امتلأ كيسه بألوان متباينة من الطعام.. وكنت أعرف جيدا من أين أتى بكل صنف.. فقد كنت أشاركهما كل تلك الألوان بالرغم منهما.. وأفرق بين ماهو طازج فيؤكل.. وماهو من النفايات فأتركه لهما.. بل لقد تعودت أن أكون أول من يتناول العشاء الذى يحفظونه بعد تناول غدائهما.. إذ كنت إجد الرجل المقيم فى الصومعة يعمد إلى التسلل قبل عودة صديقه فيلتهم أطايب الطعام ثم يعود الى مشاركته فيما بقى منه عندما يعود..

على أنى لطول ماعاشرت الرجلين.. بدأت استسلم لشعور غريب عنا معشر الحيوانات. يدفعنى إلى أن أكون بخيلا. ولم أجد حرجا وأنا أفعل ذلك، فقد كان الرجلان يملكان كنزا هو ثمرة ادخارهما الطويل قبل عزلتهما.. راحا يزيدان عليه مما يفيض من جهود صاحبنا الذى يدور فى القرية طول النهار.. من غير ألوان الطعام..! وأغرانى كنز النقود الذى كان يتزايد يوما بعد يوم.. وملأنى الغيظ من ذلك التظاهر بالزهد والتقشف رغم ماأراه بنفسى من تكالبهما على زينة الدنيا.. فبدأت أزور تلك الذخيرة من المال واختلس منها كل يوم مااستطيع حمله إلى جحرى، حيث أصف النقود بعضها فوق البعض، وانمتع بسماع رنينها وأنا أجعلها تتخبط، وقد بدا لى أننى أصبحت من أصحاب الملايين. غير أن الرجلين اكتشفا ذات يوم ذلك النقص الذى كان يحل بالكنز.. خاصة وأن الرجل الذى كان يقيم بالصومعة بدأ يكتشف نقص كمية العشاء التى كان يتركها ليتناولها مع صديقه بعد أن يختلس مايمكن اختلاسه منها. وبدأ الرجلان ينصبان الشباك والفخاخ لضبط السارق.. على أنى اكتشفت محاولاتهما، وعمدت إلى الحرص الشديد فى عدم الاقتراب من شباكهما. وفجأة. ضبطت أحد الرجلين وهو يضع السم فى الطعام.. فبدأ الخوف يتسرب إلى نفسى خوفا من أن أتناول طعاما لاأكون قد انتبهت إلى اندساس السم فيه. فبدأت أزهد طعامهما.. وأبتعد عنه، وإن كان ذلك لم يكفهما.. إذ اكتشفا ذات يوم جحرى، وقررا طردى منه، وأتيا بمطرقة وسكين راحا يهدمان بهما جزء الحائط الذى يحتله الجحر. وعندما شاهدا أكوام النقود أطلقا صيحة فرح وإعجاب، واستوليا على المال الذى اكتنزته، بينما لم أجد أمامى سوى الهروب نجاة لنفسى من المصير الأسود الذى أعداه لى خاصة بعد أن جاءا بحجارة وبلاط راحا يسدان بها ثغرات الجدران..

على أنى ظللت مع هذا أرقبهما بين وقت وأخر.. فوجدت أن تصرفاتهما قد تغيرت تماما.. فألقيا بالزهد والتقشف وراء ظهريهما.. واقتسما الثروة وراحا ينفقان منها على كل مالذ وطاب من صنوف الطعام وألوان المتاع..

وفى هذا اليوم عرفت حقيقة الإنسان.. فقررت إن أعتزل الحياة بعيدا عن ذلك الجنس الذى لايحترم قيمه.. فرحلت.. وأقمت لى سكنا هو هذا الذى أعيش فيه الآن سعيدا وأنا أتعرف إلى أصدقاء أعزاء..

كل ذلك كان يجرى بينما بن قدور يقطع الصحراء القاحلة بحثا عن صيد جديد ولكن عبثا. على أن الأمل عاد يملؤه حين شاهد من بعد غزالة شاردة.. فراح يتابعها، وأعد بندقية صيده ليطلق عليها النار حالما تصبح على مدى طلقته. وأحست به الغزالة وهو يتبعها فأسرعت تجرى، وهو لايزال يتبعها، حتى بلغت نفس المكان الذى كان يجتمع فيه الأصدقاء الثلاثة.. الفأر والغراب والسلحفاة.

وشهد الثلاثة كل شئ. وأدركوا أن الصياد غير بعيد.. وأخذت بهم رعشة فطار الغراب مسرعا ليحط فوق شجرة مرتفعة، وهرب الفأر ليختفى داخل جحر قريب، أما السلحفاة.. فلم تجد خيرا من أن تغطس فى ينبوع ينبثق غير بعيد.

وكان العطش قد أخذ بالغزالة لطول ماجرى بها الشوط، فاقتربت من ماء الينبوع تشرب. ويبدو أن الصياد كان قد تاه عن الطريق، فاطمأن الغراب، ونادى على الفأر يطمئنه، وخرجت السلحفاة من مخبئها وتجمع الجميع من جديد حول الغزالة التى وقفت حائرة وهى تسمع إلى الثالوث الذى أحاط بها:

– ادخلى أيتها الغزالة فى وحدتنا.. فطالما اجتمعنا ووضعنا أيدينا معا، فلن يستطيع صياد مهما كان أن يلحق بنا أذى.. لنبق معا جماعة نبذل العون لبعضنا ونمد يد المساعدة لكل من يحس خطرا أو يصيبه مكروه..

وأمنت الغزالة على الاقتراح فى فرحة. وبدأ الأربعة فى نفس اللحظة يمارسون تنفيذ الاتفاق..

فقد حدث أن بن قدور لم يكن قد فقد الأمل بعد فى متابعة الغزالة، واستطاع بسهولة أن يكتشف المكان الذى ذهبت إليه. وعندما ظهر الرجل أسرعت الغزالة تجرى هاربة.. بينما انطلق الغراب يحلق فى الهواء يتبعها. على أن الغزالة الغافلة لم

تنتبه إلى فخ نصبه الصياد.. فانطبق عليها.. وبدأ بن قدور يجرى مسرعا ليمسك بالصيد الثمين..

وشهد الغراب كل شئ.. ولم يكن أمامه إلا أن يسرع إلى الفأر ليأتى به فى الحال قبل أن يصل بن قدور. وجهد الغراب فى طيرانه حتى بلغ مكان الفأر.. فحمله بين رجليه كما فعل من قبل مرة، وانطلق به يسابق الصياد حتى بلغ مكان الغزالة التى بدت وكأنها قد استسلمت للمصير.. وانقض الفأر بأسنانه على الشباك.. فى نفس الوقت الذى كان الصياد فيه على بعد خطوات.. ولم يكد بن قدور يمد يده نحو الشبكة حتى كانت الغزالة تنطلق فى اندفاع غريب إلى الأمام.. تاركة الشبكة ممزقة بين يدى الصياد المذهول..

وقرض بن قدور على أسنانه فى غيظ رهيب.. وراح يطل حوله ومن عينيه ينطلق الشرار. وغير بعيد.. لمح السلحفاة التى كانت تقترب فى ذلك الوقت فى محاولة للوصول إلى مكان صديقتها التى كانت قد سقطت فى الشباك لتشترك فى تخليصها ما أمكن.

وانقض الرجل بكل مايملؤه من غيظ وحقد على السلحفاة المسكينة يصب عليها جام غضبه. وإذ وجد ضرباته على ظهرها لاتجدى، أمسك بها، ووضعها فى حقيبته عوضا عن عجزه عن الحصول على صيد فى ذلك اليوم المشئوم.

وانطلق بن قدور فى يأسه يبحث من جديد.. يبحث عبثا عن الغزالة الهاربة..

على أن الغراب والفأر والغزالة كانوا قد اجتمعوا مسرعين عندما فقدوا السلحفاة، زميلتهم فى الاتفاق.. وقرروا أن ينقذوها بأى ثمن..

وقالت الغزالة بعد تفكير عميق:

– يبدو لى أننى وجدت الوسيلة لرد الحرية لصديقتنا السلحفاة.. اسمعوا.. سأبدو من جديد أمام الصياد وأتظاهر بالعرج.. وسيعتقد هو أنه يستطيع اللحاق بى.. وعندما يحس أنه بحاجة إلى زيادة سرعته سيضع حقيبته على الأرض ليعود

إليها بعد أن يمسك بى.. وحينئذ.. نترك الأمر لصديقنا الفأر لإخراج السلحفاة من الصندوق.

وبدا الاقتراح معقولا، وإن بدا فيه بعض المغامرة..

ومع هذا فقد جرى كل شئ كما قالت الغزالة..

لاحظ بن قدور أن الغزالة تعرج، ووجد أن من اليسير عليه اللحاق بها. فألقى حقيبته على الأرض حتى لاتعوقه عن الجرى.. وانطلق يجرى وكلما قلت المسافة بينهما ازداد عزما واندفاعا.. وقد نسى أنه فى نفس الوقت يزداد ابتعادا عن الصندوق الذى كان قد أحاط به من أعدائه الفأر والغراب..

وظلت الغزالة تجرى، وتجهد فى الاختفاء ثم الظهور بطريقة أثارت غيظ الصياد. وعندما اطمأنت إلى أنه قد مضى من الوقت مايتيح للفأر أن ينهى مهمته، اختفت تماما عن أنظار بن قدور، الذى راح يضرب الأرض بقدميه فى غيظ ثم استدار ليعود، وهو يحاول التظاهر بالرضا مكتفيا بالسلحفاة المتروكة فى صندوقه صيدا لهذا اليوم.

على أن الجنون كاد يأخذ به عندما بلغ الصندوق فإذا به مفتوح.. ولاشئ فيه قط..

☆ ☆☆ ☆ ☆

إذا كان اليأس قد أبى إلا أن يأخذ بخناق بن قدور، إلا أنه مع ذلك ظل يسير ويسير، ولايدرى أين تقوده قدماه. ولم ينتبه الرجل إلى هبوط الليل واشتداد الظلمة، إلا حين اصطدم فجأة بشجرة قائمة.. وتنبه إلى ماحوله. فإذا به وسط غابة لايدرى كم تبعد عن كوخه، ولايذكر أنه رآها أو دخلها من قبل. وراح يدور ويدور لعله يجد مخرجا منها، غير أن الظلمة الحالكة أكدت له أن عليه أن يقضى الليل كله وسط الأشجار، برغم الزئير والرعب الذى يسود جو الغابة.

واستسلم لقدره.. وألقى بجسده المنهك إلى جوار شجرة ضخمة.. وإن لم يستطع النوم أن يغزو عينيه.

وأشرق النهار فى النهاية.. وكان بن قدور يحس جوعا لم يحس مثله من قبل قط..

ولكنه تحامل على نفسه ونهض من مكانه، وعاد يسير فى بطء لعله يعثر على شيء.. وفجأة.. طرق سمعه صوت ملئ بالتوسل والتضرع ينطلق من تحت قدميه صائحا:

– النجدة.. أغيثونى.. أنقذنى لوجه الله..!

وأطل بن قدور فى سرعة.. فإذا به على شفا حفرة عميقة تغطيها فروع الأشجار.. بدا له أنها فخ حفره الصيادون لاصطياد حيوان الغابة.. وكان واضحا أن الصوت صوت إنسان سقط دون قصد فى الحفرة وعجز عن الخروج..

وعاد الصوت يصرخ من جديد:

– ساعدنى على الخروج من الحفرة أيها النبيل.. وسوف أعطيك مائة قطعة من الذهب..

ولم تكن أحلام بن قدور يمكن أن تصل إلى ذلك القدر. لهذا كان فى ذلك الوعد الكفاية لبذل يد المعونة. وأسرع بن قدور إلى غصن شجرة طويل ضخم، ومد به يده إلى داخل الحفرة وهو يقول للرجل:

– تعلق فى هذا الفرع.. وسأسحبك من الحفرة وأخرجك منها.

وأحس بن قدور بثقل الفرع فى يده، فراح يسحب ويتراجع إلى الخلف فى جهد كبير..

وفجأة انطلقت من فمه صرخه هائلة.. وترك الفرع من يده.. ولكن بعد أن كان ثعلب كبير يقفز مسرعا من داخل الحفرة وينطلق إلى أعماق الغابة..

وضرب بن قدور كفيه فى يأس.. فحتى الإنسان الذى وعده بالمعجزة.. كان ثعلبا..!!

غير أنه انتبه من جديد.. فإذا صوت الإنسان المحبوس فى الحفرة لايزال هناك وهو يصرخ:

– انقذنى ياسيدى بالله عليك.. وسوف أعطيك مائتى قطعة من الذهب.

وخطر لبن قدور أول الأمر أن يطلق ساقيه للريح.. فقد اعتقد أن هناك خدعة جديدة.

غير أن صوت الإنسان ظل ينطلق مستغيثا.. حتى وجد بن قدور نفسه عاجزا عن ترك مثل هذا المسكين فى حفرته مهددا بالموت..

ومن جديد، أنزل بن قدور فرع الشجرة فى الحفرة.. وبدأ يجره عندما احس بأن الرجل قد تعلق به. غير أن المفاجأة نفسها تكررت. وإذا الذى تعلق بالفرع قرد ضخم لم يكد يقفز من داخل الحفرة حتى تعلق بشجرة مرتفعة واختفى بين أوراقها بمجرد ملامسة قدميه للأرض..

وضرب بن قدور الأرض بقدميه.. ومضى فى طريقه غاضبا ثائرا على حظه المشئوم.

غير أنه توقف من جديد عندما ضربت أذنيه صرخات الرجل نفسها من داخل الحفرة:

– أنقذنى وحق الله.. رحمة بى.. أقسم لك بالله أننى سوف أعطيك مكافأة قدرها خمسمائة قطعة من الذهب لو أنقذتنى..

وضرب الرقم الجديد رأس بن قدور.. ولم يجد مايمنعه من تكرار المحاولة. غير أن المفاجأة كانت هذه المرة ثعبانا ضخما هرب فى أعماق الغابة بمجرد وصوله إلى الأرض..

وألقى بن قدور فرع الشجرة غاضبا. وتأكد أن فى الحفرة جنيا يسخر به.. فأقسم أن يمضى ويسد أذنيه عن تضرعات الصوت الغريب..

وتحرك فى حزم.. غير أن الصوت عاد يقول:

– رحمة بى. لاتتركنى.. أقسم لك أن أمنحك ثروتى كلها.. إذا أنقذتنى..

ولم يكن من المعقول أن يجد بن قدور قدرة على مقاومة مثل ذلك العرض. فتوقف عن المسير.. وراح ينصت إلى الرجل وهو يواصل صرخاته:

– سأعطيك منزلى وحديقتى وحقولى.. كلها ستكون لك وحدك..

وانتبه بن قدور وهو يصيخ سمعه جيدا للصوت.. وتذكره. لقد كان هو نفسه صوت جاره الغنى.. سيدى أمون..

ولم يتردد بن قدور هذه المرة.. بل مد يده بفرع الشجرة.. وراح يسحبه عندما تعلق به الرجل..

وكان الذى خرج بالفعل هو سيدى أمون.. الذى لم يكد يخرج من الحفرة حتى قفز فرحا.. واحتضن بن قدور فى امتنان.. وهو لايدرى كيف يشكر منقذه على ذلك الصنيع الجليل..

وانطلق الرجلان معا فى الطريق إلى القرية..

كان بن قدور سعيدا كل السعادة بالصنيع الذى قدمه لأغنى أغنياء القرية.. ولكن سعادته كانت أشد وهو يتصور نفسه وقد بات صاحب كل تلك الثروة كما وعده بها الرجل.. وإن استقر فى عزمه ألا يحرمه منها كلها.. بل قرر أن يقتسمها معه.. وحسبه نصف ذلك الثراء..

وقال بن قدور قبل أن يودع صاحبه:

– ومتى أمتلك منزلك وحقولك؟

وبدا سيدى أمون مستغربا السؤال. ولكنه أجاب فى تردد:

– .. غدا.. غدا بالطبع..

وأسرع سيدى أمون يغير مجرى الحديث.

ولكن بن قدور لم يكف عن العودة إلى الكلام فى الموضوع نفسه.. ويبدو أن ذلك أثار سيدى أمون الذى كان قد بدأ يتناسى وعده.. وإن لم يجد مايمنعه من أن يقول له وهو يودعه عندما بلغا القصر:

– إذن. إلى الغد..

ونام بن قدور تلك الليلة غارقا فى أحلام عريضة رائعة..

وفى الصباح تذكر أن عليه تحقيق رؤياه.. فما عاد هناك شئ قط بينه وبين أن يكون أسعد إنسان فى الوجود. وانطلق إلى قصر سيدى أمون..

ولكن الرجل لم يكن لديه أى استعداد قط للتنازل عن ثرائه الكبير لإنسان أيا كان هذا الإنسان.. فكيف وهذا الإنسان هو ذلك الحقير المفلس بن قدور.. وإذا كان قد وعده بالفعل، الا أنه مع طول تفكيره فى الأمر ليلته كلها خرج بأن هذه الوعود التى قطعها على نفسه كانت فى الحقيقة تحت ضغط الرعب والخوف من الهلاك فى حفرة الموت.. أما وقد خرج سالما فما عاد هناك مايدعوه لأن يكون كريما إلى هذا الحد، وإن كان هذا لايمنع أن يتنازل عن بعض ماله فيعطى بن قدور بضع عشرات من قطع الذهب، ولاشئ بعد..!

فى ذلك الوقت جاءه من يعلن له وجود بن قدور بالباب. وتواضع سيدى أمون كثيرا وهو يسمح لنفسه باستقباله. ولم يكد يلتقى به حتى شرح له قراره، ومد إليه يده ببعض قطع من الذهب.

وأبى بن قدور أن يمد يده.. وقال للثرى:

– لايمكننى أن أقبل ذلك.. لقد وعدتنى بمنزلك وحديقتك وحقولك.. إننى أريد هذا كله.. ولن أخرج من هنا إلا إذا تسملت عقود الملكية.. بل إن الأمر يقتضى بالفعل أن تغادر المكان على الفور وتدعنى هنا..

ولم يجد سيدى أمون وسيلة لإقناع بن قدور بالعدول عن قراره.. ولم يكن أمامه إلا أن ينادى عبيده ويأمرهم بإلقاء الرجل فى الطريق خارج القصر..

ووجد بن قدور نفسه أشد بؤسا مما كان.. وأكثر نكدا.. وانطلق بن قدور إلى قاضى المدينة.

وكان على سيدى أمون أن يمتثل للوقوف أمام المحكمة..

على أن سيدى أمون لم ينكر أمام القاضى أن الرجل أنقذ حياته بالفعل.. أما عن الوعود التى تحدث بها بن قدور فهو لم يسمع بها قط.. ولم تأت على لسانه على

الإطلاق.. وإن كان مع ذلك يعترف بالجميل ويبدى استعداده لدفع عشرين قطعة من الذهب مكافأة للرجل نظير ماأداه له من خدمة لايستطيع أن يقابلها بالنكران..

وراح القاضى يزن الأمور.. ووجد أن اقتراح سيدى أمون لابأس به، على أن يضاعف المبلغ فيصبح أربعين قطعة من الذهب..

وأصدر القاضى قراره. ولم يجد بن قدور بدا من القبول، وإن فتح يديه وهو يتجه إلى السماء ليشهد الله على ماكان.

وكانت السماء تشهد كل شئ..

ولم تكد أيام قليلة تمر، حتى كانت هناك سحابة كثيفة تحجب الشمس وتلقى بظلها على الأرض. وسمعت صيحة رهيبة راحت تتكرر من آلاف الأفواه فى القرية:

- الجراد.. الجراد.. الجراد.

وانقلبت القرية رأسا على عقب. وبدأت المقاومة تشتد وتتضاعف ضد المغير الخطير. وراحت الطبول تدق فى كل مكان فى مطاردة عنيفة للجراد.. ولكن دون جدوى.

وفى الصباح، كان ماأصاب حدائق سيدى أمون وحقوله أضعاف أضعاف ماأصاب قرية البور كلها.

ولم يعد بن قدور وحده هو أتعس خلق الله.. فقد كان سيدى أمون ينافسه فى هذا المضمار.. وإن تمكن بن قدور من استغلال قطع الذهب الأربعين فى فتح متجر كبير.. كان نواة بعد ذلك لثراء عريض.

واستمرت الأيام تسير..

الأميرة الخرساء

حكاية من المغرب

كان مشهد الجبل الضخم الذى يقوم وراء أسوار عاصمة أبيه، يثير فى أعماقه دائما رغبة جامحة فى كشف سره وتفهم ماوراءه من خفايا وأخطار. وإذا كان قد عجز طوال سنوات طويلة عن التفكير فى تنفيذ المغامرة التى طالما شاقه أن يقوم بها خوفا من أبيه الذى أقام ذلك السور الضخم ليحمى شعبه كله من الأخطار المتوقعة وراء الجبل، إلا أن الأمير لم يجد أمامه الآن – وقد انتقل أبوه إلى رحمة الله – مايحول بينه وبين اختراق هذا السور الرهيب والتوغل للوصول إلى القمة التى لم يصل إليها إنسان قط. ولم يستطع أخواه ـ برغم كل ماحاولا منعه من المغامرة الرهيبة ـ أن يثنياه عن عزمه، فقد أقسم أمام الجميع فى صوت عميق ملئ بالتصميم والتأكيد.

– سأذهب إلى ماوراء السور، وسأصعد إلى الجبل متحديا الأخطار.. وسأبذل كل جهدى لأزيل الغموض الذى يكتنفه واكشف ماوراءه من أسرار

وانطلق الفتى صباح ذات يوم ومعه بعض حراس القصر إلى حيث البوابة الضخمة التى ظلت مغلقة لعدة سنوات، لينطلق من ورائها إلى حيث يعتلى الجبل الضخم. وإذا كانت الرهبة قد أخذت بالحراس أنفسهم فلم يجدوا جرأة على تحدى الجبل الرهيب وتوقفوا وراء السور لايجاوزونه، إلا أن الأمير أبى إلا أن يواصل مغامرته برغم سيره وحيدا دون رفيق.

وواصل الأمير سيره على طول السفح.. ووجد نفسه يخترق مجاهل غريبة لم تطأها قدم من قبل.. تعلو به الأرض وتهبط فلا يحاول قط أن ينظر خلفه حتى لايثنيه شئ.. ومرت الرحلة لبضع ساعات دون أن يحدث مايثير. ثم فجأة.. وجد نفسه أمام حديقة رائعة وكأنها جنة رضوان، تنطلق بين زهورها وأشجارها غزالة تروح وتجئ فى فرح وبهجة لايرهبها شئ قط. على أن الغزالة ماأسرع ماانتهت إلى القادم الغريب فأجفلت ثم استدارت ثم أرسلت سيقانها للريح..

كان مشهد الغزال وهى تجرى مثير للفتى الذى انطلق خلفها يطاردها فى قوة

وسرعة وتصميم.. وكاد يلحق بها بعد جهد لولا أن وجدها تغوص فجأة داخل الجبل الذى انشق عن ممر عبرته لتختفى عن ناظريه.

وتوقف الأمير وهو يفتح عينيه فى دهشة.. ولكنه انتبه إلى نفسه وعاد يقسم:

– ليكن مايكون.. ولكن مهما حدث وأيا كان نوع البلاء الذى قد يصيبنى، فلن أترك الجبل قبل أن أكتشف سر تلك الغزالة الشاردة..

وحط الأمير رحله فى المكان نفسه حيث كان الليل قد أسدل ستوره.. بينما كان الحراس الذين توقفوا من قبل عند السور فى انتظار عودة أميرهم قد أخذ بهم القلق لغيابه، وأيقنوا أن كارثة قد لحقت به دون شك. وقال قائدهم وهو يهز رأسه:

– يبدو أن علينا أن نزيل الخوف من نفوسنا ونتوغل فى الجبل جماعة معا لنرى ماذا حدث للأمير:

وإذا كان الرعب قد أخذ بقلوب البعض، إلا أن الجماعة منحتهم قوة فامتثلوا للأمر، وانطلقوا يتوغلون فى نفس الطريق الذى شهدوا الأمير يخترقه من قبل.. وقادتهم أقدامهم بعد ساعات إلى حيث وجدوا أمامهم حديقة رائعة.. بينما طرقت آذانهم أصوات آلات موسيقية وألحان وأغان لم يسمعوا مثلها من قبل.. وإن زاد حيرتهم عجزهم عن الوصول إلى مصدر ذلك الجو الرائع الذى يحيط بهم.. ولايفهمون سره أبدا.

ولم يزد وقوفهم كثيرا، فقد كان عليهم أن يواصلوا السير بحثا عن الأمير.. وفوجئوا وهم فى أعماق الحديقة بفتاة رائعة الجمال تجلس إلى جوار نبع صغير، وهى تمشط شعرها الطويل بيديها. ولم تكد الفتاة تسمع الضجيج الذى صحب دخول الحراس حتى تحولت إلى غزالة، واندفعت تجرى وتقفز نحو صخرة كبيرة، انشقت فجأة لتترك ممرا عبرته الغزالة لتختفى عن الأنظار، وتدع الجميع فى ذهول وهم يطلون إلى الصخرة التى عادت مسرعة إلى وضعها الطبيعى وكأنها لم تنشق قط.

وتابع الحراس جهودهم بحثا عن الأمير غير أن كل الجهود ذهبت هباء.. ولم يكن أمامهم بعد إلا أن يعودوا أدراجهم إلى المدينة.. وينطلق قائدهم إلى الملك الجديد عم الأمير وإخوته والذى جلس على العرش بعد وفاة أخيه الأكبر.

وكان حول الملك ولدا أخيه الراحل الآخران. وأطل كل منهما إلى الآخر، ثم أقسم أكبرهما على الذهاب إلى ماوراء الجبل بحثا عن أخيه ولو ذهبت حياته سدى وهو يبحث عنه. وإن كان فى أعماقه يتمنى أن يكتشف أولا سر الجبل وحقيقة الغزالة الهاربة..

غير أن الأمير الثانى عندما انطلق إلى أعماق الجبل، كان الفشل حليفه أيضا.. ولم تتلق المدينة أى خبر عنه بعد أن اختفى تماما، كما حدث لأخيه من قبل..

ولم يكن أمام الأخ الثالث إلا أن ينطلق وراء أخويه، فما كان يمكن أن يبدو أمام الشعب بأقل جرأة وشجاعة عن شقيقه. على أن مصيره هو الآخر لم يكن بأحسن من المصير الذى لقيه أخواه من قبل.

وملأ الملك غم شديد.. واستدعى مستشاره يطلب منه النصح فيما يكون. وقال الملك:

– مابشع التعاسة التى أحسها منذ اختفى أبناء أخى الثلاثة وذهبوا ضحية تهورهم المقيت. وأن ممايزيد المى وشقائى أننى لم أعترض على ذهاب الأخوين بحثا عن أخيهما الثالث فقد كنت أتعشم أن يعودا به. وهكذا أصبحت موضع سخرية من جميع جيرانى الملوك.. فأى نصيحة تشير بها على ياأبا الحكمة؟

وأجابه المستشار:

– قد سمعت يامولاى أن أخاك الملك الراحل كان قد أنجب طفلة حسناء.. شعرها يختلط بلونى الذهب والفضة.. وقد اختفت الفتاة فجأة ذات صبح ولم يسمع بها أحد وعجز الجميع عن إدراك المصير الذى لقيته. أليس من الممكن أن تكون هذه الفتاة هى نفسها الغزالة التى شهدها الحراس فى حديقة الجبل ؟!

وهز الملك رأسه مستبعدا تلك الفكرة وقال فى دهشة إنه لايذكر أن أخاه قام بأى بحث للعثور على هذه الفتاة المزعومة.. كما أن الأمر لو كان صحيحا حقا للجأ أخوه إلى السحرة الذين كانوا يستطيعون العثور عليها أو إخباره على الأقل بمكانها..

وأجابه المستشار:

- ولكنى سمعت أن الملك الراحل قد لجأ إلى السحرة بالفعل ولكنهم نصحوه جميعا بأن يترك ابنته فى مكانها الذى انطلقت إليه فهى تعيش هناك فى سعادة بالغة. وأخبروه بأنها إذا أجبرت على العودة فسيكون ذلك سببا فى تعاستها وبؤسها.. وسمعت أن السحرة قالوا للملك أيضا إن اليوم الذى تخرج فيه الفتاة من عزلتها سيكون يوم محن كثيرة حيث تقطع عشرات الرقاب بسببها.. أما هى نفسها فستصبح خرساء ولن يستطيع إنسان أيا كان أن يخرجها من حالة البكم. وإن كان القدر قد كتب لها أن تحمل خواتم سحرية تعطيها لأخواتها الأمراء الذين سيتزوجون من جنيات.

وكانت تلك الأنباء غريبة على أذن الملك، فما سمع تلك الأشياء من قبل قط. غير أن المستشار راح يؤكد تلك التفاصيل التى سمعها من السحرة أنفسهم. وكان من رأيه أن يستدعى الملك هؤلاء السحرة عسى أن يستطيعوا معرفة مكان الأمراء الثلاثة، ويعيدوا الأميرة المختفية أيضا..

وهز الملك رأسه وهو يستصوب الفكرة.. وقرر لفوره أن يعمل على تنفيذها. ومع صباح اليوم التالى كان المنادون يطوفون فى كل مكان بالمدينة وهم يقولون:

«سيكون الثراء والمجد لذلك الذى يتمكن من إعادة الأمراء الثلاثة المختفين وراء الجبل والعثور على الأميرة الشابة التى أسرها الجن منذ سنوات».

ولم يطل الوقت كثيرا، ففى اليوم نفسه تقدم واحد من السحرة فمثل أمام الملك وهو يقول :

- أنا يامولاى هذا الرجل الذى تبحث عنه.. ففى مقدورى إعادة الأمراء الثلاثة والأميرة المختفية التى أسرها الجن.

ووافق الملك وهو يرحب به.. وإن قال له محذرا:

– ولكن عليك أن تعلم أنه فى حالة فشلك فى مهمتك فستكون رأسك هى الثمن.

وهز الساحر كتفيه.. واتجه نحو الجبل.. وهناك أطلق بخوره وراح يتمتم بابتهالاته ويمارس كل فنون سحره من أجل أن يفك الطلسم الذى يحيط بمن يبحث عنهم. . ومع ذلك فما كان يجيبه من بعيد سوى رجع صدى موسيقى وأناشيد تشجيه وتبعث بها آلات موسيقية عذبة..

وذهبت جهود الساحر سدى.. وعندما عاد إلى الملك معلنا فشله تمنى عليه أن يمنحه مهلة أخرى طوال الغد عسى أن ينجح فى مهمته .

ومنحه الملك مهلة جديدة.. وانطلق الساحر مع الصباح التالى يعاود محاولته الشاقة ويطلق أنواعا أخرى من البخور والابتهالات دون أن يحرز أى نصر. وإذا كان الملك قد ضاق بذلك الفشل الذى أصاب الساحر، إلا أنه ظل كل يوم يلبى رجاءه فى أن يمنحه مهلة جديدة. ظلت تتكرر لأيام سبعة دون جدوى..

واستسلم الساحر آخر الأمر.. غير أنه قبل أن يمضى عائدا إلى المدينة وقد عرف أن رأسه ستطير ذلك اليوم من فوق جسده.. إذ بصوت غريب ينفذ إلى سمعه ويقول:

– أيها الساحر.. اذهب عنا.. فنحن فى غنى عن سحرك!

وتوقف الساحر.. ووجد من الجرأة ماجعله يقول:

– ومتى ستخرجون وتعودون!؟

غير أنه لم يتلق أى إجابة..

وانطلق الساحر عائدا إلى قصر الملك يقص عليه ماحدث. ولم يكد الساحر ينتهى من روايته حتى أرسل الملك يستدعى مستشاره ويخبره بما كان. وقال المستشار:

– لك أن تفرح يامولاى وتقر عيناك.. فإن أبناء أخيك أحياء عائدون عن قريب..

وكان هذا هو ماحدث بالفعل..

فلم تكد أيام سبعة أخرى تمضى، حتى فوجئ السلطان وهو جالس فوق عرشه بأول من اختفى فى الجبل من أبناء أخيه.. وتقدم الفتى نحو عمه يعانقه فى قوة وحب، بينما كان لسان السلطان يعجز عن السؤال الذى كان لابد أن يسمع جوابه، وقال الفتى:

– إنك لتعلم ياعم أن والدى قد حرم طوال حكمه على أى انسان أن يخترق الأسوار ويضع قدمه على سفح ذلك الجبل. ولكننى مع هذا ذهبت إلى الجبل الذى تصورناه مخيفا رهيبا، فإذا بى ألتقى هناك بغزالة رشيقة جميلة لم أكد اقترب منها حتى انشقت إحدى صخور الجبل فابتلعتها. وكان انفعالى بما رأيت شديدا قويا حتى أننى رحت فى غيبوبة لم أكد أفيق منها حتى وجدت نفسى داخل قصر رائع لاتكاد عينان تدركان مداه.. وهناك فوجئت بعملاق أسود يقف أمامى ويقول:

– أهلا بك هنا وسهلا..

وأشار لى العملاق أن أتبعه فامتثلت لأمره ودخلت قاعة تجلس فيها أربع فتيات، كل منهن على سرير من الذهب والفضة، بينما تنبعث من مكان خفى فى القاعة أصوات موسيقى وأناشيد سحرية رائعة. وعندما لمحتنى الفتيات أقبلت نحوى صغراهن وهى تحيينى وتقول:

– حمدا لله على سلامتك وصحتك أى أخى الذى تربطنى به جذور قوية مشتركة.

فى تلك اللحظة شعرت بالدموع تتساقط على خدى، وتذكرت أنه كانت لنا أخت اختفت فجأة وبحثنا عنها طويلا دون جدوى، وكان حديث الفتاة وتناولها أسرار عائلتنا مؤكدا لى صحة ماتقول.. خاصة حين ذكرت أنها قد حضرت هى وصاحباتها احتفالات جنازة أبى دون أن يراهن أحد من المشيعين على الإطلاق. وعندما استأذنت منها فى الخروج أعطتنى هذا الخاتم الذى أضعه فى إصبعى الآن..

وراح السلطان يتأمل الخاتم الغريب.. ويحاول أن يستكشف سره، خاصة عندما

قال الفتى إن أخته لم تذكر له شيئا عن سر الخاتم السحرى. وعندما عجز عن أن يفهم شيئا أرسل يستدعى مستشاره الذى قدم مسرعا. وقال الرجل وهو يتأمل الخاتم:

- يكفى أن يدير الأمير الخاتم فى إصبعه حتى يظهر مفعوله.

وأدار الأمير الخاتم.. وفى نفس اللحظة فوجئ بواحدة من الفتيات اللاتى رآهن مع شقيقته فى القصر الذى ببطن الجبل. وتقدمت الفتاة فى احترام شديد نحو السلطان وحيته.. بينما قال السلطان:

- من تكونين أيتها الحسناء؟

قالت الفتاة:

- أنا عروس هذا الأمير العزيز ابن أخيك..

والجمت المفاجأة السنة الجميع.. ولكن السلطان ماأسرع ماانتبه ثم التفت إلى المستشار الذى كان يطلب من الأمير أن يدير الخاتم من جديد ويطلب عودة أخويه..

ونفذ الأمير ماطلب منه، وأعاد إدارة الخاتم مرات ومرات.. ولكن شيئا لم يظهر قط..

وهز المستشار رأسه وهو يقول..

- يبدو أنه لابد من الانتظار سبعة أيام أخرى قبل أن نعاود المحاولة..

ووافق السلطان على فكرة المستشار، ثم أعلن بواسطة المنادين فى كل أنحاء المملكة أن احتفالات زواج ابن أخيه الراحل قد أقيمت، وأن الموائد والولائم قد أعدت لأفراد الشعب احتفالا بالمناسبة السعيدة الرائعة.

فى نهاية الأيام السبعة فوجئ السلطان وهو يجلس فوق عرشه. بالإبن الثانى الذى كان قد اختفى فى الجبل من أبناء أخيه.. ولم تكد تمر أيام سبعة أخرى حتى فوجئ بالثالث من أبناء أخيه يظهر هو الآخر.. ويقص عليه نفس القصة التى قصها أول الأبناء من قبل..

وكانت نفس القصة قد تكررت بالفعل.. وكان مع كل من الشقيقين خاتم سحرى أعطته له واحدة من الفتيات اللاتى كن مع الأخت المختفية فى بطن الجبل. وكان كل من الفتيين لايكاد يدير الخاتم فى إصبعه حتى تظهر أمامه إحدى الفتيات وتعلن أنها الزوجة المختارة للأمير صاحب الخاتم السحرى.

على أن السلطان كان لايزال يتمنى أن يستكمل سعادته بظهور ابنة أخيه التى اختفت من قبل.. والتى لاتزال مسجونة فى القصر المسحور الرابض فى أعماق الجبل الرهيب. وراح السلطان يستفسر من إخوتها عن الحال الذى وجدوها عليه ويسألهم:

– الا تعرفون أين ومتى تعود أختكم أيها الأبناء؟

وأجاب الأمراء:

– علينا أن ننتظر أياما سبعة أخرى.. وسنراها فى نهايتها أمامنا بلحمها وعظمها..

ومرت الأيام السبعة..

وبينما السلطان جالس فى الحديقة ومعه أبناء أخيه الثلاثة وزوجاتهم، إذ فوجئوا جميعا بالأميرة المفقودة وهى تقف أمامهم فى روعة.

وانطلق إليها الجميع يعانقونها فى حب كبير.. غير أن ما آلمهم أنهم وجدوها خرساء لاتتفوه بكلمة واحدة.. وعجزوا تماما عن الحصول منها على أى إجابة أورد على استفساراتهم وأسئلتهم.

ويلغ الحزن بالسلطان مبلغا شديدا.. وانطلق يستدعى مستشاره يسأله عن السبيل إلى شفاء ابنة أخيه.. وكان جواب المستشار هو اللجوء من جديد إلى علوم السحر.

وانطلق المنادون من جديد يذيعون فى كل مكان أن من يجد فى نفسه القدرة والكفاءة لحمل الأميرة على النطق والكلام عليه أن يتقدم. وستكون المكافأة لمن ينجح فى تلك المهمة هى الزواج بالأميرة واقتسام السلطة مع السلطان.

وأحدث الإعلان المغرى أثره الكبير فى نفوس الكثيرين. وتقدم واحد من السحرة إلى السلطان وقال:

– سوف أجعل الأميرة تتحدث إليك بنفسها يامولاى.

قال السلطان:

– جرب حظك.. ولكن عليك أن تعلم أنك إذا فشلت فى مهمتك فسوف تقطع رقبتك.

قال الساحر.

– لابأس.. وأنا أوافق.

فى تلك اللحظة كانت الأميرة تقف فى الحديقة تتأمل الأشجار والورود، حين تقدم منها الساحر وراح يتلو ابتهالاته وتعاويذه ويطلق بخوره. على أن الرجل راح يواصل عمله لأيام ثلاثة متتالية.. وحين اعترف فى النهاية بعجزه أمر السلطان بقطع رأسه.

وأتى ساحر ثان إلى القصر. وكان الذى حدث للساحر الأول هو نفس ماحدث للساحر الثانى.. بل كان هو نفسه ماحدث لسحرة آخرين راحوا يتتابعون على القصر ويفقدون رءوسهم حتى بلغوا سبعة من السحرة.

وكانت رؤوس السحرة المقطوعة سببا فى إحجام الكثيرين عن التقدم وتعريض رءوسهم للخطر..

وعاد المنادون يدورون فى ممالك أخرى ويذيعون فيها نفس الإعلان ويعلنون نفس الشروط..

ومن إحدى الممالك المجاورة قدم ساحر جديد تعهد بالقيام بتلك المهمة.

وجلست الأميرة تتوسط عددا كبيرا من الأمراء والوزراء والأعيان فى انتظار مايفعله الساحر.

وطلب الساحر إحضار مائدة صغيرة.. وعندما جاءوه بها راح يتمتم بكلمات غير

مفهومة، ويقوم بحركات هستيرية غريبة، أثارت رعب الجميع . ثم فجأة ارتفع صوته فى لهجة آمرة:

– أيتها المائدة.. أحملى فوق سطحك أحب الطعام وأشهاه إلى نفس الأميرة.

ومضت لحظات ولم يحدث شئ.

وعاد الساحر يقول :

– أيتها المائدة أجيبينى.. هل تم إعداد كل شئ !؟

وهنا صدر صوت ضئيل من تحت المائدة يقول :

– كل شئ معد..

وأطل الجميع فإذا على المائدة طعام فاخر شهى من الأنواع المعروفة والتى لم تعرف قط..

وارتفعت صيحات الحاضرين.. وتعلقت عيون الساحر بشفتى الأميرة. ولكن هذه ظلت ساكنة لاتتحرك ولاتتفوه بكلمة..

وعاد الساحر يصرخ من جديد.

– عودى أيتها المائدة كما كنت..

وفى لحظة خلت المائدة من كل شئ واختفى من فوقها كل الطعام.

وظلت الأميرة خرساء لاتتكلم.. وقام السياف بمهمته.. وقطع رأس الساحر..

جاء ساحر آخر إلى القصر يحاول أن يجرب حظه ويعلن قبوله شروط السلطان، رغم تلك الرءوس المقطوعة الكثيرة التى شاهدها معلقة على باب المدينة..

وجلست الأميرة.. وانطلقت الأبخرة التى أطلقها الساحر وارتفعت أصوات تراتيله وتعاويذه.. ثم فجأة رفع يديه إلى سقف القاعة وقال فى لهجة آمرة:

– أيها السقف.. أنزل علينا ذهبا يملأ هذا القصر..

وفى لحظة انهمر سيل من الذهب وامتلأت ردهات القصر وحجراته به. وبدأ الحاضرون يمتلئون رعبا وهم يتوقعون الاختناق بأكداس الذهب التى أحاطت بهم من كل جانب. وعاد الساحر يصرخ:

– والآن ليختف كل الذهب من القصر:

وفى نفس اللحظة اختفت أكداس الذهب فى الوقت الذى كانت كل الأنظار معلقة فيه على شفاه الأميرة.. غير أنها مع كل ذلك ظلت خرساء لاتتكلم ولاتنبس ببنت شفة.

وكانت قصة النهاية للساحر الجديد. على أن الساحر الثالث الذى جاء بعده تصور أنه سيكون أسعد حظا من زميليه. وعندما بدأ مهمته وجه نظره نحو باب القاعة ثم راح يقول فى بساطة:

– أيها الباب.. لتحك لنا إحدى قصصك الرائعة..!

وأجاب الباب:

– سأحكى لكم قصة رائعة.. فانصتوا لى..

وفجأة سكت الباب ولم يكمل حديثه. وعبثا حاول الساحر أن يجعله يتم الحديث ويحكى القصة.. وكان فشل الساحر باعثا على سرور الأميرة.. فعلت شفتيها ابتسامة..

وهنا صاح الساحر فى الحاضرين:

– اشهدوا جميعا أن الأميرة قد ابتسمت.

ورد عليه المستشار :

– نحن نعترف لك بذلك.. ولكن الشرط هو أن تجعلها تتكلم. ولكن كل جهود الساحر ذهبت سدى.. ولحق رأس المسكين بكل زملائه الذين سبقوه..

وراحت الرءوس تتزايد كل يوم على أبواب المدينة..

وامتلأ السلطان غيظا.. وانطلق يطلب المشورة من مستشاره الذى قال له:

– يبدو لى يامولاى أنه لم تعد هناك فائدة قط.. فالسحرة قد انقرضوا وهلك أغلبهم.. ومن بقى منهم لم يعد يجرؤ على التقدم حفاظا على رأسه.. وبقيت الأمور على حالها.. وامتلأ السلطان يأسا من شفاء الاميرة.. ثم استسلم لإرادة الله..

كل ذلك كان يجرى بينما واحد من الأمراء الشبان يدور فى كل مكان خارج البلاد فى جولة حول العالم وذات يوم قابله نجار أراد أن يظهر مهارته ومقدرته فى فن النجارة، فتناول أمام الأمير قطعة من الخشب راح يصقلها وينقشها حتى تمكن من أن يجعلها فى شكل آدمى.. وواصل النجار عمليات حفره المتقنة حتى استطاع أن يكسب التمثال ملامح المرأة.. وذهب النجار إلى إحد تجار العطور فاشترى مسكا وعطورا زكية رشها على التمثال الجامد الجميل..

وبدا التمثال وكأن شيئا لم يعد ينقصه سوى الحركة والحياة..!

وحدث أن مرناسك متدين على الطريق وأدهشه التمثال الرائع كثيرا مما جعله يتوقف ليسأل النجار:

– ماهذا أيها النجار :؟

وأجابه النجار:

– إنه تمثال صنعته وشكلته من قطعة خشب.

ولكن بائع الملابس الذى كان لايزال هناك هتف:

– وأنا ألبست التمثال ذلك الثوب الرائع.

وقال بائع العطور:

– وأنا الذى نفحته بالعطور التى تجعله يفوح بالرائحة الساحرة والشذى الطيب..

وسألهم الناسك فى بساطة:

– وما الذى ينقص التمثال إذن ؟

أجابوا فى صوت واحد:

– الحياة..!!

قال الناسك:

– سوف أبعث فيه الحياة بعون الله وإرادته.

وسجد الناسك يصلى ويبتهل إلى الله القادر.. ولم تمض لحظات حتى بعثت

الحياة فى التمثال.. وشهد الحاضرون الحسناء الرائعة تحرك يديها وقدميها وتتثاءب فى هدوء لذيذ..

وأطل الجميع إلى بعضهم البعض فى دهشة.. ثم ندت من أعماق كل منهم رغبة فى ملكية التمثال الذى دبت فيه الحياة.. وصاح النجار:

– أنا الذى صنعتها وشكلتها.. فهى ملكى..

وصرخ بائع الملابس:

– ولولا الملابس التى ألبستها لها لما جذبت الروح التى جاءتها بالحياة..!

وزعق بائع العطور:

– أنا الذى عطرتها وجئتها بالشذى الطيب الذى اجتذب إليها الحياة.. فهى ملكى وحدى..

وصاح الناسك:

– وما الذى أفادها هذا كله؟! إنها بدون صلواتى وابتهالاتى ودعواتى لظلت خشبا جامدا خاليا من الحياة والروح.

واتسع النقاش.. وبدأت المعركة بين الجميع.. ومامن واحد منهم يحاول التنازل عن حقه فى المرأة..

وانتقل الجميع إلى قاضى المدينة.. وتبعهم الأمير الذى كان يشهد الأمر كله ليرى نهاية تلك المغامرة المثيرة..

وسمع القاضى شكوى الجميع، ثم أصدر قراره قائلا:

– إن الذى تمكن بفضل صلواته ودعواته من بعث الحياة فى التمثال هو فى الحقيقة الذى تسبب فى خلق المرأة.. وهو بذلك صاحب الحق فى امتلاكها.

وتسلم الناسك المرأة ومضى بها.. وانطلق الأمير مواصلا رحلته حتى عاد إلى المملكة، حيث سمع بقصة الأميرة الخرساء، وعلم بالمكافأة التى رصدها السلطان لمن يعيد إليها النطق..

وتقدم الأمير إلى السلطان وهو يقول فى ثقة:

– أتيت يامولاى أعيد النطق إلى الأميرة بنت أخيك.

وأطل الملك إلى الأمير فأشفق عليه.. وحاول أن يثنيه عن عزمه حتى لايفقد رأسه. ولكن هذا بدا مصمما على طلبه واثقا من نجاحه، فلم يكن بد من إحضار الأميرة لتجلس بين يدى الأمير الجرئ.

وقال الفتى للسلطان:

– لقد فرضت على شروطا يامولاى، وإذا فشلت فى مهمتى فستقطع رقبتى. ولعل من حقى أن أملى عليك شروطى أيضا وأطلب أن يكون جميع الوزراء وكبار رجال الدولة حاضرين هنا ليكونوا شهودا على مايحدث.. على ألا يتكلم أى منهم مهما رأى أو سمع.. ومن يتفوه بكلمة واحدة تقطع رقبته.

ووافق الملك فى دهشة. ثم جمع الوزراء والكبراء وجعلهم شهودا لما سوف يكون..

وبدأ الأمير حديثه.. لم يطلق بخورا ولم يتمتم بابتهالات. بل أخذ يحكى حكاية قطعة الخشب والدور الذى لعبه كل من النجار وبائع الملابس والعطار والناسك فى تكوين تلك المرأة.. وعندما انتهى وجه للجميع سؤالا واحدا:

– والآن.. من هو فى نظركم صاحب الحق فى المرأة.. النجار أم بائع الملابس أم العطار أم الناسك..

وكاد بعض الحاضرين أن ينطقوا لولا أنهم تذكروا الجزاء الذى ينتظر من يفتح فمه بكلمة.. فسكتوا عن النطق..

وعاد الأمير يكرر سؤاله:

– أى الرجال الأربعة صاحب الحق فى المرأة؟

وأحدث إلحاح الأمير أثره فى الفتاة.. فإذا بها تقول فى بساطه:

– أن الذى تضرع إلى الله وتمكن بدعائه من أن يجعل الحياة تسرى فى التمثال الجامد ليتحول إلى امرأة هو صاحب الحق فى أن تكون زوجته..

وصرخ الجميع هاتفين.. بينما كاد يغمى على الأمير لفرحته بنجاحه.. وعودة النطق إلى الفتاة..

ومن بعيد.. انطلقت الأغانى والموسيقى السحرية التى ملأت من قبل أجواء الحديقة التى فى بطن الجبل.. لتملأ من جديد أرجاء السلطنة كلها وهى تحتفل بزواج الأميرة العائدة بالأمير الشاب..

وهى قصة يتحدث بها الأولون.

الأمير الحطاب

حكاية من المغرب

برغم كل مامنحه لهن أبوهن السلطان من كل متع الحياة.. وبرغم كل ماحباهن الله من حسن وفتنة وجمال.. وبرغم تلك القصور الرائعة السبعة التى شيدت لهن وزودت بكل ماتشتهيه النفس من ألوان المتع والسحر.. إلا أن الفتيات السبع مع كل هذا لم يكن راضيات قط عن تلك الحياة.. فقد كان فى الأعماق منهن رغبة واحدة لم يختلفن فيها قط.. هى الزواج..

وفى الحق، ما أكثر ماجذبت فتنة الفتيات ومايتمتعن به من جمال عشرات من الرجال والشبان. وماأكثر من تقدم من هؤلاء، إلى السلطان يطلبون أيدى بناته.. غير أنه كان يقف دائما فى وجه كل خاطب، مهما كانت قيمته، ويهز رأسه بالرفض والامتناع.

وعجزت الفتيات عن التصرف، فما كن يجرؤن على مناقشة أبيهن فى هذا الأمر، وماكان لدى أى منهن من الشجاعة مايحفزها على مواجهته برغبتهن.. وعبثا فكرن فى طريقة تحمله على القبول والموافقة على خطابهن..

ولم يكن أمامهن آخر الأمر إلا أن يستشرن واحدة من عجوزات القصر، عرفت بالخبرة والدهاء والمكر، والعلاقة الطيبة بينها وبين السلطان.. وقالت الفتيات للعجوز:

– نحن نتحرق شوقا للزواج. ولكننا لانعرف كيف نوصل هذه الرغبة لوالدنا الذى يرفض كل من يتقدم للزواج منا.

وفكرت العجوز طويلا ثم هزت رأسها آخر الأمر وهى تقول:

– اسمعن يابناتى.. احضرن بطيخة كبيرة وسبع سكاكين من الفضة.. ولترشق كل منكن سكينا فى البطيخة. وابعثن بها إلى أبيكن السلطان دون أن تقلن له شيئا.

ونفذت الفتيات نصيحة العجوز.. وعندما تسلم السلطان هذه الرسالة الغريبة ملأته الحيرة وطلب المشورة من وزيره الذى عرف فيه الحكمة والتبصر..

وقال الوزير وهو يهز رأسه ويبتسم:

– إن بناتك يامولاى يتحرقن شوقا ورغبة إلى الزواج.. ولكنهن يخجلن من مفاتحك فى الموضوع.. ولهذا لجأن إلى هذه الطريقة الملتوية عسى أن تلبى رغبتهن وتحقق لهن ماينتظرنه منك..

وفكر السلطان طويلا.. وأدرك أنه برفضه يسئ إلى بناته كل الإساءة.. برغم ذلك الحب العظيم الذى يحمله فى جنباته لكل منهن والذى يجعله لايطيق فراق واحدة منهن. وعندما عرف السلطان أن سعادتهن أصبحت تتوقف على الزواج لم يجد بدا من النظر فى الأمر من جديد.

ويبعث السلطان فى طلب شيخ الصياغ وأمره بأن يصنع له سبع تفاحات من الذهب، على أن ينقش على كل تفاحة اسم واحدة من بناته السبع..

ونفذ الصائغ تعليمات السلطان.. ووصلت التفاحات السبع بعد أيام قليلة إلى القصر. وفى نفس اليوم انطلق المنادى فى المدينة يعلن أنه على كل فرد من أهل المدينة فقيرا كان أوغنيا أن يمر أمام قصر السلطان فى صباح اليوم التالى وحتى صلاة الظهر.

وكان السلطان قد وزع التفاحات السبع على الأميرات، وأخذت كل منهن التفاحة التى تحمل اسمها وقد وقفن على استعداد لتنفيذ أوامر السلطان بأن تلقى كل منهن تفاحتها من نافذة القصر على الجماهير التى سوف تمر من أمامه.

وفى اليوم التالى تجمع كل أهل المدينة. وبدأت طوابير الشعب تمر أمام نوافذ القصر، حيث وقفت كل من الأميرات بتفاحتها لتلقيها على الجماهير. ولم تكد الطوابير تنتهى حتى كانت الفتيات قد تخلصن من التفاحات وقد عرفن أن الأبواب قد فتحت أمامهن أخر الأمر للزواج..

وعاد المنادى يطوف بالمدينة معلنا أن كل من استطاع الحصول على تفاحة ذهبية من بين سكان المدينة عليه أن يتقدم بها بنفسه إلى السلطان.

وجلس السلطان ينتظر أصحاب النصيب السبعة. غير أن الذين تقدموا لم يكن

عددهم يزيد على ستة أشخاص مع كل منهم تفاحة ذهبية عليها اسم واحدة من الأميرات. ودهش السلطان لعدم وجود الشخص السابع الذى لابد أن يكون قد حصل على التفاحة السابعة.

وسأل السلطان رجال حرسه:

– أين التفاحة السابعة!؟

وأجاب الحرس:

– لقد التقطها فى الحقيقة حطاب مهلهل الثياب يقف الآن على باب القصر ولايجرؤ على الدخول..

وأمر السلطان بإحضاره على الفور.

ودخل الحطاب ومثل أمام السلطان. ومد يده بالتفاحة الذهبية فسلمها له تماما كما فعل الآخرون..

وانطلق السلطان إلى بناته حاملا التفاحات السبع، وقال لهن إن كل من حصل على تفاحة وجاء بها فسيكون زوجا لمن تحمل التفاحة اسمها..

وملأت الفرحة الفتيات كلهن.. وتبادلن التهانى على تحقيق أمنيتهن التى عشن ينتظرنها سنوات. وبدأ الأزواج يتوافدون.. كان من نصيب كبرى البنات ابن الوزير.. وكان من نصيب الثانية أكبر أنجال أحد الباشوات. واستمر فوج الأزواج.. لكل فتاة زوج ذو مركز وثراء.. سوى أصغرهن التى لم يكن أمامها غير الحطاب..

وأحنى السلطان رأسه أسفا وهو يقول لفتاته الحبيبة:

– إن ماجاء به نصيبك ذلك الحطاب الذى لا أستطيع أن أقبله زوجا لك.. فما يمكن أن يصل إلى مركزك ومقامك وقدرك.. ومايليق لك أن تتزوجيه.. لهذا فسأخرجه من القصر بعد أن أعوضه بمكافأة كبيرة. وانتظرى بعد ذلك نصيبك..

ولكن الفتاة الصغرى هزت رأسها وهى تقول:

– كلا ياأبتاه.. لقد اختار الله لى زوجى.. وهو نصيبى الذى قدر لى.. ولاأستطيع أن أهرب من المكتوب ومن إرادة الله..

وسكت السلطان.. ولم يستطع أن يعترض على رغبة ابنته.. فبارك زواجها وهو يرفع عينيه إلى السماء.

لم يكن الحطاب فى الحقيقة سوى أمير ذى قدر عظيم من إحدى الإمارات البعيدة. وكان قد تولى حكم الإمارة بعد وفاة أبيه وراح يحكم بين الناس بالعدل والقسطاس.. ولم يستعمل قط ذلك الخاتم السحرى الذى تركه له أبوه وأخبره وهو يعطيه إياه أن للخاتم خدما من الجن يلبون كل رغباته فى الوقت الذى يريد.

وفوجئ الأمير ذات ليلة فى حلمه برسول كأنه من السماء يقول له:

– لقد كتبت عليك سبع سنوات من الذلة والهوان.. عليك أن تختار أن تقضيها الآن أو تؤجلها حتى تبلغ الشيخوخة.

واستيقظ الأمير من نومه وقد ملأه الذعر. وحاول طوال ليله ويومه التالى أن ينسى الرؤيا الغريبة، إلا أنها تكررت من جديد فى الليلة التالية.. ثم فى ليلة أخرى ثالثة.

وعاد الأمير الشاب يفكر جيدا فى الأمر. وأدرك أن تكرر الرؤيا يؤكد تماما أنه القدر المكتوب عليه. وعندما آمن أن لابد من الطاعة والاستسلام راح يوازن بين اختيار السنوات العجاف فى أيامه تلك أو بعد بلوغه أيام الشيخوخة ووجد آخر الأمر أن من الأفضل أن يعانى سنوات الهوان فى شبابه بدلا من أن يؤخرها إلى سنوات لايعلم متى تجئ وكيف يكون الهوان بها وقرر أن يبدأ سنواته تلك وهو يمتهن مهنة الحطابين.

ودعا الأمير وزيره وقص عليه ماكان

وأوصاه بأن يتولى الأمور فى تلك السنوات بما عرف عنه من حكمة ونزاهة. ثم انطلق فى ثياب الحطابين يتسلل من القصر.. وقد حمل فأسا واتخذ لنفسه حمارا..

وفى رضا وقناعة بقضاء الله راح الأمير الشاب يتنقل من مكان إلى مكان، ومن غابة إلى غابة، يحتطب ويحمل الحطب ليبيعه، ويشقى بالذلة والهوان تماما كما يشقى بها زملاؤه الحطابون.

وساقته قدماه ذات يوم إلى تلك المدينة.. وشاءت المقادير أن يمر أمام قصر السلطان فى الوقت الذى كانت الأميرات يلقين فيه بالتفاحات الذهبية.. وفوجئ بتفاحة تهبط عليه من السماء فتلقفها. واحتفظ بها.. ليجد نفسه بعد ذلك زوجا لأصغر بنات السلطان.

وراح الحطاب الشاب يتأمل زوجته ابنة السلطان وهى تنطلق معه فى اليوم التالى لأفراح الزفاف.. فى رضا وهدوء.. إلى كوخه الذى أقامه لنفسه على طريق الغابة. ولم يخطر بباله قط أن يذكر لها شيئا عن حقيقة أمره، وإن امتلأ سعادة بتلك القناعة التى أظهرتها بنت السلطان وهى تنطلق إلى الكوخ وتعيش فيه راضية سعيدة، برغم علمها بالغنى الذى غرقت فيه أخواتها مع أزواجهن..

وكانت الفتاة راضية حقا.. ولم تهتم قط لتلك الدهشة التى علت كل الوجوه عندما شهد أهل المدينة زوج الأميرة وهو يحمل الحطب على حماره ويبيعه فى الشوارع والطرقات.

ومرت الأيام..

واتفق الأزواج الستة الذين يتقلدون أكبر المناصب وأعظمها على الاجتماع فى قصر السلطان وإقامة مأدبة يساهم كل منهم فيها بنصيب من ألوان الطعام.

وبلغ نبأ الاتفاق والمأدبة أسماع الحطاب فقال لزوجته:

– سنذهب نحن أيضا لنشترك فى المأدبة ونساهم بلون من ألوان الأطعمة. ولم تعترض الأميرة القنوعة.. وأعدت لونا من الطعام يتناسب مع حالهما وقلة دخلهما وذهبا به إلى القصر. وانضمت الأميرة لأخواتها الجالسات فى إحدى القاعات المذهبة بينما جلس الحطاب مع أنداده أزواج الأميرات الذين قابلوه ببرود شديد وأهملوه وتجاهلوا وجوده.

وعندما حان موعد المأدبة قدمت ألوان الطعام الفاخر الذى جاء به أزواج الأخوات الست.. كما وضع معها الطعام الضئيل الذى أعده الحطاب وزوجته.

وانفجر الرجال ساخرين فى كلمات جارحة وهم يعلقون على الصنف الذى اعتبروه حقيرا ويتعمدون وصول تعليقاتهم الساخرة إلى أذنى الحطاب.

وإذا كان الحطاب قد انزوى وبدا وكأنه لا يسمع ولايشترك فى الحديث بعد ذلك الشعور العدائى الذى أحسه من الجميع.. إلا أنه لحظ أن السلطان نفسه كان أكثرهم احتقارا له واستنكارا لوجوده.

وتمادى الحطاب فى إظهار عدم اكتراثه أو إدراكه لمشاعرهم العدائيةونواياهم الواضحة حتى سمع الجميع يتحدثون فى موضوع آخر ويقررون أن يستضيف كل زوج باقى زملائه يوما من أيام الأسبوع..

ولم يعلق الحطاب بشئ.. فقد كان عليه أن يستضيفهم فى اليوم السابع.

وانطلق الجميع يضحكون للورطة التى وقع فيها الحطاب. وعندما اقترب دوره فى استضافتهم قالوا جميعا للسلطان:

– لابد أن تذهب معنا اليوم إلى بيت الحطاب وهو يستضيفنا.. وسيكون هذا الأمر فرصة للترفيه عنك والضحك والسخرية من حاله..

ولكن الحطاب لم يكن يعير الأمر فى الواقع أى اهتمام. وعندما وجدت زوجته أنه لم يعد شيئا لاستقبال مدعويه لم تستطع أن تخفى قلقها وقالت له:

– سيأتى السلطان هذا المساء ومعه أزواج شقيقاتى.. ماالذى أعددته لتقديمه إليهم؟

وأجابها زوجها فى هدوء:

– سأذهب على الفور إلى الغابة وأقطع كمية أكبر من الأخشاب وسوف أشترى بثمنها طعاما فاخرا نقدمه لهم. وعليك أن تذهبى إلى والدتك وتتوسلى إليها أن تحضر عندنا هى الأخرى الليلة ومعها بناتها الأميرات الست..!

وإذا كان قلب الأميرة قد خفق بشدة واضطراب كبيرين.. إلا أنها كانت تثق فى زوجها رغم فقره.. فأطاعت أمره.. واتجهت الى قصر ابيها لتطلب من الجميع الحضور ..

ولم تكد الزوجة تغادر كوخ زوجها الذى بقى وحده، حتى أخرج الخاتم السحرى لأول مرة وأداره فى إصبعه، وفى نفس اللحظة ظهر أمامه خدام من الجن وقالوا له.

– لبيك سيد الخاتم.. اطلب ماتريد وماتشاء.

وقال الحطاب فى لهجة آمرة:

– اهدموا هذا الكوخ.. وشيدوا مكانه قصرا فخما حجارته من ذهب وفضة وافرشوا القصر بأفخر السجاد وأغلاه. أما الأدوات التى تصنع من النحاس فأريدها كلها من الفضة. وعليكم أن تفرغوا من هذا العمل كله قبل هبوط الليل..

وأدار الحطاب ظهره، وانطلق بحماره إلى الغابة.. وتعمد وهو فى طريقه أن يمر أمام بيوت شقيقات زوجته فى ذهابه وإيابه..

وكان هؤلاء يرونه وهو يسير حاملا الحطب فوق حماره ويحدثون أنفسهم فى سخرية:

– أنه ذاهب ليبيع الحطب الذى سيجهز لنا بثمنه مأدبة الليلة..

وواصل الحطاب سيره. وعندما فرغ من بيع الخشب والحطب عاد إلى بيته قانعا.. ووقف مذهولا.. فما أروع القصر الذى رآه قائما أمامه فى نفس المكان الذى كان الكوخ يقوم فيه.

وبدا الرضا على وجه الحطاب.. وعندما دخل القصر وجد أن شيئين لايزالان ينقصانه.. أولهما عدد كبير من الخدم يقومون بالخدمة فى القصر.. وثانيهما إعداد المأدبة الفاخرة لشقيقات زوجته وأزواجهن والسلطان.

وبدا أن الأمر سهل.. ولم يكن أمامه إلا أن يدير الخاتم من جديد ويأمر الجن بإعداد مايريد

وتم كل شئ فى سرعة خيالية.

وعندما وصل السلطان ومعه بناته وأزواجهن.. عقدت المفاجأة ألسنة الجميع.. وغرقوا فى دهشة وعجب لعظمة التحف والعجائب المكدسة داخل القصر. وراحوا

يديرون عيونهم فى استغراب إلى العبيد الذين كانوا يقومون على خدمتهم.. بينما كانت تنبعث رائحة مغرية من الأطعمة الفاخرة الموضوعة فوق المائدة..

وفتحوا عيونهم كلهم فى دهشة وهم يتأملون مضيفهم الحطاب..

لقد كان يرتدى ملابس غاية فى الفخامة.. ويستقبل مدعويه فى رقة وأدب وتهذيب كبير.. كما كان يقودهم بنفسه بعد نهاية المأدبة إلى حيث اصطف عدد من العبيد يصبون على أيديهم ليغتسلوا ماء معطرا يسيل من داخل أباريق من الذهب..

وعنما حان موعد مغادرتهم القصر وقف الحطاب وهو يقول:

– لقد أقسمت أيها السادة أن تبقوا فى ضيافتى جميها طوال سبعة أيام كاملة.. ولن أتنازل قط عن هذا الرجاء..

وكان على الجميع أن يقبلوا الدعوة وهم يستغربون.. وظلوا فى القصر سبعة أيام شاهدوا فيها مالم يشهدوه من قبل من ألوان الكرم والضيافة.. وقدمت لهم على الموائد ألوان من مختلف الأطعمة مما لم يذوقوا مثلها من قبل قط. كما كانت أصوات الموسيقى الحالمة والأناشيد تملأ جوانب القصر وتضفى على المكان دائما جوا من البهجة والمرح والسحر.

لم تكد الأيام السبعة تنقضى، ويعود الجميع إلى دورهم وهم فى عجب وحيرة من أمر هذا الحطاب الغريب.. حتى كان القصر قد اختفى وحل محله الكوخ الصغير.. وعاد الحطاب إلى سابق عهده، يذهب إلى الغابة يقطع الأخشاب كل يوم ليبيع حصيلة جهده فى المدينة.. وكأن ذلك الأسبوع قد سقط من الحساب أبدا..

ومضت أسابيع أخرى.. ثم سقط السلطان بين براثن مرض خطير لازم من أجله الفراش. وراح أصهاره يذهبون لزيارته للاطمئنان عليه كل يوم .. ولم يتخلف الحطاب هو الآخر عن الذهاب إلى القصر ليعود حماه المريض.. ويبدو أن الأعماق من أصهار السلطان الستة كانت قد بدأت تمتلئ حقدا على الحطاب لما بدا منه خلال أسبوع الضيافة.. فما كان منهم إلا أن قالوا له:

- يجب أن تمتنع عن زيارة السلطان منذ الآن.. فإنك لتذهب فى أرديتك البالية وأسمالك التى تسئ إليه أمام زواره وكبار رجال الدولة.. ومن الخير بغير شك ان تكف عن إيذائه بزيارتك وأن تبقى فى كوخك..

- ماذا تعنون.. ألسنا كلنا أصهاره؟!

وهز كتفيه ومضى عنهم.. ليواصل زياراته للسلطان..

وذات يوم.. بينما جميع أنداده يجلسون حول السلطان المريض دخل الحطاب عليه يسأل عنه. وتأفف الجميع وهم ينظرون إلى بعضهم البعض غير أن الحطاب لم يهتم لهم قط، وجلس إلى جوار سرير السلطان كواحد من الباقين.

وقال السلطان فى صوت ضعيف:

- لقد ذكر لى الأطباء أن شفائى لن يتم إلا إذا حصلت على التفاحة التى تشفى الجراح، وعلى الماء الذى يرد الروح.. فأيكم يستطيع إحضارهما..!؟

وقال لها أصهاره الستة الأعيان فى نفس واحد:

- سوف نأتى لك بهما ياأبانا...

اما الحطاب فقد بدا وكأنه لم يسمع ماقاله السلطان. وعندما بدأوا يخرجون سأل زملاءه عما طلبه السلطان.. فأجابوه فى كبرياء وغطرسة:

- ومادخلك أنت؟ إن هذه الأمور من شأن الكبراء والعظماء وليس للرعاع فيها مكان.

وامتطى المتغطرسون الستة ظهور الخيل. ورحلوا يبحثون عن طلب السلطان..

وراحت الأيام تمضى، وهم يطوفون فى بلاد عديدة، حتى بلغوا فى النهاية مكانا فيه عين ماء.. فاستلقوا بجوارها يتدبرون أمرهم بعد أن عجزوا عن الحصول على طلب السلطان..

فى ذلك الوقت كان الحطاب قد أدار خاتمة وأمر الجن بأن يحضروا له حصانا أخضر ورداء فى نفس لونه. ثم أمر بأن ينقل بالقرب من المكان الذى وصل إليه أصهار السلطان..

وفوجئ الأصهار الستة بأمير رائع الفخامة فى ردائه الأخضر وجواده يقف أمامهم فى عظمة لم يدركوا معها حقيقة شخصيته.. وتوجهوا إليه يسألونه عما إذا كان يستطيع أن يدلهم على المكان الذى يجدون فيه التفاحة التى تشفى الجرح والماء الذى يرد الروح وأجابهم الحطاب المتنكر:

– من السهل بمكان إحضار ماتطلبون. ولكن ماالذى ستعطونه لى مقابل ذلك..

أجاب الجميع:

– سنمنحك الثروة التى تريد..

وهز الحطاب كتفيه وهو يقول.

– ليس للأموال أية قيمة لدى.. ولكنى لن ألبى طلبكم إلا إذا حصلت مقابله على قطعة من آذان كل منكم..!

وكان الطلب غريبا عجيبا.. ولكنهم عندما عجزوا عن إقناع الفارس الأخضر بالتنازل عن طلبه أو استبداله بأى طلب آخر.. وجدوا أنفسهم مضطرين للموافقة..

وقطع الفارس الأخضر جزءا من أذن كل من الأصهار الستة، وأخذ القطع فى صندوق صغير وضعه فى جيبه، ثم طلب منهم أن ينتظروه برهة قصيرة، وابتعد الفارس قليلا حيث اختفى فى مكان منعزل، وهناك أدار خاتمه وطلب من الجن إحضار التفاحة التى تشفى الجراح والماء الذى يرد الروح، وعندما أحضر الجن ماطلب منهم انطلق الفارس به إلى أصهار السلطان وقدم لهم مايريدون.

انطلق الرجال الستة عائدين إلى السلطان يقدمون له ماطلبه. ولكن الحطاب كان قد سبقهم إلى المدينة وارتدى هلاهيله وأسماله وعاد يسوق حماره وفوقه الحطب..

وعندما دخل أصهار السلطان يقدمون له التفاحة والماء..

قالوا له:

– هانحن يامولانا قد أحضرنا ماطلبت.. التفاحة التى تشفى الجراح والماء الذى يرد الروح.

وفوجئوا جميعا بالحطاب يقف بينهم ويردد معهم مايقولون.

فالتفتوا إليه وهم يشتمونه فى سخرية:

- اتجرؤ على رفع صوتك معنا؟ أتريد أن توهم السلطان بأنك قمت بخدمته رغم أنك ماتزال تواصل ذهابك إلى الغابة وتبيع الأحطاب وتمارس مهنتك الحقيرة؟

ولم يفتح الحطاب فمه.. فقد آثر أن يؤجل كلامه إلى فرصة مناسبة.

تقدم السلطان سريعا نحو الشفاء، لولا أن صحته ظلت معتلة بعض الشئ.. وجمع أصهاره ذات يوم وهو يقول:

- إن بى حاجة إلى لبن اللبؤة .. من الذى يأتينى فى قربه من جلد الأسد.؟

وأعلن الجميع استعدادهم لتلبية طلب السلطان. وهنا قال الحطاب لأنداده الستة: ألا تصحبوننى معكم؟

وأجابوه فى غطرسة وكبر:

- كلا.. اذهب أنت إلى حطبك وحمارك.. فنحن نبلاء شجعان لسنا فى حاجة لصحبة من كان مثلك من الرعاع..

وانطلقوا فى طريقهم.. وفى رؤوسهم تدور دوامة عن الوسيلة التى يحصلون بها على طلب السلطان. وخطر لهم آخر الأمر أن يذهبوا إلى عين الماء التى التقوا عندها بالفارس الأخضر الذى حقق أمنيتهم من قبل.

وبينما كانوا قد بلغوا المكان، كان الحطاب قد أدار خاتمه وطلب من الجن فرسا أبيض ورداء من نفس اللون وامتطى الجواد ليقف بعد لحظات أمام الرجال الستة عند عين الماء.

وملأت الفرحة الرجال وقالوا للفارس الأبيض:

- أيها الشريف الشجاع.. أيها البطل الذى لايهاب الأخطار.. ألا يمكن أن تأتينا بلبن لبؤة فى قربة من جلد الأسد؟

وأجابهم الفارس:

– من السهل إحضار ماتطلبون.. ولكن ماالذى سوف تعطونه لى مقابل ذلك؟

قال أصهار السلطان.

– ثروة ضخمة من الذهب والفضة.

أجاب الفارس:

– لاأريد ذهبا ولافضة فلدى منهما الكثير.. ولكن اكشفوا فقط عن أكتافكم..

وأسرع الجميع إلى تنفيذ رغبة الفارس الذى اقترب من أكتافهم العارية وسجل على كتف كل منهم شعاره الملكى بطريقة لاتمحى. وبعد ذلك اختفى عنهم لحظات عاد إليهم بعدها بلبن اللبؤة فى قربة من جلد الأسد.. فأخذوه وانطلقوا مسرعين إلى قصر السلطان.

ووقف الأصهار الستة أمام السلطان يقولون:

– هانحن يامولانا قد أحضرنا لبن اللبؤة موضوعا فى قربة من جلد الأسد.

وفوجئوا هذه المرة أيضا بالحطاب بينهم يردد معهم مايقولون:

وصرخوا فيه بغيظ وحقد:

– الا تخجل أيها الشحاذ الحقير.. يالوقاحتك! هل تجيد شيئا فى هذه الدنيا غير قطع الأخشاب وحملها على حمارك؟ أتجرؤ على رفع صوتك معنا فى حضرة السلطان؟

ولم يرد الحطاب بشىء، وكأن الأمر لايعنيه.

واسترد السلطان صحته ومارس سلطاته تماما كما كان

وذات ليلة شهد الحطاب فى منامه ملاكا يقول له:-

– أترك هذه البلاد فقد انقضت سنوات المذلة والهوان.. عد إلى بلدك وتول مقاليد سلطنتك..

واستيقظ الحطاب مذعورا وهو لايكاد يصدق نفسه. غير أن الرؤيا تكررت لليال ثلاث.. فلم يكن بد من أن يؤمن بصدقها.

وفى الصباح التالى.. حدث شئ عجيب.

وقف المؤذن فوق مئذنة المسجد يصيح فى صوت رهيب:

– أيها الناس.. إن جموعا غفيرة تتقدم من مدينتكم.. فهبوا لردهم وتزودوا بأسلحتكم وحرابكم.. كونوا على أهبة الاستعداد لرد المعتدين..

وبعث السلطان رسله إلى الجموع الزاحفة يسألهم ماذا يبغون من مدينته وأجاب قادة الجموع:

– قد أتينا نبحث عن ملكنا الذى ترك عرش بلادنا منذ مدة طويلة ليشتغل حطابا..!

وإذا كان الرسل قد استغربوا هذا الرد، إلا أنهم أسرعوا عائدين إلى السلطان يحملون إليه النبأ. ودهش السلطان لوجود ملك متنكر بين رعيته فى هيئة حطاب. واضطرب أصهار السلطان الأغنياء وأحسوا ارتباكا وحيرة وجزموا أن هذا الحطاب ليس سوى صهر السلطان السابع الذى يعمل حطابا..

.وكان لقاء غريب عندما استقبلت الجموع الزاحفة الحطاب استقبالا رائعا وحينما اتجهت الجماهير إلى الحطاب الشاب تعلن استمرار ولائها له وتدعوه للعودة إلى الوطن. وأقيمت احتفالات رائعة، فى قصر السلطان حيث دعى الوزراء وقادة الجيوش القادمة من بلاد الملك الحطاب.. الذى كان قد خلع هلاهيله وأسما له ووقف إلى جوار حمية السلطان وزوجته فى ملابس ملكية رائعة.

أما الأصهار الستة الآخرون فقد كانوا لايزالون هناك.. وإن ملأت قلوبهم الأحقاد والحسرات والغيرة..

وقال الملك الحطاب للسلطان بعد أن عانقه..

– ألا تذكر يامولاى.. من الذى أتاك بالتفاحة التى تشفى الجراح والماء الذى يرد الروح..؟

وقبل أن يجيب السلطان.. أسرع أصهاره المتغطرسون يجيبون قائلين:

– نحن الذين أحضرنا للسلطان هذه الأشياء..

وهنا قال لهم الحطاب:

– حسنا.. فلتقتربوا إذن قليلا واتركوا السلطان ينظر إلى آذانكم..!

وتأمل السلطان آذان أصهاره فإذا هى ينقصها أجزاء، وفتح الحطاب صندوقه الصغير وعرض على السلطان قطع الآذان المقطوعة وهو يعاود القول:

– ومن الذى جاءك يامولاى بلبن اللبؤة فى جلد الأسد..؟

وأسرع المتغطرسون وهم لايكادون يخجلون فقالوا فى كبر:

– نحن الذين حققنا رغبة السلطان.

وأزاح الحطاب عن أكتاف الرجال الستة ثيابهم فإذا السلطان يقرأ على أكتافهم خاتم الملك الحطاب واضحا لايمحى.. «الملك محمد بن الملك عبد القادر..»

وانحنى الرجال الستة وعيونهم إلى الأرض.. بينما كان الملك الحطاب يحكى كل ماكان..

ولم يحتمل الرجال نظرات السخرية بهم من الجميع.. فحاولوا مغادرة القاعة فى خجل كبير.. غير أن الملك الشهم تقدم فمنعهم من الخروج من الباب وهو يقول:

– أنسيتم أن كلا منكم عديل لى.. وأن زوجاتكم شقيقات لزوجتى الملكة الحبيبة.. هيا أيها الإخوة.. وليقض الجميع أسبوعا ثانيا فى قصرى ولكن فى مملكتى أنا هذه المرة..

وقد كان..

الفـــــراغ

حكاية من كينيا

لم تكن الغابة فى تلك الأيام التى انقضت منذ بضع مئات من السنين تعرف معنى العدوان قط بين الإنسان والحيوان. ولطالما شهدت الغابة ألوانا عديدة من الصداقة التى قامت طويلا بين كل أنواع المخلوقات التى تعيش على ظهر الأرض، بغير تفرقة، ودون مااختلاف أبدا بين أى من تلك الآلاف العديدة من بنى الإنسان والحيوان.

على أن أكثر أنواع الصداقات توثقا كانت فى الحقيقة بين الإنسان والفيل.

حتى جاء يوم.. هبت فيه العواصف. واشتد البرد، وشمل الزمهرير كل مكان فى الأرض، وكادت أشجار الغابة تقتلع، وبدت أجسام كل المخلوقات وكأنها ستتجمد..

وفى خلال الرعود والعواصف، كان واحد من فيلة الغابة يتحرك فى اضطراب ورعشة. والبرد يكاد يخترق عظامه، وجلده السميك لايكاد يستطيع أن يحميه. ومن خلال نظراته الجامدة، وبينما هو يطل هنا وهناك بحثا عن ملجأ يقية قسوة تلك الليلة، إذ وقع بصره فجأة على كوخ صغير فى طرف الغابة، بابه نصف موارب، وبداخله إنسان يروح ويجئ فى ارتياح وكأن شيئا قط لايعنيه..

واقترب الفيل فى لهفة من الكوخ. فإذا الإنسان يطل إليه من خلال الباب المفتوح ويحييه، ويسأله وكأنه لايدرى مايعانيه:

– لماذا ترتعش هكذا أيها الفيل. ماذا بك؟

واجاب الفيل:

– صديقى الإنسان.. كيف.. كيف لاترتجف أنت أيضا.. ألا تحس هذا البرد الرهيب.. ألا تخترق تلك السهام القاتلة جلدك أو تجمد منك الأطراف؟

وأجاب الإنسان وهو يفرك يديه فى راحة ودفء:

– انا ياصاحبى فى داخل الكوخ الذى بنيته أجد الدفء حيث لادفء لديكم.. وأشعل النار حيث لانار عندكم.

وقال الفيل.

– أما من برد يشد أطرافك أيها الإنسان؟

أجاب الإنسان:

– أو تظنني أكذبك وأغشك.

قال الفيل وهو يزداد اقترابا.

– حاشاى.. غير أنك تثير في قلبي أمنيات شتى.. بأن يتمتع خرطومي على الأقل بذلك الدفء الذي تحسه وتشعر به.. فهلا سمحت لي بأن أدخل طرف خرطومي في كوخك لأحميه من غضب الطبيعة؟

وراح الإنسان يقلب بصره بين باب الكوخ وسقفه.. وبين جسم الفيل الضخم وخرطومه الطويل السميك.. ثم بدأ يتصور ماالذي يمكن أن يحدث لو أن خرطوم الفيل تحرك قليلا وهو بداخل الكوخ فانهار معه السقف والجوانب جميعا. غير أن اللهفة والرعشة التي كانت تأخذ بجسد الفيل جعلت الإنسان يمتلئ شفقة وعطفا على صديقه، فلم يجد آخر الأمر مايمنعه من أن يسمح للفيل بإن يدخل خرطومه من فتحة الباب.. بعد أن ينبهه إلى التزام الحذر الشديد وهو يحركه..

وماكان أشد سعادة الفيل عندما أدخل طرف خرطومه.. ثم الخرطوم كله في فتحة الباب الضيقة. فقد كان الدفء الذي أحسه في فراغ الكوخ شيئا لم يخطر له على بال طوال تلك الليلة الباردة المليئة بالزمهرير. لهذا فقد راح يقدم الشكر دائما لصديقه الإنسان الذي تنازل فسمح لخرطومه بأن يشغل جزءا من تلك الأملاك الخاصة التي أقامها بيديه.. وراح يمنيه باليوم الذي سيعرف فيه كيف يجازيه على ذلك المعروف الكبير.

غير أن لذة الدفء كان لابد أن تشعر الفيل بازدياد حاجته إلى التمتع بما هو أكثر مما تمتع به.. فبدأ يدفع رأسه ليدخل جزءا منه من باب الكوخ. وتنبه الإنسان لتلك المحاولة الخفية.. فأطل إلى صاحبه وهو يقول:

– إنك لتدفع رأسك ياصديقي حتى لتكاد تسقط الكوخ كله.. كن على حذر وحق السماء..

ولكن الفيل كان لايزال يواصل إدخال رأسه فى الباب.. وراح يقول.

– إنما أجرب كيف يمكن أن يكون إحساسى بالدفء إذا أدخلت رأسى كله ليتمتع به.. فالحرارة لاتريد أن تسرى بسرعة فى جسدى.. بل هى تنتقل فى بطء شديد لضآلة خرطومى بالنسبة لجسمى الكبير.. ألست ترى معى أنه من الأفضل أن أدخل رأسى هو الآخر حتى أسهل للدفء أن يسرى بسرعة إلى جسدى.؟

وبدأ الرعب واضحا فى عينى الإنسان وهو يرى سقف الكوخ يكاد ينهار.. بينما الفيل يواصل دفع رأسه ويدخل قوائمه الأمامية فى فتحة الباب.. وصرخ الإنسان فى صديقه:

– انتظر أيها الصديق.. إن رأسك سيطيح بسقف الكوخ.. ولو واصلت الدخول فسينهار كله ويضيع الدفء منا جميعا..

ولكن الفيل لم يهتم لمحاولات الإنسان. بل راح يواصل الدخول فى الكوخ وهو يهتف فى لذة.

– ماألذ الدفء حقا.. ماأجمله وهو يسرى فى جسدى الذى كاد يجمده البرد..

وصرخ الإنسان وهو يحاول دفعه بذراعه.

– توقف أيها الصديق.. لاتتقدم أكثر من ذلك..

غير أن الفيل راح يدخل جسده كله حتى كاد الإنسان أن يختنق وهو يجد نفسه يدفع نحو الجدار فى قوة لايستطيع لها ردا وكان الفيل يقول فى بساطة وهو يدفعه.

ـ كيف تريدنى أن أتوقف ياصديقى الإنسان..؟ أتريد أن ينشطر جسدى..؟ كيف أحتمل أن يكون نصف جسمى دافئا بينما نصفه الآخر يهريه البرد.

وصرخ الإنسان وهو لايكاد يجد لنفسه مكانا بعد:

– ابتعد أيها الصديق.. أكاد أختنق.. إنك تضغط بجسدك الضخم على جسمى النحيل.. لم أعد أستطيع أن أجد مكانا لى.. أرجوك.. أخرج بعض جسدك خارج الكوخ.. فإنك تدفعنى نحو الباب المفتوح حتى لأكاد أعانى البرد وحدى.. أرجوك،، أخرج من الكوخ أيها الفيل.

وتوقف الفيل وهو يسمع إلى ذلك الصراخ.. وقال فى صوت صاخب:

– أخرج.. كيف تريدنى أن أخرج أيها الإنسان اللعين.. ولم لاتخرج أنت!؟

وفوجئ الإنسان.. غير أنه استرد صوابه بسرعة وهتف فى استغراب:

– أخرج !؟ أنا أخرج؟

وقال الفيل فى بساطة غريبة:

– ولم لا؟ إن جلدك أكثر احتمالا من جلدى. وفى قدرتك أن تتحرك وتقفز فتبعث فى أوصالك الدفء، بينما أعجز بجسمى الضخم عن مثل ذلك.. هيا أيها الإنسان العزيز.. أخرج وجرب..

وصرخ الإنسان:

– كيف أخرج من مكانى أيها الفيل وأدعه لك.. إن الكوخ ملكى ومن حقى أن اتمتع بدفئه.. وهو لايكفى لى ولك معا. أليس كذلك..!؟

وأجاب الفيل فى هدوء:

– أيها اللعين.. ولماذا يكون الدفء من حقك أنت.. ولايكون من حقى أنا.. إن الكوخ فى الواقع لايستطيع احتمالنا نحن الاثنين وإنه ليضيق بنا كلينا.. فلماذا لاتخليه لى؟

وهتف الإنسان:

– كيف أخليه لك وهو ملكى؟

وقال الفيل فى برود:

– ولكن جسدى يستطيع ملء فراغه دون مساعدة منك.. وتستطيع أنت أن تخرج وتبقى فى الخارج.. وبذلك تكون قد أكملت معروفك الذى أسديته لى بحماية بشرتى من شر العواصف..!

وأدرك الإنسان أن الأمر لم يعد يجدى مع الفيل اللعين.. فارتفعت عقيرته فى صراخ غاضب ملئ بالاحتجاج والثورة والاستغاثة..

وانطلقت على الصرخات زرافات من الحيوانات جاءت مندفعة من كل مكان.. وإذ وجدت الفيل والإنسان فى ذلك الموقف الغريب توقفت كلها وتجمعت حولهما فى شكل دائرة.. وبينما كان الأسد سيد الغابة يقترب هو الآخر، راحت الحيوانات تفسح له المكان وهى ترفع آذانها وتفتح عيونها لتشهد وتسمع مايكون..

وارتفع زئير الأسد رهيبا حازما:

– ماهذا الضجيج الذى ملأ تم به جو الغابة.؟ أجهلتم أننى ملك هذا الغاب كله، فكيف بأحدكم تبلغ به الجرأة أن يعكر السلام فى مملكتى..!؟

وارتفع صوت الإنسان وهو يخاطب سيد الغابة:

– الحقوق يراد استباحتها فى مملكتك أيها الملك.. وهذا الفيل يجد الجرأة ليفعل ذلك دون أن يخشاك أو يرهبك.

وأطل الأسد فى حدة إلى الفيل.. وفى عينيه تساؤل كبير غاضب. فى نفس الوقت الذى بدأ الفيل يخفض فيه رأسه قليلا، ويقترب من ملك الغابة فى محاولة واضحة للتزلف له واسترضاء كبريائه.

وقال الفيل:

– السلام فى مملكة سيدى لم يعكر أبدا.. وما من أحد يجرؤ على تعكيره.. ولكن كل مافى الأمر أننى أقيم كما ترى فى هذا الكوخ الذى يقع تحت سلطانى الضعيف ولكن هذا الإنسان ينازعنى ملكيته دون حق ويحاول أن يسلبنى أياه.

وزمجر الأسد غاضبا.. وأطل حوله إلى بقية الحيوانات وهو يقول :

– غريب أن يحدث هذا فى الغاب كأنها خالية من القانون. أيها الأصدقاء.. ماالذى ترون فيما يجرى؟

وارتفعت أصوات الحيوانات مختلطة كلها فى صوت واحد.

– لابد من العقاب.. لتنزل العقوبة بالإنسان..

وشعر الملك انه يستطيع بهيبته أن يعيد السلام إلى المملكة.. وأن يستولى على زمام الموقف.. فالتفت إلى الإنسان وهو يقول فى هدوء:

– إننا أكثر عدالة من ذلك.. ولندرس الأمر ونبحث الموضوع كله.. ألا تؤمن بعدالتنا أيها الإنسان؟ وأجاب الإنسان فى استسلام :

– أجل ولازلت أعتبركم كما أعتبر الفيل نفسه من أصدقائى.

قال الأسد فى رضا مشبع بالخبث:

– قد فعلت خيرا دون شك بانضمامك إلى رعاياى وسعيك للحصول على صداقتهم. خاصة ذلك الفيل الذى يعتبر أحد وزرائنا الخمسة الكبار لهذا فنحن لن نظلمك وليبق الحال على ما هو عليه: وماعليك إلا أن تنتظر نتيجة المناقشة والتحقيق.

وأحس الإنسان بالراحة لكلام الأسد الذى أعلن بدء التحقيق والاستعداد لسماع الحجج والبينات.. وطلب أن يتقدم كل من لديه أدلة من شهود النفى أو شهود الإثبات بعد أن يشرح كل من الإنسان والفيل حقيقة المشكلة..

ونهض الفيل ليقول:

– ياسادة الغابة.. لاأريد أن أضيع وقتكم الثمين فى شرح القضية وأنا على ثقة تامة من أنكم تدركون حقيقتها. لقد كنت دائما أرى من واجبى فى الحياة أن أدافع عن مصالح أصدقائى. هذا هو السبب فى سوء التفاهم الذى وقع بينى وبين صديقى الإنسان. فقد طلب منى أن أنقذ كوخه من الأعاصير. وعندما بدأت مساعدته وجدت الفراغ داخل الكوخ يساعد الأعاصير على اقتلاعه وتمزيقه. فرأيت من سلامة الرأى أن أملأ الفراغ ولو ضحيت بشخصى. وكان هذا هو ماحدث. ولو أن واحدا منكم مكانى لما فعل غير مافعلت من أجل الإنسان الصديق ولكن يبدو أن الغدر من شيمه، فقد فوجئت به، وهو يحاول طردى وينازعنى رغم كل مافعلت من أجله..!

وارتفعت زمجرة الحيوانات وقد بدت وكأنها قد اقتنعت بمنطق الفيل المظلوم. وكشر النمر عن أنيابه وهو يطل بغضب إلى الإنسان وقال:

– لست أدرى فى الواقع كيف يجرؤ الإنسان على منازعتنا ويحاول طردنا من

أرضنا. أيحاول أن يتجاهل أننا أصحاب الحق فى كل شئ ينعم به..؟ أيمكن أن يكون قد نسى أنه استعار من كلٰ منا ميزة من ميزات حياته...!؟

وبينما الإنسان يفتح عينيه فى دهشة وهو يستغرب مايسمع.. كان الضجيج قد بدأ يعلو بين مختلف أنواع الحيوانات تؤيد ماقاله النمر وتؤكد ماذكره من أشياء كأنها كانت غائبة عن الجميع من قبل.

ومن أجل أن يسترضى الفيل الأسد ويجتذبه إلى صفه.. ارتفع صوته وهو يهز رأسه قائلا:

– ماأصدق ماقال صديقنا النمر.. ومن أجل أن أؤكد لكم مدى مافى كلامه من حق.. أريد أن أسألكم مخلصا.. أليس أول الأدلة على خرف كلام هذا الإنسان هو أن ذلك الصوت الذى يزأر به فى مواجهتنا مأخوذ من صوت كبيرنا هذا، وزئيره استعاره ليبث به الرعب فى قلوب صيده..!؟

ولم يستطع الإنسان السكوت على هذا الكلام فقال صاخبا:

– ولكنى ماحاولت أبدا أن أثير رعب أحد. حتى هؤلاء الذين يحاولون سرقة كوخى.. استعنت معهم بصبرى وجئت أشكو دون أن استخدم صوتى أو أثبت قوتى.

وارتفع صوت الثور:

– أوه.. تتكلم عن القوة فتأتى بالدليل الثانى الذى نبحث عنه لنؤكد لك أن ميزاتك مأخوذة منا..

وصرخ الإنسان :

– حتى أنت أيها الثور.!

استمر الثور وكأنه لايسمعه:

– تلك القوة التى تتمتع بها.. أليست مأخوذة من قوتى!؟ ألم تمنح إياها لتكون فى خدمتنا وتسوى لنا الأرض وتنمى النبات وتمهد لنا سبل الغذاء!؟

وحاول الإنسان أن يجيب فى هدوء:

– ليكن مايكون.. ومع هذا فما استخدمت هذه القوة ضدكم أبدا ولازلت أتحدث عن السلام واسترداد الحق دون إراقة الدماء..

وهنا صرخ الدب وقد وقف منفعلا على قائميه الخلفيين:

– أنت لاتجرؤ فى الحقيقة على استخدام تلك القوة عندنا لأننا نحن الذى نعطيك هذه القوة فى شكل مساعدات. ولهذا فكن على ثقة من أن قوتك من قش لأنها هى البقايا القديمة والنفايات التى نلقيها عندما نصل إلى وسائل جديدة لتنمية قوانا.. وإذا أردت أن تجرب فتقدم فأنا على استعداد..

ولم يكد الدب يتم كلامه حتى انتفض منطلقا نحو الإنسان وحاول أن ينشب أظفاره فى وجهه. ولكن هذا كان قد استعد لأى هجوم غادر، فانتحى جانبا فى أسرع من لمح البرق مما جعل الدب يسقط على الأرض كأنه جثة ثقيلة تلقى من فوق قمة.. وارتفعت ضجة صاخبة، واختلط هدير الحيوانات وهى تشهد الدم يسيل من منخارى الدب.. وبدأ بعضها يتحفز لينقض على الإنسان الذى لم يكن قد وجد مكانا يتراجع فيه بعد، حين زأر الأسد فى صوت مخيف وهو يتناول عظمة كتف حمار يدق بها أكوام العظام أمامه ويقول:

– أوقفوا هذه المهزلة على الفور وإلا بطشت بكم جميعا..

وبدأت الأصوات تهدأ، وعاد الهدوء يسيطر على المكان من جديد.

وتحول الأسد إلى الإنسان فى صوت ملئ بالإنذار والتحذير وهو يقول:

– كيف تجرؤ على تعكير السلام أمام الجميع أيها الإنسان؟ إن بقدرتى أن أدينك بسبب هذا التصرف المهين ومحاولة إثارة الشغب.. ولكنى مع هذا أنذرك للمرة الأخيرة..

وفتح الإنسان عينيه فى دهشة وهو يجيب:

– ولكنى لم أتكلم.. ولم أطلب مصارعة الدب!

وقال الأسد فى رزانة وثقة:

– أنت أثرته وتحديته.. لهذا فأنت المخطئ وهو صاحب الحق..!

وابتسم الإنسان فى سخرية وهو يهز كتفيه، ثم قال للأسد:

– على رسلك أيها الرئيس.. سمعا وطاعة.. ولكننى أراكم قد تركتم الموضوع الأصلى وهو ادعاء ملء الفراغ لكى تناقشوا أشياء أخرى مثل الصوت والقوة..

وهتف الأسد:

– بل نحن نتحدث فى لب الموضوع.. فإذا كنت تريد أن تكذب الدب، فهل تجد لديك الجرأة لتنكر أن قوتك مأخوذة من الثور ومنه، بل وأن قدميك أيضا أخذتا من شكل قدميه اللذين يتمكن بهما من الوقوف معتدلا فى سهولة ويسر.!؟

وكانت هذه الإشارة من فم الأسد مجالا لعدد أخر من الحيوانات لمحاولة تبرير أن الإنسان استعار منها كل ميزات حياته.. فإذا القرد ينهض ليؤكد أن الإنسان قد أخذ منه شكل قدميه اللذين يتمكن بهما من الوقوف معتدلا فى سهولة، كما أخذ هذا الشعر الكثيف الذى يغطى جسده ويحميه من البرد القارس، وتلك الأصابع الطويلة التى تساعده فى تناول غذائه وتسهل له الحركة والعمل. وإذا النسر يرفرف بجناحيه لينبه الجميع إلى حديثه وهو يقول إن الانسان أخذ عنه مخالبه وأظفاره التى لولاها ماتمكن من قضاء حاجاته وماستطاع أن يمسك بشئ قط..

ولم يطق الإنسان صبرا على هذه الأدلة التى يسوقونها تافهة غريبة.. وهتف متسائلا:

– وهل طلبت منك أظافرك أو منحتها لى بنفسك؛ وهل استجديت منك المعونة حتى تدعى أنك أفدتنى بمساعداتك؟

وقال الأسد على الفور:

– لاتقاطع أيها الإنسان.. ولابد أن تدرك جيدا أن المساعدات الخارجية التى نعطيها لاتحتاج إلى طلب.. وإنما نقدمها نحن بنو الغابة للإنسان حسب مانراه وبقدر مايكون لدينا من فائض عن الحاجة لانجد مايمنعنا من التنازل عنها.

وهتف الإنسان:

- أنتم لاتقدمونها بالفعل إلا إذا وجدتموها مستهلكة عديمة القيمة فبدل أن تلقوا بها كما تلقى النفايات، تلقون بها فى هيئة مساعدات للمفاخرة علينا وخديعتنا. وإلا فقل لى ماقيمة هذه الأظفار إلى جانب تلك المخالب!؟

ووجد الأسد فرصة جديدة مواتيه.. فقال فى تحد:

- هل أنت على استعداد إذن للتنازل عن مساعداتنا الخارجية؟

وأشاح الإنسان بيديه وهو يعلنها قوية صريحة أنه ليس بحاجة إلى أى من مساعداتهم.. ولم يكد يتم قوله حتى نهض الثعلب فى تؤده وخيلاء وراح يقول:

- دعنى له أيها الرئيس فأنا على استعداد لقبول التحدى. ولكنى فى هذه المرة سأسترد منه كل مساعداتى التى منحتها إياه.. هل تعلم أيها الإنسان ماهى.؟ إنها الذكاء والمكر والحيلة أيها الغبى.. لقد كنت أملك أن أتركك تماما كالحمار الذى يحمل اثقالا، لكننى قدمت لك عن طيب خاطر بعض ما أتمتع به من ذكاء ومكر ودهاء.. وهى أول ماكان يجب أن تملكه خلال حياتك الطويلة على ظهر الأرض.

وبينما الإنسان يطل حوله باحثا عن منفذ.. إذ بالأسد يطل إليه فى سخرية وهزؤ وهو يسأله إذا كان لايزال مصمما - بعد أن ثبت أمام الجميع أن المساعدات هى أساس كل حياته - على المطالبة بما يدعيه من حقوق قبل الفيل الذى تنازل فملأ الفراغ من أجله. وعاد الإنسان يؤكد تصميمه على التمسك بحقه والمطالبة بإخراج الفيل من الكوخ.

وأعلن الأسد أنه باسم الجميع لايرى بأسا فى إعادة الحقوق لأصحابها، ولهذا فقد قرر أن يترك الأمر لمجلس من أمناء الغابة للتحقيق والبحث وإصدار القرار المناسب.

وشعر الإنسان بشئ من الراحة وهو يستمع إلى القرار، غير أن شيئا ماأثاره عندما كلف الفيل تبليغ الدعوة الرسمية لأعضاء المجلس الخمسة، فانطلق إلى الأسد وهو يعترض ثائرا:

- انا أحتج.. فكيف يتولى الفيل وهو أحد طرفى الخلاف مهمة الاتصال بأعضاء المجلس، فتتاح له الفرصة بذلك لإقناعهم بوجهة نظره..!؟

ولم يكد الإنسان يعلن احتجاجه، حتى ثار الفيل مطالبا برد الشرف على تلك الإهانة التى تتهمه فى ذمته وأمانته. ورفع الأسد إصبعه محذرا وهو يقول للإنسان:

– أرأيت أيها الإنسان كيف بلغ ظلمك وحقدك.. ومع هذا فأنا أرجو الفيل أن يتنازل عن دعوى القذف بصفته أحد كبار الغابة الخمسة.. ولنترك الأمر حتى ينتهى مجلس الأمناء من محاولات التوفيق..!

اجتمع مجلس أبناء الغابة برئاسة الثعلب الذى يعتبر خير من يدير مثل هذه الجلسات. وجلس الثعلب فى مكان الرئاسة على قاعدة شجرة مقطوعة الساق، ومن حوله الدب والنمر ووحيد القرن والثور جالسين بترتيب، وأمامهم الإنسان يقف وحيدا فى جانب بينما الفيل فى جانب آخر. ومن خلفه عشرات من مختلف أنواع الحيوان.

ولم تكد الجلسة تبدأ انعقادها حتى أبدى الإنسان اعتراضه على طريقة تشكيل المجلس، وطلب ضم عضو واحد من بنى الإنسان إلى الأعضاء..

ورفض رئيس الجلسة الطلب الذى اعتبره مستحيل التنفيذ. وعندما طالبه الإنسان بذكر الأسباب كان الجواب الوحيد:

– لايوجد بين بنى الإنسان من يحوز ثقافة تجعله قادرا على تطبيق قوانين الغابة..

واعتبر النمر الاعتراض على تشكيل المجلس طعنا فى نزاهة أعضائه، فزمجر مهددا.. تماما كما زمجر من جديد عندما حاول الإنسان الاعتراض على دعوة الفيل للإدلاء بأقواله قبله بحجة أنه المجنى عليه. وقال الثعلب يضع حدا للاعتراض:

– إن الأمر واضح أمام الجميع.. فالفيل يقيم كما هو ظاهر لنا فى كوخه. وأنت تطالبه بالخروج وتدعى أن الكوخ لك وتحاول طرده، فمن حقه هو أن يبدأ الكلام..

وتقدم الفيل فى خطوات ثابتة تدل على الثقة والاعتداد بالنفس، ثم بدأ يتكلم فى تؤدة:

– أيها السادة.. القضية ثابتة والحق واضح.. وقد ذكرت من قبل أمام أبناء الغابة جميعا كيف طلب منى الإنسان أن أساعده عندما كادت العواصف تقتلع كوخه. وقد وجدت من صواب الرأى واستجابة لدواعى النجدة والمروءة أن أملأ الفراغ الذى كان لابد أن يطيح بالكوخ وقد أجهدت جسدى بالفعل لأحقق للإنسان أمنيته وملأت من أجله فراغ الكوخ.. ألا أكون بذلك قد أسديت لصديقى الإنسان معروفا أستحق عليه المكافأة والتقدير!؟

والتفت الثعلب إلى الدب يسأله رأيه. فقال الدب:

– لست أدرى كيف لايعترف الإنسان دائما بما يسديه إليه الحيوان من صنيع. إنه يظل يشكو الجوع. وتترك له الحيوانات غذاءها بل وتضحى من أجله ببعض أجسادها من أجل أن يعيش. ولكنه لايكاد يأكل حتى يتنمر. ويحاول مطاردة الذين أطعموه وقدموا له يد العون..

وانتفض النمر فى مكانه.. ووجه الحديث فى عنف إلى الدب:

– كيف تقدم أيها الدب على إهانتى.. أتراني عديم الشرف إذ أطارد الذين يطعموننى ويقدمون لى يد العون..

واعتذر الدب فى سرعة.. فما كان لديه أى استعداد لمنازلة النمر.. وعندما اقتنع النمر بأن الأمر لم يكن أكثر من انزلاق لسان.. عاد إليه الهدوء.. ثم بدأ يدلى برأيه:

– إن القضية كما أراها ذات وجهين. مساعدة طلبها الإنسان من الفيل فأداها له. وإهدار للقيم من جانب الإنسان بعد أن بذل الفيل من أجله كل شئ حتى الجسد.

واعتدل وحيد القرن فى مكانه وهو يقول:

– الفراغ هو المشكلة الأبدية.. وقد ملأه الفيل لمصلحة الإنسان فلا جريمة هناك..

وهز الثعلب رأسه.. ثم التفت إلى الإنسان وسمح له بالدفاع عن نفسه.. وتكلم الرجل:

– هذا الكوخ ياسادة ملكى قطعت الأشجار لأصنع من خشبها جدرانه. حفرت الأرض لأغرس فى أعماقها جوانبه. بذلت الجهد والعرق لأشيده وأبنى سقفه وأقيم

بابه. وعشت فيه وحدى أتمتع بالدفء وحق الموطن. ثم جاء هذا الفيل فوجدته يصطك من البرد. وعطفت عليه وسمحت له بالتمتع بالدفء لأنى أؤمن بالمساواة، ولكنه استغل طيبتى ودخل بكل جسده ثم أخرجنى من موطنى. وأنا أطالبكم بأن تكون العدالة نبراسكم فتعيدوا الحق لصاحبه..

وبينما كان الإنسان يسترسل فى دفاعه. كان أعضاء المجلس يقاطعونه ويطالبونه بعدم الخروج عن الموضوع، وألا يستعمل ألفاظا براقة ليست بذات قيمة فى شريعة الغابة مثل حق الوطن والعدالة والمساواة .

وأسكته الثعلب آخر الأمر وهو يقول:

– لقد سمعنا أقوال الخبراء والعارفين لمثل هذه الأمور التى لاتعرفها أنت.. وكل مانريد أن نسمعه منك إجابة على سؤال محدد حول هذا الفراغ الذى كان فى كوخك.. هل كان خاليا أم كان يحتله أحد آخر قبل الفيل؟

ولم يكن أمام الإنسان إلا أن يستسلم للواقع ويعترف به.. ولكنه حاول أن يفسر خلو المكان قبل أن يملأه الفيل بأن وجود الفراغ لايعنى قط أن يأتى سواه بحجة ملئه.

وأثار الرد سخرية وضحكات عالية من أعضاء المجلس. انتهت بإعلان الرئيس تأجيل الجلسة لاستراحة قصيرة..

وشغل أعضاء المجلس خلال الاستراحة بتبادل طعام دسم من اللحم الممتاز جاء به الفيل، وحمله إلى الأعضاء فى خرطومه. وعندما انتهى الأعضاء من تناول الغذاء والتهامه فى سرعة ولذة، عادت الجلسة للانعقاد، واستدعي الإنسان لسماع نص القرار الذى صدر بإجماع الآراء:

وراح الثعلب يعلن قرار المجلس:

– نحن نعتقد أن النزاع وقع بسبب سوء تفاهم مؤسف يرجع إلى ضعف وتأخر فى تفكير الإنسان. لقد قام الفيل بواجب مقدس دافع فيه عن مصلحة الإنسان إذ أن

ملء الفراغ فى كوخه إنما هو عمل مفيد جدا. وحيث إنه لم يكن فى وسع الإنسان وحده أن يملأ هذا الفراغ.. فقد قررنا فرض تسوية ترضى الفريقين دون إدانة أحد..

وسكت الثعلب قليلا بينما انتبه الإنسان فى لهفة إلى نص قرار التسوية الذى راح الثعلب يلقيه فى هدوء وتؤده.

– ليستمر الفيل فى ملء الفراغ فى كوخ الإنسان.. وقد سمحنا للإنسان بالبحث عن مكان آخر يستطيع أن يقيم فيه كوخا جديدا يتفق مع حاجته. أما المجلس فسوف يهتم بحماية الكوخ الجديد ويملأ فراغه بالطرق التى يحددها القانون..

عندما صدر حكم مجلس الأمناء.. لم يجد الإنسان قدرة لديه على الاعتراض، خاصة عندما أحس بأن أعضاء المجلس على استعداد كامل لاتهامه إذا أعلن رفضه.. ولم يكن امامه بد من أن يعلن موافقته وأن ينصرف إلى سبيله.

وانطلق الإنسان إلى الغابة يبحث عن مكان خال يقيم عليه كوخه الجديد. وراح يجمع الأخشاب ويحفر الأرض ويقيم الكوخ فى سرعة مذهلة، فقد كانت الريح تصفر دائما والعواصف تعود لاجتياح المكان.

وانتهى آخر الأمر من إنشاء الكوخ.. وراح يعده للاقامة والمبيت..

غير انه فوجئ فى نفس اليوم بوحيد القرن يقتحم المكان.. ويملأ فراغ كوخه.. ويأمره بمغادرته والبحث لنفسه عن مكان جديد..

وانطلق الإنسان يصرخ ويشكو..

وعاد مجلس الأمناء للاجتماع.. ولإصدار قرار آخر لايختلف فى كثير عن قراره الذى اصدره يوم مشكلة الفيل..

وراحت الأيام تمضى..

والإنسان يقيم كل يوم كوخا.. لتتكرر معه نفس القصة.. فلايكاد ينتهى من إعداد كوخ جديد حتى يفاجأ بواحد من حيوانات الغابة ينطلق إليه، ويقتحمه، بحجة ملء الفراغ.. حتى كادت الحيوانات كلها أن تجد لأنفسها جميعا أكواخا تقيم فيها.. بينما الإنسان لايجد مأمنا قط..

وضاق الإنسان ذرعا بالحياة. وقرر أن يهجر الغابة.. ولو فقد كل شئ..ولم يكن أمامه قبل أن يمضى إلا أن يمارس أخر تجاربه مع مشكلة الفراغ..

وراح الإنسان يعمل من جديد لاقامة كوخ أضخم من كل ماشيد قبل ذلك من الأكواخ. ولكنه فى هذه المرة بالذات كان يتبع نظاما جديدا فى طريقة البناء.. فقد قسم الكوخ من الداخل إلى أربعة أقسام يفصل كل غرفة منها جدار من القش، وينفتح لها باب إلى الخارج نحو جهة مختلفة عن بقية الأبواب فى الجهات الثلاث الأخرى..

وعندما انتهى الإنسان من تشييد الكوخ الكبير.. جلس أمامه فى انتظار القادم الجديد..

وكان الأسد نفسه يمر فى ذلك الوقت بالمكان.. وأطل فإذا الإنسان يبدو وكأنه يتحدث إلى نفسه. واقترب منه وراح يسأله فيم وقوفه وحيدا بغير أصدقاء ولامحبين. وقال الإنسان وهو يبدى الترحيب الكبير بملك الغابة:

– كل أصدقائى ياسيدى وجدوا أكواخا يملأون فراغها. لم يعبأ واحد منهم بصداقتى ووجدوا دائما السبيل إلى الأحكام العادلة التى تصدرونها مع مجلسكم الموقر الذى يفيض عدلا ورحمة.

وكان الأسد فى ذلك الوقت قد أبصر بالكوخ الجديد، فالتفت إلى الإنسان وهو يقول:

– ولكنى أراك تواصل جهودك لبناء كوخ جديد. وإن كنت أراه اليوم أكثر ضخامة من الآخرين..

هز الإنسان رأسه وهو يجيب:

– ذلك لأنى صنعته من أجلك أنت نفسك ياسيدى. وبالقدر الذى تستحقه كملك لتلك الغابة كلها. على أنى قد قررت منذ الآن الا انازعك بل أهديه لك أنت وحدك.. فإنى اكبرك من أن ادخل معك فى صراع..

وكأنما الأسد كان فى انتظار تلك اللحظة.. فقبل أن ينتهى الإنسان من كلامه، كان الأسد قد انطلق دون انتظار ليدخل من أحد أبواب الكوخ.. بينما كان الرجل قد بدأ يفرك كفيه فى ارتياح.

ونهض الإنسان من مكانه واتخذ مجلسا آخر فى مواجهة الباب الثانى من أبواب الكوخ. ولم يكد يفعل حتى كان وحيد القرن يقترب من المكان. وإذ لمح الإنسان جالسا أمام الباب أبطأ فى سيره فى انتظار أن يجد فرصته لاقتحام الكوخ الجديد.

غير أن الإنسان كان يتمنى أن يدعوه.. فناداه فى بساطة وترحيب وقال له:

– تحية للزعيم الأوحد الذى أكرمنى ولم يحرمنى قط حقى فى التعبير عن رأيى. مرحبا بك فى كوخى الجديد، الذى أعددته خصيصا لك.. أهلا بك.. تفضل بالدخول من هذا الباب الذى جعلته واسعا من أجلك.

واندفع وحيد القرن من الباب الثانى، بينما كان الإنسان ينهض من مكانه ليتحول إلى الجانب الثالث من الكوخ. وفى تلك اللحظة كان الدب والنمر يتمشيان فى الطريق.. وقبل أن يتكلم الرجل كان الوحشان قد اندفعا فى سباق صاخب نحو البابين الآخرين..

وكانت مفاجأة للرجل.. فما تصور أن خطته ستنجح بمثل هذه السرعة قط..

غير أنه انتبه إلى نفسه بعد لحظات، وانطلق إلى العمل..

وكان مافعله الإنسان غاية فى البساطة.. فقد اقترب من أحد جوانب الكوخ، وجذب لوحا من الخشب.. ولم يكد يفعل حتى سقطت الجدران الأربعة الداخلية المصنوعة من قش.. وفوجئ الوحوش الأربعة بأنفسهم وجها لوجه داخل الكوخ الواسع العريض..

وراح الإنسان يطل من بعيد.. ليشهد المعركة الرهيبة من أجل امتلاك الكوخ وملء الفراغ الكبير..

وكان أول ماقطع السكون زئير الأسد الرهيب:

– أهكذا تفعلون مع كبيركم ياخونة.. كيف تدخلون كوخ زعيمكم وهو ملكى وحدى..

وزمجر النمر:

– أنت الذى تعتدى على يامالك الغابة.. ولكن احذر غضبى.. فإنى استطيع أن أبطش بك إذا لم تغادر الكوخ على الفور..

وارتفع صوت وحيد القرن:

– أراكما تتنازعان على شئ لاعلاقة لأى منكما به.. مالكما وهذا الكوخ.. إنه ملكى أنا وقد وجدته فارغا فملأته.. وأصبح من حقى أنا وحدى..

وصخب الدب وهو يضرب الأرض بأقدامه:

– المكان ضيق.. وأنا أول من دخل الكوخ.. ارحلوا جميعا قبل أن يثور بكم غضبى..

وفى الوقت الذى ارتفع فيه صوت القتال داخل الكوخ.. كان الإنسان ينطلق ثائر وفى يده عود من العشب الجاف يشتعل نارا، وقربه من جوانب الكوخ الكبير. وبينما النيران تسرى بسرعة فى الخشب المختلط بالقش كان الإنسان يسرع من جديد إلى كل أكواخ الغابة.. يشعل النار.. ويشهد بقية الحيوانات التى احتلتها وهى تهرع هاربة إلى أعماق الغاب.. والنيران تلتهمها..

وكان الرجل يهتف صاخبا وهو يجرى هنا وهناك:

– إذهبوا أيها الأوغاد.. إلى الجحيم.. فالنصر لى فى النهاية.. لتحترقى أيتها الوحوش الضارية، ولترفعى ألسنتك أيتها النيران.. فما كان للحرية أن تضيع، وماكان للحق أن يموت.. من أجل سلام زائف كذوب.

الفرس العجوز

حكاية من كينيا

ضاق ملك الثعابين ذات يوم بحيات الغابة، وأخذت به رغبة فى الزواج من إحدى بنات البشر. وكان يستطيع الذهاب إلى المدينة والزواج من أى فتاة يريد. غير أنه كان يعتبر نفسه ملك الغابة كلها، فأنف إلا أن يبحث عن أجمل الفتيات وأكثرهن سحرا. وإذ سأل عن العروض التى تتفق ورغبته، عرف أن خير الفتيات هى الأميرة «فاتيما» أكبر بنات ملك الغرب، وأقربهن إلى قلبه الكبير.

وقرر ملك الثعابين أن يستعمل قوته السحرية التى منحها له الإله «ويندى» للوصول إلى بغيته. واختفى تحت ظلال شجرة معينة يعرفها فى الغاب وتلا الصيغة السحرية بينما هو يبتلع إحدى ورقات الشجرة. وفى لحظة استحال إلى أمير شاب جميل، يرتدى أفخر الثياب، وبالقرب منه جواد رائع وسيم..

شئ واحد كان يستطيع أن يكشف حقيقة الأمير الشاب لأى امرئ له بعض إلمام بالسحر.. هو ذلك البريق العجيب الذى يشع من عينى الأمير الشاب.. فقد احتفظ من الثعبان بأعمق غرائزه.

وانطلق الأمير الشاب إلى القصر، وهو يحدث نفسه بأن جماله ووسامته جديران بأن يسلبا عقل الأميرة، حتى ولو كانت جامدة القلب عسيرة المنال.. غير أن «فاتيما» لم تكن عسيرة المنال قط.. فكم تمنت أن تتزوج حتى تترك بلاط أبيها الذى يعامل بناته وكأنهن سجينات بين جدران القصر الذى لايدخله شاب قط. ولذلك فإنها لم تكد ترى الأمير حتى ملأتها سعادة غامرة وأحست كأن أحلامها قد بلغت منتهاها. ولقد عرف الأمير كيف يستميل قلوب كل أهل القصر.. حتى الملك الذى اشتهر بحدته وغلظته.. عرف الأمير كيف يتكلم معه برزانة وجد.. جذبته فيه وحببته إليه.. بينما كان مع الأميرة نفسها، يرقص ويغنى ويهزل، ويصنع كل مايستهوى قلوب الفتيات..!

وقبلت فاتيما زواجها من الأمير.. ومااهتمت قط لاعتراضات أمها التى راحت تحاول أن تقنعها بالتروى فى قبول الزواج من أمير مجهول لايعرف أحد عن مملكته

شيئا.. فقد كانت وسائل الإقناع التى راح هو يصبها فى أذنيها تغطى دائما على كل ماتسوق أمها من حجج.. حتى تم الاحتفال بالزواج.

وبينما الأميرة تستعد للانطلاق مع زوجها إلى مملكته البعيدة.. دعتها أمها إليها فقبلتها.. ثم قالت لها:

– لكم تمنيت يابنتى ذلك اليوم.. غير أنى أعجب للأمير الذى يرفض أن يكون بصحبتك أى فتاة من وصيفاتك. أو ضابط من حرّاسك المخلصين. إنه يرفض أن يكون معه أحد سواك.. حتى الحلى والذهب والمال. والقطعان الكثيرة التى أصبحت لك يوم زفافك.. كل هذه الأشياء لايريد الأمير أن يأخذها ويقول إنه لاحاجة له بها أبدا..

وكان الملك قد جاء فى تلك اللحظة.. فراح يهدئ من روع زوجته وهو يقول:

– إن الأمير لايريد هذه الأشياء جميعا لأنه يملك أن يعطيها فى مملكته أكثر مما نستطيع منحها نحن وأفضل.

غير أن ذلك الشك بدأ يتسرب إلى قلب فاتيما.. وملأها قلقا مجهولا راح يدفعها إلى مراجعة عقلها وعواطفها، ويجعلها تتمنى لو تستطيع أن تنكث بالعهد. وبينما الدوامة تدور فى أعماقها، دخل الأمير فى ضجة لم تترك لها مجال تفكير.. إذ اندفع إليها فحملها بين ذراعيه.. وأبعدها فى سرعة غريبة عن أمها التى أسرعت خلفهما.. وراحت تتوسل إلى الأمير أن يسمح لعروسه بأن تأخذ معها شيئا واحدا يذكرها بأهلها وبلادها. وعرض الملك أن يعطيها أحد جياده ليكون مطيتها فى السفر، ويكون وسيلة لنزهاتها وصيدها عندما تبلغ بلاد زوجها الحبيب..

ولم يجد الأمير وسيلة لرفض الهدية.. وانطلقت الأميرة إلى الحظيرة تتخير جوادا من بين الجياد الخمسين التى تعمرها.

وكانت الجياد كلها جميلة رائعة.. وإذ حيرها الاختيار قررت أن تجرى قرعة بينها جميعا.. فأمسكت بمخلاة الذرة وراحت تحركها إلى يمين ويسار، وقد قررت أن تختار أول من يتقدم من جياد الحظيرة.

ولم تكد الأميرة تحرك المخلاة حتى انطلقت إليها فرس عجوز.. هى أم كل الجياد الخمسين..!

وهزت الأميرة كتفيها وقررت أن تعيد القرعة. غير أن أمها اعترضت وهى تقول:

– كلا ياابنتى.. أن الإله ويندى يكره الإعادة.. وعليك أن تقبلى نصيبك..

قالت فاتيما:

– ولكنها قبيحة المنظر تصطك ركبتاها عند كل خطوة تخطوها.. وحتى فمها تنقصه الأسنان.. فلا تصلح أبدا لأن تكون مطية ملكة..

قالت الأم:

– لاتغترى بالظواهر.. وتأكدى أن القدر يحسن الاختيار..؟

وأذعنت الأميرة.. وقبلت الفرس العجوز..

وكان وقت السفر قد حان.. واقتيدت الفرس بعد أن وضع عليها سرج من القطيفة الموشاة بالذهب، واقترب الأمير ليساعد عروسه على الركوب .

وهنا.. فى تلك اللحظة بالذات.. أجفلت الفرس ونفرت نفورا شديدا كادت الأميرة معه أن تسقط على الأرض..!

وملأ التشاؤم كل أهل القصر.. وأحس الأمير قلقا خفيا جعله يطلب استبدال الفرس. غير أن الملكة التى كانت تكره التغيير أقنعته بأن الفرس ظلت تعيش حبيسة فى الحظيرة زمنا طويلا.. مما جعلها تجمح لدى خروجها لأول مرة بعد كل ذلك الزمن الطويل.

وركبت الأميرة فرسها.. وامتطى الأمير جواده.. وانطلقا معا فى سرعة مرعبة.. كإعصار يتوارى فى خلال المجهول..

وظل الأمير وعروسه ينهبان الأرض طيلة اليوم.. حتى بلغا آخر الأمر حدود الغاب الكبير الذى يبدو من مملكة الجنوب خطا قائما فى الأفق لاحد له . وطلب الأمير من عروسه أن تنتظره حتى يعود.. ثم انطلق بين الأشجار لينفرد بنفسه ويتلو الصيغة السحرية، ويعود سيرته الأولى.. ثعبانا هائلا كالفيل.

وشعرت فاتيما فجأة بالفرس ترتعش تحتها. فربتت بكفها فى حنو على رقبتها وهى تقول وكأنها تخاطبها:

– ماذا دهاك أيتها الفرس العزيزة..؟ إنك تنضحين عرقا باردا غزيرا.. فهل يكون طول الطريق قد أعياك وأجهدك؟ ومع ذلك فما أسعدنى باصطحابك.. فقد بذلت من الجهد خلال ذلك الطريق الطويل مالم أكن أتصور أن تبذليه.. ولقد غرتنى الظواهر من قبل حتى ظننتك تعجزين عن المسير..! آلا ماكان أصدق أمى وهى تطلب منى آلا أغتر بالظواهر.!

وفوجئت الأميرة بالفرس العجوز تجيبها فى صوت رقيق حزين:

– إن هذا مع الأسف ماصنعته وتصنعينه الآن إذ تسيرين مع الأمير زوجك..! لـ.. خدعك مظهره فلم تعرفى أيتها المسكينة أنك تزوجت وحشا ضاريا.. إنه ثعـ.. ضخم.. تنين هائل.. استطاع بمهارته السحرية أن يستحيل بشرا ليخدعـ.. فتتزوجينه..!

وندت عن الأميرة صرخة هائلة يملؤها الرعب.. وهتفت :

– ثعبان.. تنين.. ماذا تقولين؟؟

وهزت الفرس رأسها وهى تقول:

– أجل ياابنتى.. لقد وقعت فى شراك مجرم محتال لن يرحمك أبدا. وهتفت الفتاة:

– كيف السبيل الآن إلى الفرار والعودة إلى أهلى.. رحماك أيتها الفرس الصالحة.. أعيدينى إلى قصر أبى بأسرع مما يبرق البرق قبل أن يعود التنين فيجرى بى إلى أعماق الغاب..

وانطلق من بين شفتى الفرس صوت ساخر:

– وكيف أستطيع أن أسرع بك وقد قلت عنى من قبل أننى قبيحة المنظر تصطك ركبتاى حتى لأعجز عن الجرى قط..!؟

وبكت الأميرة وهى تتوسل وتستعطف وتقول:

– لا.. لاتلومينى. حنانيك أيتها الفرس العزيزة..!

وأشفقت الفرس العجوز على الأميرة الباكية.. واستعدت للهرب بها بعيدا عن موطن التنين.. غير أنها قبل أن تمضى طلبت من الأميرة أن تقبض بشدة على ذؤابتها فلا تتركها ابدا.. ونبهتها الا تضرب جنبها بالمهاز حتى ولو كان التنين بسبيل أن يلحق بهما، لأنها لو فعلت فستطير بها فى الهواء إلى حيث المجهول..!

وصرخت فاتيما تستحثها:

– أسرعى إذن أسرعى.. إنه قادم.. هاهو يقترب منا.. ألاتسمعين؟

وكان الثعبان الهائل قد خرج فى تلك اللحظة من بين شجرات الغاب يتلوى ويفح ويبسط حلقاته الجبارة على الأرض. وأسرعت الفرس تسابق الريح وحوافرها لاتكاد تمس الأرض.

غير أن الثعبان كان أسرع من الفرس فى اجتياز الحقول .. وكان لسانه يمتد فى فحيح كالرعد.. وعيناه ترسلان الشرر وتومضان فى غضب عنيف مجنون.

وصاحت فاتيما وقد أذهلها الرعب:

- سيدركنا.. إنه يقترب منا..!

ولم يكن لدى الفرس من الوقت ماتضيعه فى تشجيع الأميرة الصغيرة.. بل راحت تزيد من سرعتها وتجتاز من الطريق فى ساعة مايستغرق عدو يوم كامل.. وظلت منطلقة فى سرعتها المذهلة حتى بدت لها من بعيد مملكة الغرب وراء نطاق من الظلام.. وعرفت الأميرة أنه لم يعد أمامها للوصول أكثر من ساعة أو بعض ساعة..

وفجأة.. شعرت الأميرة بلفحة ساخنة كالنار فوق رأسها.. فقد كان التنين الهائل يتقدم فى سرعة ويهبط فوق رأسها ليختطفها. وأحنت الأميرة المسكينة رأسها وهى تصرخ فى رعب وفزع. وفى خلال الرعب نسيت نصيحة الفرس.. ولكزتها بالمهماز

فى جنبيها بقسوة صاخبة.. وأحدث صرير المهماز فى جلد الفرس دويا يشبه قصف الرعد.

وفى لحظة.. كانت الفرس ترتفع فى الهواء.. وتخترق السحب.. وكأنها تسبح فى لجج من الأمواج.

وأغمى على «فاتيما».. فلم تحس بالصدمة الهائلة التى اصطدمتها الفرس بالسماء.. ولا بالهبوط السريع الذى هبطته نحو الأرض..!

غير أنها عندما أفاقت.. وأطلت حولها.. لم تجد غير حقول خضراء واسعة تحيط بها من كل جانب، لاتشبه من قريب أو بعيد مملكة أبيها الحبيبة. ونظرت أمامها.. ولكن شيئا من سطوح العاصمة لم يبد لها قط.. فما كان هناك شئ مألوف يحيط بها على الإطلاق.. كل شئ بارد غريب.. غارق فى المجهول..

وأحنت الأميرة رأسها تستنجد بفرسها العجوز.. غير أن الفرس كانت هى الأخرى قد انغرست بكل قوائمها الأربعة فى الأرض لعنف الصدمة.. وكانت عيناها تنفثان شررا..

وخاطبتها الفرس وهى تقول فى قسوة:

– لماذا فعلت ذلك.. أما أنذرتك الا تلكزينى بالمهماز مهما بلغ بك الأمر؟

وبكت الأميرة وهى لاتعرف كيف تجيب.. واستمر بها البكاء صاخبا هادرا حتى رق لها قلب الفرس.. واختفى من عينيها الشرر المجنون.

وأطلت الفرس فى حزن إلى الأميرة الباكية وهى تقول:

– كفى عن البكاء الآن يابنتى.. فهو لن يجديك نفعا قط.. وأولى بك أن تنهضى فتنظرى مايحيط بنا.. لندرك أين نحن.. وكيف يمكن أن نعالج أمرنا.

وتنفست فاتيما الصعداء.. وترجلت من فوق ظهر الفرس، وراحت تخطو فى حذر وهى تطل أمامها.. ثم توقفت فجأة وقد رأت فى مواجهتها بضعة أكواخ ضئيلة قصيرة لانوافذ لها على الإطلاق.

وراحت فاتيما تطل بعينيها، وتدير بصرها فى كل مكان.. فأخذ بها العجب ألا ترى أحدا من السكان. وازداد عجبها وارتعشت عندما ضرب أذنيها فجأة صوت دقيق ضئيل يسأل؟

- من هناك؟

وأجابت فاتيما فى رجفتها.. وهى تحاول معرفة مصدر الصوت:

- أنا أميرة تائهة فى ذلك المجهول بعيدا عن بلدى وأهلى.. أطلب مأوى وغذاء لى ولرفيقتى العجوز..

وسمعت الصوت يقول:

- ومن هى رفيقتك تلك؟

أجابت فاتيما:

- هي فرستى.. أرادت أن تنقذنى من بلاء أحاط بى.. فحملتنى إلى هذا المكان.

قال الصوت:

- كان أولى بها ألا تأتى بك إلى هنا. فحاكم هذا البلد ملك يخشى النساء ويكرههن.. ويأمر بقتل كل أجنبية تطأ أرضه.. وأنت بمجيئك هنا إنما تسلمين نفسك لموت محقق رهيب..

وصرخت الأميرة صاخبة:

- موت.. موت.. أين يمكن إذن أن أختبئ؟ أواه.. ماذا جئت أبتغى فى هذا المكان.!

وفى هذه اللحظة سمعت صهيل الفرس فانتبهت، وسمعتها تسألها عمن تحدثها فقالت:

- لست أدرى.. إننى أسمع صوتا ولا أرى أحدا.. تعالى أيتها الفرس نخرج من تلك الأدغال المخيفة هاربين من المصير المجهول.

وأجابتها الفرس:

- إننى لاأستطيع حراكا كما تعلمين.. لقد غرقت فى الأرض بقوى السحر ولن

أستطيع منه فكاكا الآن. إن لكزة مهمازك أثارت فى جسدى قوة مجهولة وجهتنى حيث لاأدرى.. وكل ماأعرفه هو أنه يجب لكى يفك أسارى وأبرح هذه الأرض أن..

وأسرعت الأميرة تقول:

– قولى ماذا يجب أن أفعل لأمنع أذى السحر الذى حرمك الحركة. لقد أحسنت إلى فيما مضى، فلسوف أبذل جهدى لأعيد إليك حريتك.

وقالت الفرس فى بطء:

– لكى أفلت من السحر.. يجب أن تقتلى أمك..

وشحب وجه فاتيما.. ومضت بالإثنتين فترة من السكون المخيف قطعها الصوت الخافت الضئيل وهو يقول من جديد:

– لاتبكى أيتها الفتاة.. فنحن نستطيع أن نساعدك..

وتلفتت فتيما والفرس إلى مصدر الصوت. لم يكن هناك شئ قط غير أن الفرس صاحت بعد لحظات:

- آه.. قد رأيتك.. إنك لست كبيرا.. هل أنت زعيم قومك؟

– أجل.

– إذن فأنت تستطيع مساعدتى فى حماية هذه الفتاة؟ فأنا الآن عاجزة عن الحركة بفعل السحر ولا أقوى على إرشادها إلى حيث الأمان..

وأجاب الصوت:

– لقد فرغت من العمل بعد أن بنيت بيتى.. وسأرعى الفتاة وأتعهدها وأظل معها فى كل خطواتها وأجيئك بأخبارها.. غير أن أول مايجب أن تفعله هو أن تصبح ذكرا..

وصاحت الفتاة وهى تحاول جاهدة العثور على محدثها:

– ذكر.. كيف يمكن أن يحدث هذا؟

قال الصوت:

– سأحضر لك ثوب فتى صنعناه من أجلك منذ رأيتك تهبطين هذا المكان. إننا هنا

أنا وإخوتي بناءون ماهرون.. فالديدان والعناكب والنمال تشتغل بكل مافي وسعها والثوب على وشك الإنجاز.

ولم يكد الصوت ينتهي من كلامه حتي لمحت فاتيما ثوبا من الأطلس الفاخر يتقدم على الأرض فى بطء كبير.. وراحت الأميرة تفتح عينيها مكذبة، فبدا لها كأن الأرض تتحرك من تحت الثوب.. غير أن الأرض فى الحقيقة لم تكن تمشى.. بل كان هناك جيش كثيف من النمل يحمل الثوب ويقترب به من الفتاة حتى استقر أمامها..

وانحنت فاتيما فارتدت الثوب. وبدت فيه شابا وسيما رائعا بارع القسمات. وقالت الأميرة:

- كم أجدنى عاجزة عن شكركم جميعا أيتها الديدان والعناكب والنمال.. ولكنى ن استطيع الذهاب وصديقتى الفرس حبيسة هنا لاتعرف كيف تتحرك.. ولاتجد يقيها المطر والريح..

وعـ الصوت يحدثها:

- لاتنزعجي.. فسيعمل أصدقاؤنا على إقامة بيت حول صديقتك الفرس.. هيا ى العمل ياإخوتى..!

، فى لحظات كانت الأرض تنشق وترتفع منها جنبات تحيط بالفرس حتى أصبح حولها حائط دائرى متين.

وهتفت فاتيما وهى تصفق فى مرح:

- عرفت من أنت.. أنت نملة كبيرة..!

قالت النملة وهى تجثم على قدم الفتاة:

- أصبت. وبما اننا قد اطمأننا إلى ملجأ الفرس.. فينبغى أن تمثلى أمام الملك بزى رجل، لعلك تجدين وسيلة للعودة إلى الوطن.

وعانقت فاتيما صديقتها الفرس، وتعلقت النملة بحذاء الفتاة، وانطلقا معا فى الطريق إلى قصر الملك..

ولم يكن الطريق سهلا. ولعل مازاد من صعوبته لدى فاتيما أن هياكل عظمية كثيرة كانت مبعثرة هنا وهناك، تحكى كيف بذلت النساء الأجنبيات حياتهن مقابل سفرهن المشئوم.

وبلغت فاتيما القصر. وأحاط بها الحراس وراحوا يرهقونها بالأسئلة. بيد أن النملة هيأت لفاتيما الأجوبة المناسبة لأسئلتهم فى كل مرة، فكانت تلقيها إليهم فى براعة وثقة واتزان.

وقادوها – وهى فى ثوب الأمير – لتقف بين يدى الملك..

وكان الملك رجلا ضخما كعملاق.. صاخب الصوت، قاسى القلب. قال لها وهو يضع يده فوق كتفها:

– من حسن طالعك أيها الفتى الغريب أنك لست امرأة.. فأهلا بك فى مملكتى. ولكن.. ماالذى جاء بك إلى هنا؟

وبدأت الأميرة وقد اكتسب صوتها خشونة الرجال، تلفق قصة طويلة حول الصيد، والتيه فى الطريق. ولكن الملك لم يكد يعرف أن «الأمير» يتقن الصيد حتى ملأته الفرحة.. فقد كان يبحث عن رفيق لرحلات صيده. فوجده فى ذلك الشاب الغريب. وقرر أن يجعل إقامته فى بيت لايفصله عن البلاط الملكى سوى باب قصير.

وكان البيت الذى أعد «للفتى» قريبا جدا من جناح الحريم حيث تعيش نسوة الملك وبناته فى حراسة «صوما» العجوز.. عمة الملك..

وفى الحق، إن صوما كانت أجدر النساء بمنصب الحارس.. فقد كانت بالغة القبح والدمامة.. لاتعرف من الحياة كلها سوى الفضول والحقد على الجميع..

وحذر ضابط الحرس ضيفهم الشاب من مخاصمة صوما.. حتى لاتسبب له المتاعب. وأحست النملة قلقا من هذا الجوار المخيف، فنصحت فاتيما بإغلاق الباب الذى يطل على جناح الحريم جيدا، حتى تذهب هى إلى الفرس وتسألها النصح.

وعندما ذهبت النملة كان الإعياء قد أخذ بفاتيما التى لم تكد تستلقى على الفراش حتى نامت.. ونسيت الباب مفتوحا..

ومضى الليل حتى انتصف. وفتح الباب فى بطء وهدوء. وبدا فيه وجه العجوز صوما التى أتت تتلصص على الشاب الصغير، بعد أن غاظها اهتمام الملك به، وقراره بأن يجعله رفيق صيده.. وشئ أخر دفعها إلى الحضور.. فقد أثار شكها صوت الفتى الرقيق.. والخشونة التى تبدو غريبة مصطنعة..!

وانحنت صوما تحدق فى وجه «الفتى» مليا.. كان الرجل الجميل بأهدابه الطويلة ولونه الأسمر.. يثير الشك. وعادت صوما تتأمل فى الوجه جيدا.. آه.. إنه ليس شابا.. بل امرأة فاتنة تستتر فى ثوب شاب..!

وأعجبها الاكتشاف. وقررت أن تلعب بالفتاة وتعبث ، حتى تكشف أمرها فى الوقت الذى يحلو لها..

وعادت النملة فى الوقت الذى كانت صوما تغادر فيه المكان. وأدركت أن العجوز قد اكتشفت السر، فازدادت قلقا واضطربت، وأيقظت الأميرة تقص عليها ماكان من أمر العجوز، وتنصحها بأن تنهض حالما يطلع النهار، وتجتهد فى اكتساب صداقة الملك قبل أن تدير العجوز صوما رأسه..!

وانطلقت فاتيما إلى الملك فما تركته لحظة، وافتتن الملك بأحاديث «الفتى» وأخذه معه إلى الصيد حيث كاد الأمر أن يفتضح مرات.. إذ لم تستطع احتمال الجهد الشاق، والجرى وراء الغزلان.

ومع ذلك.. فقد انقضى اليوم الأول بسلام..

وجاء يوم آخر.. وكانت صوما قد انطلقت إلى الملك خلال الليل، وراحت تقول له إن الفتى ضعيف به حاجة شديد إلى التقوية.. ونصحته أن يزيد من أعبائه، وأن يعوده على الأعمال الشاقة، ليصبح رجلا قويا رائعا. وشئ آخر اقنعت الملك أن يفعله.. وهو أن يأمر الشاب بالاستحمام الكثير فى النهر.. والتدرب على المصارعة مع أترابه من الشباب..!!

ومع ذلك.. فقد احتملت الفتاة كل المتاعب.. وإن كادت تفتضح مرات خلال المصارعة، والاستحمام فى النهر.

ومضى ذلك اليوم أيضا..

غير أن الفتاة لم تدر أنها كادت تنكشف تماما فى آخر اليوم. فعندما استأذنت من الملك فى الانصراف، افترت شفتا العجوز صوما عن ابتسامة ساخرة وهى تهتف بالملك ألا يأذن لها، بينما كاد السر أن ينطلق من بين شفتيها، لولا أنها عادت فكتمت الأمر قبل أن يغادر فمها، لتبقيه إلى فرصة أخرى خطرت ببالها.

وأسرعت فاتيما عندما أذن لها الملك، ودخلت غرفتها وأغلقت من خلفها الباب. ولم تكد تستند إليه فى راحة ورضا حتى وجدت العجوز تتوسط الغرفة..

وغمرها رعب هائل، بينما كانت العجوز قد بدأت تتكلم.

قالت صوما:

– لقد جئت لأهنئك. فقد استطعت أن أقنع الملك بمصاهرتك.. واتفقنا على أن نزوجك لابنة الملك ونوليك ولاية العهد.

وبهتت الأميرة وغمغمت فى ذهول:

– ولكنى..

واوقفتها العجوز فى ابتسامة ساخرة كأنها الشيطان وقالت:

– إنك لاتشكرنى أيها الأمير العزيز.. ولكنك تنظر إلى وكأننى رسول الشيطان. أهكذا تقابل من يحمل إليك خبر المصاهرة التى تعتبر هدية رائعة لمثلك..!؟ لقد أردت أن أخدمك.. لأننى أشعر نحوك بحب الأم لابنها.. وعليك أن تعتبرنى أمك حقا.. أيها الأمير.. ولاتنادينى إلا بيا أمى..!

وانهارت فاتيما. بينما العجوز الشيطانة تعدها بأن الغد سيكون أعظم أيام «الأمير الشاب»..!

وغادرت صوما الأميرة.. فاستلقت هذه تبكى وقد فقدت كل قوة على التفكير والإدراك..

وسمعت الفتاة صوت النملة تحدثها:

– لاتنزعجي.. فلا يزال أمامنا الوقت الذى تضيعه صوما فى كتمان السر من أجل أن تجعل المفاجأة أخطر وقعا لدى الملك إرضاء لنفسها الشريرة. نامى الآن بهدوء.. وثقى بى وبأصدقائى الذين لازالوا يعملون من أجلك..!

وجاء الغد يحمل أمرا من الملك إلى «الأمير» بالمثول بين يديه.. وعندما وقف «الأمير» أمام الملك.. مد هذا إليه يده يباركه.. وينبئه باختياره وليا للعهد.. وزوجا لكبرى بنات الملك..!

واضطربت فاتيما.. غير أنها تماسكت وهى تحاول أن تخرج من بين شفتيها مايعبر عن شكرها للملك.. أما هو فقد عزا ارتباكها إلى شدة الفرح.. إذ «سيكون الأمير وليا للعهد»..!

واقتربت العجوز صوما.. وأخذت بيد «الأمير» تقوده إلى حيث العروس. وسارت فاتيما أمامها.. لقد كانت العروس قزما حدبا لاتختلف فى شئ قط عن عمتها العجوز.. حتى فى سواد النفس..!

وتمتمت فاتيما وهى تتراجع أمام «الخطيبة الرائعة»:

- ولكن.. ولكنى لاأزال حدثا بعد..!

وقالت صوما وهى تهتف:

- ستدرك أيها الأمير العزيز فن الزواج.. عندما يتم الزواج..!

واهتزت العجوز فى قهقهة قوية صاخبة.. واهتزت العروس هى الأخرى تضحك فى سرور وفرح.. فبدا لفاتيما كأن ضحكاتها شياطين تخرج من فوهة الجحيم..!

وفجأة.. صرخت العروس «روميرا» وسقطت على الأرض. وبادر إليها الأطباء والسحرة لإنقاذها.. لكن بلا طائل، فقد كانت روميرا مخنوقة..!

وقال بعض من كان فى القاعة أنهم رأوا نملة تخرج من فمها، ووقعت على الأرض منسلة إلى حيث لايدرون. غير أن الباقين نظروا إلى ذلك التعليل على أنه خرافة.. بينما قال الأطباء أن الأميرة روميرا ماتت من شدة الفرح..!

وزفرت فاتيما زفرة النجاة..!

غير أن صوما انطلقت إلى الملك عندما لمحت بريق الفرح فى عينى «الأمير» وهمست إليه:

– أيها الملك.. يابن أخى.. إن هذه إرادة الإله «ويندى» فلا تحزن. ولاينسينك حزن الساعة عزمك على أن يكون صديقك الأمير وليا لعهدك.. فلننتهز هذه الفرصة ونحتفل بزواجه من ابنتك الثانية «روهارا»..

وأحست فاتيما كأنه الطوفان.. وبدت كمحكوم عليه بالموت يسمع قرار إعدامه. وانتبهت خلال رعبها إلى صوت النملة تهمس إليها أن تتسلل قرب الباب.. فراحت تحرك خطواتها إلى الخلف فى بطء لايكاد يستطيع ملاحظته أحد..

وسكتت صوما فجأة.. ورفعت سبابتها تأمر بالصمت، وراحت تصغى إلى ضجة خفيفة احدثتها أصوات كأنها مناشير دقيقة تقرض شيئا غير معروف.

واستمرت فاتيما تتراجع ناحية الباب فى بطء. غير أنها اضطرت إلى التوقف عندما صرخ الملك وهو ينهض من مكانه ويهتف:

– إنه صوت إعصار..!

وقال آخر من الحاضرين:

– إن الإله ويندى يريد شق الأرض.

وهتف ثالث:

– إنه ويندى يقتلع جميع الغابات من الناحية المقابلة للبحر العظيم..

وفجأة.. صرخت صوما:

– أوقفوا الشيطانة.. أوقفوها.

واتجهت تجرى وهى تمد يدها المعقوفة لتمسك بفاتيما التى كانت فى تلك اللحظة تخطو الخطوة الأخيرة لاجتياز باب القاعة.

وفى نفس تلك اللحظة.. صرخ الملك فى رعب. كما صرخ كل الحاضرين فى القاعة، فقد كانت القاعة كلها تنهار بالجميع..

وبرغم ذلك، فقد وثبت فاتيما إلى الخارج وراحت تجرى فى قوة وعنف، والنملة تهديها إلى أسرع الطرق وأشدها قصرا، وتجتاز بها الحفر والتلال والقنوات. وعندما ظنت فاتيما أنها قد نجحت فى الهروب، وكادت تقف لاهثة.. سمعت من ورائها صوتا ساخرا يضحك ويقهقه. لقد كانت صوما، التى اجتازت الباب فى نفس اللحظة التى اجتازته فيها فاتيما، وقبل أن ينهار البلاط كله على من فيه، إذ كانت النمال قد قرضت قوائم القاعة فى الوقت المناسب ليتاح للأميرة الهروب.

لم تهتم صوما بانهيار القاعة ومن فيها.. إذ كان كل همها أن تنتقم من الفتاة الجميلة.. التى خدعت الجميع بمظهر الرجال. وراحت تصرخ من بعيد :

– لاتسرع يابنى فتدق عنقك.. لماذا تهرب منى أيها الشقى.. إننى أحبك كثيرا.. ولو كنت أنا فتاة أيها الأمير الجميل لما زوجتك روميرا ولا روهارا.. بل لأخذتك لنفسى..! الا تريد أن تسمع، الا تريد أن تشكرنى أيها الفتى الجميل.. توقف يابنى.. توقف..

وكانت فاتيما قد فقدت كل مابها من قوة.. وبدأت تنهار.. ولم تعد تستطيع أن تجرى بعد. غير أن النملة راحت تشجعها وتثير فيها القوة وتهتف فى أذنها أن لم يعد سوى خطوات لتصل إلى الفرس وتركبه وتطير..

وعادت فاتيما تستجمع مابقى بها من قوة لتجرى.. حتى بلغت آخر الأمر مربط الفرس.. فقفزت فوقها.. وامسكت فى ذؤابتها.. واستوت على سرجها فى أمل.. مخيف..!

ومع ذلك فقد كانت صوما العجوز لاتزال تركض وراءها ويداها المعقوفتان مبسوطتين إلى الأمام.. وصاحت بصوت حاد:

– أيتها الشياطين.. أوقفوه. أوقفوا هذا الولد القاسى الهارب من أمه..

فقالت فاتيما وهى تهذى ذعرا:

– أمى.. أمى.. أمى.. أواه اقتليها أيتها النمال.. أقتلى أمى.

ولم تكد فاتيما تنتهى من كلماتها المذعورة، حتى لمحت جسد العجوز يتساقط وينهار على الأرض، ومن حوله ملايين النمال تقرضها وتنهشها.

وبدأ الجسد يتلاشى شيئا فشيئا.. حتى اختفى!

وفى نفس تلك اللحظة، وجدت الفرس قوائمها ترتفع عن الأرض، وبدأت تطير فى الهواء!

غير أن الناس- فى مملكة الغرب- ظلوا يتحدثون عن فاتيما، ابنة الملك، التى رفعها الإله ويندى إلى السماء وتزوجها، ثم أعادها بعد أيام على ظهر فرس عجوز، ليجعل منها زوجة الإله على ظهر الأرض..!؟

مزرعة الشيطان

حكاية من نيجيريا

هناك بعيدا .. قرب قرية «إمسالا» حيث تجرى مياه النيجر الزرقاء، تمتد أرض بور شاسعة تحيط بها الغابات من كل الجهات..

فى هذه الأرض، كان يقيم شيطان لئيم قزم، اسمه «الجينارو» .. يثير ذكره الرعب فى القلوب، ويجعل كل من يسير مخترقا «إمسالا» فى طريقة إلى المدينة يسرع الخطى فى اضطراب مجنون.. وكأن من خلفه الموت..!

وذات يوم.. بينما كان الفلاح سابونيوما يمر بالطريق، أطل فإذا الأرض جميلة رائعة.. يثير مرآها الحسد لموقعها من الماء الذى كان يمكن أن يجعل منها حديقة كالجنة.. لولا خوف الناس من صاحبها.. الجينارو..!

ومنذ تلك اللحظة لم يستطع سابونيوما إبعاد منظر الأرض الشاسعة البور من رأسه.. وقد غاظه أن تظل بلا رعاية.. فى الوقت الذى يستطيع هو فيه أن يتعهدها ويزرعها..

وفى الحق، أن سابونيوما لم يكن يعترف بالقناعة قط. فمن قبل، استولى على نصيب إخوته من الأرض وتركهم يشقون جوعا، ويستسلمون للذلة، ويؤجرون جهدهم للآخرين.. ومع هذا أبى إلا أن يستولى على أرض الجنى أيضا..

وبلغ الضيق بسابونيوما حدا جعله يصر آخر الأمر على الذهاب إلى أرض الشيطان وزراعتها. وانطلقت امرأته إلى سحرة القرية تنبئهم بما استقر عليه رأى زوجها. فأحاطوا جميعا به يمنعونه عن الذهاب، ويؤكدون له أن هذه الأرض مابقيت بورا إلا لأنها ملك الشيطان، الذى لايسمح قط بالاعتداء عليها، بعد أن منحها له الإله «ويندى».

وماأكثر ماحاول السحرة إثارة الرعب فى قلب سابونيوما. وماأكثر ماساقوا من قصص أفراد حاولوا اختراق الأرض الجرداء.. فأحاطت بهم أسراب الشياطين الحمراء ذات القرون، وألقت بهم خارج حدودها بعد أن شوت أجسادهم أحياء بالنار.

وبرغم كل ذلك.. ظل سابونيوما مصرا على حرث أرض الشيطان.. والاستيلاء عليها. وراح يصرخ فى زوجته قائلا:

- اسكتى ياامرأة.. فمادمت أملك القوة التى تمكننى من توسيع مساحة أرضى وحرثها، فلن أستمع إلى السخافات التى تتحدثين عنها. فأنا قوى.. ومادمت قويا فسأظل أحصل على الأرض التى أريد..!

وذات صباح.. انطلق الفلاح المغامر تاركا داره، وعلى كتفه فأسه، مخترقا شوارع إمسالا فى الطريق التى أكد له السحرة أنها ملعونة منذ القدم. وقبل أن يذهب إليها كان قد أكد لامرأته أنه لن يقتنع بنصائح السحرة، وأنه سيذهب إلى الأرض الملعونة، ولن يوقف ماقرره مهما قال السحرة ومهما قصوا عليه من أقاصيص..

ووقف سابونيوما على حدود أرض الشيطان، وملأته الرهبة. غير أنه لم يهتم للرعشة التى أخذت به.. وأسرع فوضع قدمه داخل الأرض وهو يقول: «أيتها الأرض الطيبة. إنك واسعة حقا، أضعاف أضعاف تلك المزرعة الحقيرة التى أملكها.. إنهم يقولون أنها حصة الجينارو، ولكنى أبدا لن أتوقف عن العمل بسبب تلك الأقاصيص السخيفة.. وهاأنذا قد اخترقت الأرض ولا أرى أثر الشيطان. الا ماأحمقها من خرافات.!»

وبضربة واحدة من فأسه، شق سابونيوما الأرض وعيناه تدوران فى كل مكان حوله خشية أن يظهر الشيطان.. ومع كل ضربة فأس كان سابونيوما يتوقف لبضع لحظات. غير أن شيئا لم يحدث قط، وماكان هناك مايدل على وجود أحد فى ذلك المكان الواسع الكبير، واطمأن سابونيوما. وبلغت به الثقة حدا راح معه يصفر ويغنى.. بينما الفأس ينزل ضرباته الجديدة تشق الأرض وتعدها لإلقاء البذور.

وإذ غابت الشمس واختفت وراء الأفق، جلس سابونيوما تحت ظل شجرة برية فوق حجر كبير يشرف على الحقل كله، وراح يتأمله فى سرور، وقد بدا له أن قد أصبح صاحبه الوحيد. وملأته الثقة حتى أنه راح يهتف بين الحين والحين فى سخرية:

- يقولون إنها ملك الجينارو.. ومع هذا فها أنا أتحداه.. نعم أتحداك أيها الجينارو..

وهاقد حرثت الأرض ولم تستطع أن تمنعنى. الا ترى، ها أنا أحرث الأرض، إنها ـ أرضى.. أرضى أنا.. وستظل ملكا لى.

وفجأة انتبه إلى صوت رقيق ينطلق غير بعيد منه وهو يقول:

– إنها ملكك بالفعل ياسابونيوما الشجاع. مرحى، مرحى، ياأذكى رجال القرية، يامن سخرت بكل خرافات السحرة، وكنت وحدك على صواب. إنهم يقولون عنى أننى شيطان، فهل يدل صوتى الضعيف الرقيق على أنى كذلك؟

وراح سابونيوما يطل من حوله فى فزع كبير، فما وجد أحدا قط، ولااستطاع أن يحدد المكان الذى ينطلق منه الصوت.

وعاد صوت الجينارو يقول فى رقة:

– لاتخف أيها الرجل الشجاع.. فنحن الجن لايهمنا أن تكون لنا أرض.

واستطاع الرجل أن يتكلم آخر الأمر:

– ولكن اين أنت أيها الجينارو العزيز. اين أنت فإننى لااستطيع أن أراك؟

وعاد يسمع من جديد:

– لكم يؤسفنى أننى لااستطيع أن اكون مرئيا لك.. إذن لرأيت أننى صغير جدا.. اكاد لاأبلغ قدر ركبتك طولا.. ولوجدت أن رأسى خال من قرون الشياطين. إن جسدى شفاف ياسابونيوما.. ولكنك تستطيع أن تحدد مكانى إذا نظرت إلى ذلك الغصن القريب فستراه يتمايل تحت وطأتى كأنما يداعبه النسيم. إننى أجلس فوقه الآن، وأتخذ منه أرجوحة صغيرة.. فهل ترانى بعد ذلك ماردا عملاقا كما يتصورون؟

وكان الروع قد بدأ يزول من قلب الرجل وحول بصره ناحية الغصن الصغير فإذا به يتمايل فى رقة توحى بأن مافوقه ليس شيئا يخيف. وزاده اطمئنانا أن صوت الكائن الخفى كان ضئيلا ضعيفا يؤكد خروجه من جسم ضئيل ضعيف.

وهنا انطلق صوت سابونيوما يسأل فى غير خوف:

– ومن أنت إذن؟

أجابه الصوت:

- أنا الجينارو، صاحب الحقل الذى بدأت حراثته منذ ساعات. لقد رأيتك تشتغل طوال اليوم بقوة ونشاط حتى لقد ثارت بى الرغبة فى مساعدتك، وزادت بى الرغبة عندما وجدتك شجاعا تزدرى تهديد السحرة وتسخر من خرافاتهم، فشعرت أنك نعم الصديق، وقررت أن أصنع لك من هذه الأرض البور حقلا جميلا مثمرا تستطيع من ورائه أن تكون أغنى الأثرياء..!

وقال سابونيوما:

- وكيف تستطيع مساعدتى فى زرع هذه الأرض، وأنت كما تقول صغير ضئيل، لاتملك من القوة مايجعلك تحمل الفأس لتضرب وتحرث ذلك الطين الكثير؟

أجابه الجينارو:

- اطمئن أيها الصديق، فما كنت لأستعمل فئوسك وأدواتك الثقيلة قط. ولكنى سأدعو أصدقائى الكثيرين الذين يلعبون الآن فى الغابات فيأتون سراعا ويستخدمون فى حرث الأرض تلك الحجارة الكثيرة المسطحة الملقاة هنا وهناك..!

وفتح سابونيوما عينيه فى دهشة، بينما أطلق الجينارو نداء غريبا يشبه صفير الريح، لم يكد ينطلق حتى اهتزت الأرض البور من تحته وأمامه، وإذا الحجارة ترتفع وتنخفض وحدها تشق الطين وتحرثه فى براعة وإتقان.

وبدا لسابونيوما كأنما يسمع أصواتا ضئيلة مبهمة، لعلها لهثات الفعلة الصغار وهم يعملون. وصاح الفلاح حائرا:

- أين أنت ياجينارو؟ إن مشهد الأرض وهى تتحرك يذهلنى ويدهشنى ويجعلنى أتمنى أن أراك.

وأجاب الجينارو:

- هاأنا ذا واقف إلى جوارك أنضح عرقا كما ينضح كل من حولى الآن من الأصدقاء الأعزاء. ولكننا مع ذلك سنظل نعمل طوال الليل، حتى إذا مابزغ الصباح

رأيت الأرض محروثة معدة. ولعلك حينذاك تصفق طربا لأنك لم تخش الشيطان الذى هددك به الأغبياء الجهلاء من سحرة قريتك ..!

أجاب سابونيوما فى سرور:

– أجل. أجل ياصديقى العزيز لكم أرقص طربا إذ أراك تمد لى يد العون وتحرث الأرض بكل هذا النشاط وتلك القدرة. ولكن خبرنى لماذا تركتها بورا وأنت تحسن وأصدقاؤك مثل هذا العمل العجيب؟

أجاب الجينارو:

– نحن لانحتاج إلى الثمار والخضرة كما تحتاجون أيها الإنس. فقوام حياتنا الهواء الذى جعل أجسادنا شفافة كما ترى. ونحن مع هذا لانحب العمل، بل اشتغلت أنا وصحبى من أجل أن نسرك أنت وحدك. وإنا لنعاهدك أن نستمر فى مساعدتك فى كل المناسبات، وماعليك إلا أن تبدأ بماتريد، تجد الجميع يكررون ماتفعل ويقلدونك، وإذا العمل كله ينتهى فى لحظات قصار.

فانتصب سابونيوما قائلا:

– شكرا جزيلا ياصدقى الجينارو. وإنى لأقسم أن أستمر صديقا لك مدى الحياة.

أجاب الجينارو:

– ضع إذن يدك فى يدى، ولنقسم معا على الوفاء.!

وشعر سابونيوما بمايشبه اليد تصافحه وتهز كفه. وأحس رعشة غير أنه امتلأ فرحا وهو يجد نفسه فى الطريق السريع إلى ثراء كبير.

وانطلق سابونيوما إلى بيته ليعود مع الصباح. وعندما عاد كان الحقل كله قد تم حرثه. وسمع صوت الجينارو يحدثه:

– هل أنت مسرور الآن ياسابونيوما؟ هانحن قد أتممنا الحرث، ولو كنت قلت لنا ماذا نفعل بعد ذلك، أو لو أنك بدأت بما تريد أن تفعل لحذونا حذوك،ولوجدت العمل كله قد تم فى الحال على الشكل الذى تريد.

وازداد سابونيوما فرحا وإيمانا بالأصدقاء الذين يصنعون له كل شئ ولم يكد يشرع فى جمع الحشائش التى ملأت الأرض، ويكدسها ليحرقها، حتى تكاثرت الأكداس وتجمعت الحشائش وحدها من كل مكان فى بضع لحظات. واشتعلت النيران فيها قوية متأججة!!

وقال سابونيوما:

- لم يعد أمامنا الآن سوى تمهيد الأرض واستئصال الأعشاب لنلقى بعدها بذور الزرع.

وانحنى سابونيوما يستأصل العشب. وإذا بقية الأعشاب تقتلع من كل مكان وتلقى فى خارج الحقل الكبير.

وامتلأ قلب سابونيوما فرحا. إنه لايكاد يكلف نفسه سوى بدء العمل حتى يقلده الجميع، فينتهى فى لحظات.

و عاد سابونيوما إلى بيته وقد أصر على إخفاء السر حتى عن امرأته. وشهدت المرأة فرحته فسألته، غير أن الرجل لم يحر جوابا قط، ولم يذكر لها من أمر الحقل شيئا أبدا.. وإن كان قد طمأنها إلى أنه سيأتيها بثراء كبير..؟

وعندما جاء الصبح، عاد سابونيوما إلى الأرض وقد حمل فوق كتفه كيس ذرة. وإذ مد يده لينثر البذور، انطلقت الحبات كأنما ملايين الأيدى تحملها وتنثرها فى كل ثلمة فى الأرض المحروثة كالرذاذ.

وفى أقل من طرفة عين، كان الكيس قد فرغ من الذرة.. وكانت الأرض قد امتلأت بالبذور.

وملأت الفرحة قلب سابونيوما، وصفق للزراع الصغار. وفى الحال اقتدى به الجينارو وأصدقاؤه، ودوى تصفيقهم فى كل مكان من الحقل الفسيح..

وإذ عاد سابونيوما إلى بيته ذلك المساء، أطلت إليه امرأته وقد ازداد عجبها للفرح الذى يكاد ينطلق من عينيه.. وراحت المرأة تغريه بالحديث وتسأله عما هناك.. غير أنه ظل صامتا لايريد أن يجيب.

وانقضت عشرة أيام.

وقال سابونيوما لامرأته فى الصباح:

– تعال معى الآن لأريك شيئا يقنعك أننى كنت على حق حين بشرتك بالثراء الكبير..

وانطلقت المرأة مع زوجها حتى توقفا عند حقل الجينارو. وكانت البذور قد بدأت تبزغ فى الأرض زرعا صغيرا ناشرا أوراقه الجميلة الخضراء.

وهتفت المرأة:

– ماهذا ياسابونيوما!

أجابها:

– هو عملى وعمل أصدقائى.

قالت له.

– أى أصدقاء تعنى؟

وراح سابونيوما يقص على امرأته كل الأمر. وعندما بدا له كأنها لم تقتنع، دعـ إليه الجينارو، وطلب منه أن يطمئنها بصوته الصافى الرقيق.

وصرخت المرأة وهى تسد أذنيها عن سماع صوت الشيطان الخفى. وانطلقت تجرى فى رعب حتى بلغت القرية وهى لاتزال تصرخ وتسد أذنيها. وعندما أحاط بها الجيران يسألون عن سر رعبها، راحت تقص عليهم الأمر وتحكى كيف أصبح زوجها صديقا للشياطين.

وعاد الرجل إلى القرية. فلم يكد يدخلها حتى وجد الناس يزورون عنه ويبتعدون، ويلقون عليه نظرات كلها الرعب والحذر. ولم يهتم سابونيوما لازدراء الناس.. بل إنه لم يهتم حتى بماتبديه زوجته، وراح ينطلق مع كل يوم إلى الحقل يرعى الزرع ويعد قنوات الرى.. وينجز مع أصدقائه فى ساعة واحدة مالم يكن من الممكن إنجازه فى أقل من أسابيع.

وتتبع القرويون فى وجل يمتزج بالحسد، نمو الزرع فى الحقل الكبير

فجأة سقط سابونيوما فى داره طريح الحمى. فراح يصرخ ويبكى وقد أدرك أن الطيور ستنقض على الحقل، بينما الذرة تقترب من وقت الحصاد، فلاتجد من يبعدها.

وفى خلال حزنه ونحيبه، كان سابونيوما يقول:

– واأسفاه.. ستنقض الطيور على الزرع إذا لم أذد عنه بنفسى.. فياشقوتى وبلواى..!

وكانت امرأته تصغى إليه وهو ينتحب فتمتلئ ألما. غير أنها لم تكن تستطيع أن تفعل شيئا، ولاتريد أن تفكر قط فى حقل الشياطين.

وكان يبدو للمرأة فى بعض الأحيان أن زوجها يعانى شيئا لم تدر كهنه، وأنه ينطلق فى سرحة طويلة فى كثير من الأحيان. وفجأة.. وبعد ليلة شديدة الأرق.. نهض سابونيوما من نومه وراح يصرخ مناديا زوجته فى صوت كالصراخ:

– اسمعى.. لم أعد أستطيع بعد..

واقتربت منه زوجته تربت على كتفيه وتهدئه وتقول:

– خففت عنك.. أطلب ماتريد أنفذه على الفور.

قال سابونيوما:

– إذهبى إلى إخوتى الآن.. وقولى لهم إننى سأرد لهم الأرض التى أخذتها منهم بالغدر والخديعة.. واطلبى منهم الصفح والغفران..!

وفتحت المرأة عينيها فى ذهول.. وقالت فى صوت ملئ بالاستغراب:

– لم أعد أستطيع أن أفهمك ياسابونيوما.. فمنذ أيام قليلة كنت تطمع فى الاستيلاء على أرض الجينارو.. واليوم تقول إنك سترد الأرض التى أخذتها من إخوتك.. إن فى الأمر سرا ياسابونيوما.

وعاد الرجل يصرخ:

– ليس هناك أسرار ياامرأة.. ولكنه الشرط..

وانتبهت المرأة. وقالت تسأله:

– أى شرط ياسابونيوما.. إنك منذ عدت آخر مرة من مزرعة الجينارو وأصابك هذا المرض الطويل، تصدر منك أصوات وأنت تحلم، وتتكلم عن الشرط والجينارو والمزرعة.. أشياء لم أفهم منها شيئا فلماذا تخفى على الأمر. تكلم.. فالكتمان سيقتلك.

وبدأ الرجل يبكى. وقال فى ضيق كبير:

– أجل. سيقتلنى الكتمان. لم أعد أستطيع أن أحتمل. اسمعى. سأقول لك كل شئ. لقد اشترط على الجينارو قبل أن يعطينى الأرض ويزرعها لى. أن أعيد الأرض التى كنت أملكها لأصحابها. ولكنى أخلفت وعدى ولم أفعل.

وهزت المرأة رأسها وقد بدأت تدرك كل شئ:

– إذن فهذا هو سبب غضبه عليك. وسقوطك مريضا انتقام منك. إن هذا هو بالضبط ماقاله لى السحرة.

وقال سابونيوما، وقد بدأ صوته يخف ثورته:

– أفهمت الآن لماذا أقول لك اذهبى إلى إخوتى واذكرى لهم تنازلى عن الأرض. إننى أريد أن أرضى الجينارو وأعبر له عن اعترافى بالخطأ واعتذارى عنه.

وهزت المرأة رأسها وهى تعد زوجها بأن تفعل كل مايريد. وقال لها زوجها:

– كل ماأطلبه منك الآن أن تذهبى إلى المزرعة.. وعندما تلتقين بالجينارو قولى له إننى أعتذر عن تأخرى فى تنفيذ شرطه.. وإننى سأفى بوعدى حالما أقوم من مرضى.

وانتفضت المرأة وقد عادت تتذكر كيف يمكن أن تلتقى بالجنى وحاولت أن تتخلص من وعدها بالذهاب إلى المزرعة.

غير أن الألم والحزن ازدادا بها مع طول مابكى زوجها وتألم، فوجدت نفسها تقول له:

– أمرك ياسيدى.. سأذهب وأبلغه اعتذارك.. ولن أكتفى بذلك بل سأذهب بنفسى كل يوم إلى الحقل وأبعد الطيور عن زرعك حتى تشفى..!

وابتهج الرجل، وراح يطمئن زوجته ويقول :

– إن الجينارو سيقبل الاعتذار بغير شك.. بل وسيساعدك أيضا فى إبعاد الطيور عن الزرع. إنك لن تلقى كبير عناء.. فحين يراك الجينارو وأصدقاؤه ترجمين الطيور بالحجارة والطوب.. سيقلدونك هم أيضا ويقومون بالعمل خير قيام. أما أنا فلن أتركك وحدك.. بل سألحق بك حالما تزول عنى الحمى..!

وانطلقت المرأة إلى حقل الجينارو. ولم تكد تقترب من الحقل حتى راحت تطل حولها فى رعب، وتحاول فى جهد كبير إخفاء اضطرابها وهى بسبيل لقاء الجنى وشياطينه. وكادت لطول ماأخذ بها الخوف أن تعود أدراجها دون أن تفعل شيئا، لولا أنها تذكرت زوجها والشرط الرهيب الذى سلمه لما يشبه الموت.

ووجدت نفسها بالرغم منها تقف آخر الأمر على أول حدود المزرعة. وخرج صوتها مرتعشا خائفا:

– أيها الجينارو. ياجينارو.. أنا زوجة سابونيوما. صديقك ياجينارو. هل تسمعنى. شئ غريب. إن أحدا لايرد. لاأحد هنا. ماذا أفعل الآن. كيف أبلغ الجينارو اعتذار سابونيوما. أين أنت أيها الجينارو..؟ ياجينارو..

وفجأة.. ارتجفت المرأة وكادت تسقط على الأرض.. فقد سمعت صوتا يتحدث بجانبها بينما لاترى أحدا حولها قط. قال الصوت:

– ماذا تريدين منى.. إنى هنا بجانبك..

وصرخت المرأة تطلب النجدة من السماء.. غير أن الصوت عاد يحدثها ويقول:

– لماذا تصرخين وتطلبين النجدة من وبندى.. إننى هنا بجوارك.. وكل مافى الأمر أننى أراك ولاترينني.. تكلمى.. ماذا تريدين..؟

وبدأت المرأة تسترد جأشها شيئا فشيئا.. وتذكرت أن زوجها طمأنها إلى أن

الجينارو ليس شريرا قط، وأنه ضئيل ضعيف، فاستمدت من هذه الذكرى قوة.. وبدأت تتحدث فى شئ من الهدوء إلى الجنى.. وأبلغته اعتذار سابونيوما.

وأجاب الجنى:

- ولماذا يعتذر.. إننا لانحب الاعتذار.. ولكننا نحب الذين يهتمون بأملاكهم ومزارعهم.. أنظرى.. أترين هذه الطيور التى تنقض بين الحين والحين فتأكل أعواد الذرة. إن زوجك لايأتى ليبعدها.. وإذا استمر ذلك فسينتهى الزرع قبل أن يأتى وقت الحصاد..

وقالت المرأة للجنى الذى لاتستطيع أن تراه:

- إن سابونيوما مريض ياسيدى.. الجينارو.. فلماذا لاتساعده وتبعد الطير عن المزرعة؟

قال الجنى:

- إننا لانفعل شيئا وحدنا. ولكننا نقلد الآخرين ممن نحب أن نساعدهم، فنفعل كما يفعلون. فإذا أردت أن نساعدك فهيا ابدئى الآن.. وماعليك إلا أن تبدئى بالعمل الذى يبعد الطير.. وسنقلدك على الفور..

وانحنت امرأة سابونيوما فتناولت قبضة من الحصى قذفت بها الطيور.. فولت الأدبار. وسمعت المرأة أصواتا كثيرة تحدثها.. غير صوت الجينارو:

- إطمئنى أيتها المرأة.. فسوف نساعدك ونقذف الطيور بالحصى كما تفعلين..!

وارتعشت المرأة وهى تستمع إلى أصوات الشياطين. وحين بدأت تتراجع لتجرى، لمحت أسرابا أخرى من الطيور تنقض على الزرع فتوقفت، وانحنت من جديد تتناول قبضة من الحصى لتقذف بها الطيور.

ولم تكد المرأة تفعل حتى وجدت الحصى يرتفع من كل مكان، وتقذفه أيد خفية على الطيور المنقضة فتنطلق بعيدا هاربة..

وظلت غارات الطيور تتوالى، ويتوالى معها قذف الأحجار والحصى لإبعادها عن الحقل..

وراحت المرأة تتطلع إلى ذلك المشهد الغريب، وقد ملأها الاطمئنان. وكلما لمحت سرب طير آخر انحنت تلتقط الحصى وتلقيه.. فتتبعها الأيدى الخفية فى نشاط كبير غريب.

وانقضت ساعتان، كانت الطيور خلالهما قد توقفت عن الإغارة على الحقل. وأحست المرأة عطشا وجوعا جعلها تفكر فى قطع إحدى سيقان الذرة، تمتص لبابها وتستعيد بعض قواها..

ومدت المرأة يدها فكسرت ساقا، وقربته من شفتيها..

ولم تكد تفعل، حتى تكسرت كل أعواد الذرة التى تملأ الحقل، وكأن منجلا جبارا قد قطعها بضربة قوية واحدة.

وصرخت المرأة وهى ترى الحقل كله قد تحول إلى أكوام من أعواد الذرة المقطوعة. بينما كان سابونيوما فى طريقه إلى الحقل بعد أن زالت الحمى عنه.

ووقف سابونيوما يطل فى ذهول إلى زرعه الذى تحول إلى أكوام من الحطب الأخضر.. وصرخ فى امرأته:

– ماالذى حدث أيتها المرأة؟!

وركعت المرأة أمام زوجها وهى تبكى وتجيب:

– لقد صنعت كل مابوسعى لأحمى الذرة من الطيور؛ ولكنى لاأدرى كيف سقطت السيقان كلها من تلقاء نفسها.. إنه لاشك من عمل الشيطان.

وزمجر سابونيوما صارخا:

– بل انت هو الشيطان أيتها الملعونة.. أهكذا تبددين فى يوم واحد كل الثروة التى بذلت من اجلها كل جهدى وعرقى. أيتها المرأة الشقية.. ماذا فعلت لتجلبى على هذا الخراب!؟

وراح سابونيوما يضرب رأسه وكفيه ويكاد يجن.. ثم انقض على امرأته وصرخ:

– أيتها الشقية.. كيف حدث هذا؟ تكلمى وإلا طردتك فى الحال من البيت ومن القرية..

وأجابت المرأة فى غضب:

- تطردنى..!؟ أهكذا يكون جزائى بعد طول ماعشت معك؟ ومع طول ماخدمتك؟ أتطردنى بسبب ساق من الذرة الحقيرة؟ ولكن لا.. إننى سأوفر عليك هذا العناء فأعود إلى أهلى اليوم.. وسأجعل أبى يعيد لك البقرات التى أخذها مهرا منك، فهى تلقى عنده على الأقل راحة وغذاء إثر عملها.. بلاشتائم. وإنها لتعامل لديه بأفضل مما عوملت به عندك!؟

وصرخ سابونيوما:

- أتشكين سوء المعاملة أيتها المرأة الملعونة؟ أتنتظرين منى الشكر والثناء على النكبة التى لحقت بى..؟ خذى هذه الصفعة شكرا لك أيتها اللعينة..!

وفى سورة الغضب انقض كف سابونيوما فى صفعة قوية هائلة على خد المرأة التى راحت تبكى وتصرخ وتصيح.

وفى تلك اللحظة، سمع سابونيوما صوت الجينارو يقول:

- تشجع ياصديقى.. فنحن هنا لنساعدك دائما فى أى عمل تقوم به. لاتكلف نفسك عناء ضرب امرأتك لأننا سنقلدك ونقوم عنك بهذه المهمة. إن واحدا منا لن يتوانى عن عمله. ألا فاسمع صياحها.. هيا اضربوها وساعدوا صديقنا أيها الأصدقاء..!؟

وراح جسد المرأة يدور مع كل الجهات، بينما صفعات قوية تنقض على وجهها من أيد خفية لاتبين.. ثم انطرحت على الأرض تصرخ وهى تدفع عن نفسها وابل الصفعات الرهيبة الهائلة..

ومرت بسابونيوما فترة من الذهول.. انحنى بعدها على امرأته يعينها على النهوض، ويدفعها بشدة خارج الحقل. وما أن تجاوزت المرأة حدود الحقل حتى كفت الصفعات وتوقفت. وقال لها سابونيوما:

- أيتها المرأة.. لقد كان التأديب أشد قوة مما أردت، فلاتضمرى لى حقدا وبغضا.

ولكن المرأة صاحت به:

– لن أغفر لك أبدا.. ألا ماكان أشد حمقى حين تبعتك من قبل! ولكنك وقد فعلت بى مافعلت من أجل ساق من الذرة.. لن ترانى بعد اليوم.

وانطلقت المرأة تجرى فى طريق القرية.. وقد وقف سابونيوما يفكر فيما قالته. لقد قالت إن كل ذلك من أجل عود ذرة.. فكيف إذن تحطمت أعواد الذرة كلها؟

وانتبه على صوت الجينارو إذ يقول له:

– إنها لعلى صواب. فهى لم تقطع سوى ساق واحدة من الذرة.

فتمتم سابونيوما الذى بدت الحقيقة تتكشف أمامه:

– لكن.. هذه السيقان الأخرى.. لماذا كسرت..؟

أجاب الجينارو بعجب:

– لقد قمنا نحن بذلك.. ونؤكد لك أن هذا العمل لم يستغرق وقتا طويلا!

وصرخ سابونيوما:

– ماذا؟ أنت.. وأصدقاؤك!!

أجاب الجينارو:

– نعم.. وإننا لمستعدون لتقديم كل خدمة لك وتنفيذ كل مااتفقنا عليه من تقليدك ومتابعتك فى كل ماتبدأ به. لقد بدأت زوجتك بقطع ساق الذرة فقلدناها وبذلنا كل مابوسعنا لإنهاء العمل فى لحظات.. وكان هذا شأننا أيضا حينما أدركنا ضرورة ضرب امرأتك!

وصاح سابونيوما:

– الويل لى.. إننى لأشقى كل الرجال فى إمسالا.. لقد صدق السحرة والشيوخ حين قالوا أن هذا الحقل ملعون.. وملاعين هم الذين يقتربون منه..

وقال له الجينارو:

– ولكن ماالذى فعلناه فأثار غضبك؟

أجاب سابونيوما:

– لقد طردت امراتى فجلبت على نفسى غضب كل ذويها. آه منك أيها الماكر الشرير جينارو الشيطان. ليتنى أستطيع أن أقبض عليك لحما ودما.. إذن لعلمتك كيف تساعد الناس عندما لايكون ثمة داع للمساعدة. الويل لى ياجينارو.. والويل لك..!

واستمر سابونيوما يصرخ ويكاد يبكى ويغمى عليه لشدة الغيظ.. وراح يضرب رأسه بيديه ويقتلع شعره. ولم يكد يفعل حتى صرخ صرخة هائلة تنم عن ألم شديد هائل. بينما كان رأسه قد أخذ يخلو من الشعر الذى راح يقتلع فى سرعة وجفاء.

– أسرعوا أيها الأصدقاء. اقتلعوا ماطاب لكم ولاتبقوا على شئ أبدا. لقد أقسمنا أن نخدمه ونساعده فى كل مايفعله، لننته بسرعة كبيرة مما يبدأ هو فيه.. أسرعوا ياأصدقائى، فقد نسيت شتائم سابونيوما، ولايمكن أن أنكث وعدا قطعته على نفسى كما فعل معى.. هيا ساعدوه معى على ضرب رأسه واقتلاع مابقى من شعره الغزير.

وراح سابونيوما يصرخ ويجرى حتى تجاوز حدود الأرض. وعندئذ ملأت الجو ضحكات وقهقهات عالية قوية رنانة.. تجاوبت معها صرخات كل الشياطين.

وحتى اليوم.. لايزال الناس فى قرية إمسالا، يشيرون فى سخرية إلى منزل «الأقرع الملعون». أما أرض الجينارو.. فماتزال جرداء شاسعة، تغطيها أعواد حطب قديم جاف!!

الإبـــــرة

حكاية من غانا

هـز «سارا» كتفيه دون مبالاة، وهـو يسـتـمع إلى ضحكات أخويه إذ يسخـران بالفرحة التى ارتسمت على شفتيه وهـو يدخل الدار ذلك المساء. ولم يهتم الفتى الصغير قط لكل هـذا التهكم الذى ابتدراه به عندما أجابهما وهما يسألانه عن أسباب تلك الفرحة:

– مابالى.؟! وجدت إبرة..!

وإذا كان أبوه قد ظل صامتا بعض الوقت وهو يتأمل ولده إذ يحرك الإبرة الصغيرة بأصابعه، إلا أنه أطل إليه بعد قليل وهو يقول:

– ولكن كيف يفرح فتى مثلك فى الخامسة عشرة لعثوره على مثل هـذا الشئ التافه!

وهنا فقط، وجد الفتى نفسه يجيب وفى صوته كل معانى التحدى:

– إن هذا الشئ ياأبى ليس تافها أبدا.. فقد تعطينا هذه الأبرة مملكة..!

وأغرق الأخوان فى الضحك ساخرين:

– ماأخطرك ملكا وفى يدك بدل الصولجان إبرة.. وماأشد هيبتك وأنت تهزها فى يدك لترهب بها شعبك المسكين..!

وهز الفتى كتفيه من جديد، ومضى إلى فراشه فى كثير من الغيظ المكبوت.

وجاء الغد..

وانطلق الفتى مع أبيه وأخويه إلى حيث مزرعة شيخ أثرياء القرية، حيث يعملون فى تخزين الغلال. ولم تكن مهمة «سارا» نفسه فى المزرعة لتزيد عن رعاية الماشية وإطعامها.

وبينما الفتى يمضى إلى حيث يحلب الأبقار، إذ به يجد زوجة صاحب المزرعة جالسة فى هدوء، وقد انشغلت بإعداد بعض الثياب. ومضى سارا يواصل عمله، ولكنه انتبه فجأة إلى السيدة وهى تقول:

– تعال ياسارا.. اقترب ياولدى وابحث معى عن الإبرة التى سقطت من يدى، فبصرك بغير شك أكثر حدة من بصرى الضعيف.

وانحنى سارا يبحث عن الإبرة فى كل مكان. ولكنه كان عبثا يحاول، فقد كانت أرض القاعة مليئة بالتبن والأعشاب.

وقالت صاحبة الحقل:

– ياللشؤم.. سأضطر للذهاب إلى القرية لشراء إبرة جديدة، فما يوجد فى البيت إبر أخرى..

واختلج صدر الفتى، وقد تذكر الإبرة التى غرسها فى طرف ثوبه.. وقال فى صوت جهد أن يبدو هادئا:

– أستطيع أن أجئ لك بإبرة فى الحال ودون أن يضيع وقتك..

وبدا الاستغراب الممتزج بالفرحة على وجه المرأة وقالت للفتى:

– لو فعلت حقا لاستجبت لأى أمنية تريد..!

قال سارا:

– يكفينى شئ واحد نتقايض به ياسيدتى..

وهزت المرأة رأسها مشجعة وقالت له:

– سل ماتريد أعطك إياه.

قال الفتى وهو يشير إلى حظيرة الدواجن المليئة بالدجاج والديوك:

– أريد ديكا.. ولاشئ أكثر.

واستغربت المرأة لتفاهة الطلب، ولكنها قالت:

– هذا كل شئ.. ؟ لابأس.. اختر الديك قبل انصرافك من الدار، وشكرا لك فإبرتك ستعفينى من مشوار طويل.

وانطلق الفتى ينجز عمله وقد ملأته فرحة هائلة. وعندما عاد إلى البيت كان يحمل فى يده ديكا سمينا. وأسرع إلى والده وهو يصيح:

– انظر ياأبى.. انظر كيف أصبحت إبرتى التافهة..!؟

وصاح أخواه فرحين:

– باركتك السماء ياسارا.. فما الذ الطعام الذى سنتناوله اليوم.

وأجاب سارا:

– لن أطلب منكما ياأخوى إلا أن تتركا لى حصتى من الديك.. فربما احتجت إليه بدلا من أكله.

فى الغد، قال سارا لوالده:

– لم يبق شئ من الحطب، فلأذهب للاحتطاب فى الغاب، ولآخذ معنى فخذ الديك فربما استطعت أن أقايض به شيئا أخر.

وقهقه راماو أكبر الأخوين وقال لسارا:

– ستقايض بفخذ الديك..!؟ أرجو أن تأتينا بدله بحصان..!

وقال راماكى الأخ الثانى وهو يواصل السخرية:

– إذا جئت بحصان فاجتهد أن يكون أبيض اللون..

وعاد الأول يقول متهكما:

– لابل أسود.. أو لعلك تجده بنى اللون.!

وغادر سارا البيت مسرعا.

وفى الغابة، كان الملك «ماهان أولى» يقضى وقته منذ الفجر فى الصيد. وإذ كان اليوم قد كاد ينتهى وهو يتابع المطاردة، فقد التفت حوله فماوجد أحدا من رجال حرسه. وفوجئ الملك بالجوع والعطش يأخذان به، فترجل من فوق فرسه، وانحنى على مجرى ماء صغير وراح يشرب بنهم ولهفة.

فى ذلك الوقت كان سارا ينطلق فى طريقه، وفى يده فخذ الديك. وإذ شاهد الملك، توقف عن المسير، وحياه فى احترام. غير أن الملك لم ينتبه له ولا اهتم بتحيته، بل انطلق يصخب وهو يضغط أسنانه غيظا ويقول:

– بئس ملك يفضله الفلاح شأنا. أما كان على عبيدى أن يأتونى الآن بالعشاء، بدل أن يتركونى هكذا منذ ساعتين لاأستطيع سد رمقى..!

واقترب سارا من الملك الذى سأله مقطبا حاجبيه:

– ماذا تريد؟

وأجاب الفتى الصغير، وهو يلوح بيده وقد ظهر فيها فخذ الديك:

– قد سمعت ماقلت. فإذا شئت يامولاى أن تمنحنى حصانا على سبيل المقايضة، شكرت القدر الرائع الذى جاء بى إلى هذا المكان.

وأطل الملك إلى فخذ الديك فى غيظ.. ثم فجأة، أغرق فى الضحك وهو يمد يده إليه ويقول:

– خذ من الخيل التى يحرسها عبيدى أى جواد يروقك.. فهديتك هذه الساعة جد ثمينة بغير شك. هيه.. ألا ماأطيب لحم هذا الديك..!

وانطلق الفتى إلى حيث حرس الملك، وتخير من بين الجياد فرسا أشهب، أسرع به إلى حيث أخويه اللذين راحا يطلان إليه مشدوهين وقال سارا:

– انظرا ياشقيقى.. جئت لكما بجواد أشهب، لاهو بأسود ولاأبيض ولابنى.. ولكن لونه مزيج من كل تلك الألوان التى طلبتموها مجتمعة..!

وصاح الأخوان:

– ألا ماأجمله من جواد. هلم نهتم به ونرعاه، فإنه سيخفف عنا المسير صباح كل يوم إلى المزرعة.

ولكن الفتى أطل إلى أبيه وهو يقول:

– ومع هذا فلن أحتفظ به.. بل سأبدله غدا بشئ جديد.

وصرخ الأخوان يهاجمانه، فماكانا ليقبلا أن يضيع الجواد الرائع مهما كانت قيمة بديله. وانطلقا يسبان شقيقهما ويتهمانه بالجنون، ويهددانه بالطرد من الدار إن هو أقدم على ذلك التصرف السيئ الخبيث.

غير أن سارا لم يهتم قط بكل مافعله أخواه، بل انطلق ذات صباح باكر، قبل أن ينهض الاخوان فيمتطيا الجواد، ومضى يقوده إلى خارج القرية. ولم يكد سارا

يبتعد عن الدار، حتى شهد امرأة الصياد «كومبا» وهى تجلس ومن حولها سبع قطط صغار.

وقال سارا يخاطب امرأة الصياد:

– أتقايضين بحصانى هذه القطط التى تجتمع بقربك؟

وأغرقت المرأة فى ضحك وهى تقول:

– حصان بسبع قطط.. أتهزل أم تجد..!؟

قال سارا:

– بل أجد كل الجد..

وترددت المرأة وهى تتأمل الفتى وتتصور مدى بلاهته. غير أن الهدوء والجد اللذين أبداهما سارا أخرجاها من ترددها. ولم تجد مايمنعها من أن تضع القطط فى كيس صغير دفعته إلى الفتى.. وهى تتناول باليد الأخرى زمام الجواد.

ومضى الفتى فى طريقه إلى خارج القرية..

وانقضت أيام عشرون، والفتى يواصل السير فى طريق يجهله. ينام كل ليلة فوق شجرة لاتقاء الوحوش، وينهض النهار ليقطع الطريق وهو يتبلغ بين الحين والحين بثمرة من ثمرات الغابة. ووجد نفسه آخر الأمر فى قرية أجدبت منها الأرض، ولم يعد ثمة أثر فيها لحياة قط، عدا سكانها الذين بدوا فى أردية بالية، وثياب خلقه، وعبوس يسيطر على كل الوجوه..

وفوجئ سارا بذلك المنظر أمامه. غير أن ماأثاره كان تلك البسمات الساخرة التى بدت على وجوه القوم وهم يتحولون إليه.

واقترب الفتى من أحد الشبان يسأله سر تلك السخرية التى يعاملونه بها.

وأجاب الرجل:

– إنما نسخر لذلك الكيس الذى تحمله فوق ظهرك وكأنك تحمل كل كنوز الأرض..بينما هو فى الحقيقة لايساوى وقوفك هنا ساعتين.

قال سارا:

– ولم ذلك؟ لعلكم نشلتم مافيه؟

أجاب الرجل:

– كلا، ولكن لأن الفيران هنا كثيرة ضخمة كمثل الفيل ولو أنك وضعت هذا الكيس على الأرض لانقضت عليه ولم تبق منه شيئا أبدا. ألا ترى كيف أصبحت ثيابنا وغلالنا وأرضنا التى كانت مثل الجنة ذات يوم. إننا لانجرؤ على النوم قط إلا وإحدى عيوننا مفتوحة خوف أن تنقض الفيران على أجسادنا التى لم يعد لنا سواها..!؟

وفتح الفتى عينيه وقد ملأت رأسه فكرة رائعة، ماأسرع ماحولها إلى كلمات:

– كم من العبيد تعطونى لو جئتكم بالوسيلة التى تعيد إليكم الهدوء والسكينة؟

وتبادل القوم النظرات، وفى عيونهم مظاهر الجد والاقتناع:

– لو جئتنا بتلك الوسيلة حقا، فلن نبخل عليك بأى عدد من العبيد تريد.

– حسنا.. لنبدأ على الفور..

ووضع الفتى كيسه على الأرض، ثم فتح فوهته. ولم يكد يفعل حتى انطلقت من داخل الكيس سبع قطط مليئة، راحت تثب هنا وهناك، بينما القوم يتابعون حركاتها باستغراب كبير.. خاصة عندما وجدوا الفيران التى كانت من قبل تطل فى جرأة هائلة برءوسها من فتحات الجحور، تختفى كلها فى لحظات.. أو تكاد..!

وكانت القطط أسرع من الفيران المذعورة الهاربة . فمع الكر والفر فوجيء القوم بكل قط بين أظافره فأر مخنوق يلقى به بعيدا ليسرع من جديد إلى صيد أخر ثمين..

وانطلقت الهتافات تحيى سارا وقططه السبعة، وهتف زعيم القرية:

–ما الذى تريد أيها البطل مقابل هذه الهدية الرائعة؟

أجاب سارا:

- سبعة عبيد مقابل كل قطة ..!

وكان الطلب رخيصا جدا لو قيس بالنعمة التى هبطت عليهم من السماء. وعندما انطلق سارا عائدا إلى بيت أبيه، كان فى ركابه تسعة وأربعون من العبيد الأشداء.!

وفتح الأخوان عينيهما دهشة، ولم يفعل سارا أكثر من أن يطل إليهما، ثم يتحول إلى أبيه ويقول:

- أرأيتم كيف قايضت ولم أخسر.. إبرة واحدة بتسعة وأربعين عبدا..!

قال راماو الأكبر:

- حقا.. إنك لأشد فطنة وتدبيرا منا جميعا.

وأضاف راماكى الذى يصغره:

- وإنك لبكر الثلاثة حقا بيننا.. وهاهم العبيد يفتحون أمامنا باب الثراء.

هز سارا كتفيه وقال لأخويه:

- لاتكونا متسرعين، ولكن كل ماأرجوه ألا تتعودا الكسل والاعتماد عليهم فى قضاء كل أعمالنا. ففى نيتى أن أستبدلهم بشئ أخر أشد نفعا وأكثر أهمية..!

وهتف الجميع:

- تقايض أيضا.!؟

أجاب سارا:

- أجل.. سأقايض على العبيد كلهم بعد شهر بشئ جديد..

وصاح راماو وعلى وجهه أدلة الغضب:

- أسمعت ياأبى كل ماقاله سارا؟ يريد هذا المجنون أن يقايض كل هؤلاء بشئ واحد.!

وهتف راماكى وهو يطل إلى أبيهم العجوز:

- يريد أن يهوى بنا إلى الحضيض. إنك إذا لم تلعنه وتطرده فسيحول حياتنا كلها إلى جحيم..!

وأطل الوالد فى هدوء إلى ولده. ثم راح يربت على كتفه، وقال وكأنه يحدث نفسه:

– ليعمل سارا مايشاء.. ولتكن السماء فى عونه.!

انطلق سارا بمعونة عبيده يقيمون دارا ضخمة ذات أربعة أجنحة تكفى الأسرة كلها. وما كاد العبيد يتمون ذلك العمل خلال أيام قليلة حتى مضى بهم الفتى إلى الغاب يحتطبون مايمكن اختزانه لمدى غير قليل، كما راحوا فى الوقت نفسه يحرثون الحقل ويزرعونه، ويتعهدون الزرع كل يوم.

وبدا للأخوين كأن شقيقهما أحس بمتعة ملكية العبيد واستغلال جهودهم، فعدل عن الفكرة التى أزعجتهما، وعندما أطمأنا إلى ذلك راحا يستغلان الفرصة ويتمتعان بلذة الأمر والنهى وإنزال العقاب المستمر الصارم بالعبيد، الذين بدأوا يحسون الفارق الكبير بين سارا وأخويه، وإن لم يحاولوا أبدا أن يثوروا على ماهم فيه.

على أن الأخوين ظلا مع كل ذلك فى خوف دائم من أن يحاول سارا تنفيذ قراره، فيذهب بالعبيد التسعة والأربعين ليقايض بهم على شئ واحد.

وقال راماكى:

– أنا أعرف مقدار خبثه. إنه يريد أن ينفرد بالثروة كلها. وبدلا من أن تكون أملاكنا جميعا فى حالة تسمح بتقسيمها بالتساوى، يحاول الآن أن يجعلها شيئا واحدا حتى يستولى عليها وحده.

وهز راماو رأسه وهو يقول.

– صدقت أيها الشقيق الذكى.. إنه يريد تجميد الثروة فى شئ واحد يغلو ثمنه ويخف حمله حتى يهرب من هنا ويتركنا مفلسين.. فما الذى تقترح أن نصنع؟

أجاب راماكى:

– وهل تريد أن ننتظر حتى يضيع الوقت؟ أتظن أمامنا سوى أن نتخلص منه، ونفوز نحن بالثروة ونقتسمها بيننا؟

وفكر الاثنان قليلا، ثم هتف راماو من جديد:

– وجدتها..

واستفسر راماكى:

– هيه.. ماذا وجدت!؟

قال راماو:

– أترى تلك البئر العميقة التى طالما مررنا بها ونحن فى الطريق إلى المزرعة؟ مارأيك أن نلقى به فيها.. فنتخلص منه ونعود لاقتسام العبيد؟

وسكت أخوه وقد جذبت الفكرة اهتمامه. ثم ابتسم فى بهجة وهو يقول:

– نعم الرأى.. هلم بنا.

وانتظر الأخوان حتى حان وقت العودة من المزرعة. وانطلق الإخوة الثلاثة فى الطريق إلى الدار. غير أن الأخوين راحا يبدآن حديثا غريبا وهم يقتربون من مكان البئر، وراحا يتساءلان عن عمقه، ويتراهنان حول المدى الذى يبلغه هذا العمق. واشتد بينهما الرهان وارتفعت القيمة التى راح كل منهما يراهن بها. وعندما بدا كأن الأمر قد كاد يتحول إلى معركة، تظاهرا بأنهما على استعداد لقبول حكم أخيهما سارا.. ولم يجد الفتى الصغير مايمنعه من النزول إلى البئر بحبل أمسك أخواه بطرفه حتى يقيس العمق ويفصل فى الرهان.

ولم يكد سارا ينحدر داخل البئر حتى فوجئ بكل جسده يهوى بقوة إلى العمق الرهيب، بعد أن ترك الأخوان طرف الحبل، ولم يعد يسمع صوت الفتى على الإطلاق.

ومضى الأخوان وهما يفركان أيديهما فرحا لتخلصهما من سارا. وماكادا يصلان الدار حتى جمعا العبيد التسعة والأربعين وراح كل منهما يختار واحدا فى جانب ويرسله إلى جناحه مقابل من يختاره أخوه. واستمرا فى العد حتى بلغ عدد العبيد فى كل من الدارين أربعة وعشرين عبدا..

وأطل الاثنان فإذا بعبد واحد لايزال يتوسط المكان.

وقال راماو الأكبر:

– هذا العبد يجب أن يكون لى.. بحكم السن.

وهتف راماكى:

– ولماذا لايكون لى أنا.. خاصة وأنى صاحب فكرة اقتسام العبيد؟

أجاب راماو فى جفاء:

– إذا كانت فكرة اقتسام العبيد تعطيك الحق فى الحصول على العبد الزائد.. فأنا أحق منك لأن هذه القسمة لم تكن ممكنة لولا فكرتى بإلقاء سارا فى البئر.

واحتدم الصراع بين الأخوين. وبدأ يتشابكان ويتضاربان. وعلا صراخهما بينما العبد يحاول تهدئتهما بقدر مايستطيع من جهد. وإذ ظل الخلاف محتدما قال العبد يخاطب الشقيقين:

– لدى اقتراح لو أخذتما به لوضعتما حدا للخلاف..

وهدأ الشقيقان قليلا.. وأطلا إلى العبد ينتظران اقتراحه:

– لأكن من نصيب من يستيقظ منكما قبل الأخر عند الفجر.!

فأطل الشقيقان كل منهما لأخيه.. ثم هزا رأسيهما فى رضى.. وأمرا العبد بالبقاء بين الدارين حتى ينبلج الصباح.

ومضى من الليل نصفه، والعبد يستعيد فى رأسه كل مادار من حديث بين الشقيقين..

وتذكر فجأة ذلك المصير الذى انتهى إليه سيده الطيب سارا. وخطر له أن يمضى إلى البئر ومعه حبل لعل فى حياة سيده بقية.

وفى هدوء، انطلق العبد فى الطريق إلى البئر، وأصاخ بسمعه، فإذ أنين ينطلق من القاع أدرك معه أن سارا لايزال حيا. وأسرع إلى الحبل يلقيه حتى القاع.. ويجذبه من بعد بينما سارا متعلق به.. وقد عاد إلى الحياة من جديد..!

انطلق سارا ومعه الفتى الذى أنقذه، وسارا إلى الدار والظلام لايزال يشمل الكون.

ومضى الفتى إلى زملائه العبيد يطلقهم كلهم ليسيروا جميعا فى صمت مع سيدهم الطيب هاربين بعيدا عن الدار.. وعن القرية كلها.

ومضى الليل وأعقبه نهار.. ثم مضت أيام أخرى كثيرة بلغ سارا ومن معه بعدها أرض الشمال.. حيث مقر الملك الذى ماكادوا يبلغونه حتى عرفوا أن صاحبه الملك «ماهان أولى» قد مات فى نفس اليوم.

لم يكن سارا يعرف شيئا من قبل عن حياة الملك أكثر من أنه كان أول من قايضه حصانا بفخذ ديك. غير أنه عرف بعد ذلك من سكان القرية أن الملك مات بطريقة تثير الشك، فقرر فى نفسه أن ينفذ فكرة خطرت ببالِه، وأن يستبدل بعبيده جثة الملك الذى مات متأثرا بسم دسه له وريثه.

والحقيقة أن «ماهان أولى» لم يكن قد تزوج بعد. فماكان له أبناء يرثون الحكم بعده. وكان الذى ورثه على العرش أخوه الذى كان يحقد عليه من قبل؛ والذى لم يكد يسمع عرض سارا بمقايضته جثمان الملك الراحل بعبيده التسعة والأربعين حتى فرك كفيه فى ارتياح وهو يقول له:

– لامانع لدى.. فأى نفع لجثة ميت!؟ إنها لاتصلح لشئ أبدا. علاوة على أن ماهان أولى ماكان أحسن حالا فى حياته من موته. خذ الجثمان إذا شئت.. وهات العبيد..!

وانطلق العبيد إلى مزارع الملك الذى جلس على عتبة البلاط الملكى ينتظر بفضول غريب ماالذى يمكن أن يفعله هذا الفتى الأحمق بجثة ملك ميت.

أما سارا، فقد انطلق بالجثمان إلى ساحة القرية، وسجاه على أرض الساحة بعد أن جعل فى معصميه سلسلة غليظة، ثم نهض ليدور حول الجثمان صارخا فى صوت ملئ بالحزن والأسى:

– أيها الناس.. هذا هو ملككم الطيب ماهان أولى.. الذى كان يرعاكم رعاية الأب الصالح. انظروا كيف فعل به خليفته إثر موته. فعامله كأحقر العبيد وباعه لأول غريب بعد أن جلس على عرشه.. أليس بينكم أيها الناس من يذكر نعم ماهان أولى؟

وربما لم يكن ماهان أولى كاملا بقدر ماطاب لسارا أن يقول. غير أن الموت كان يحيط جبين الميت بإكليل من النور والرهبة أثار شفقة الناس عليه وحقدهم على المتآمر به.

وراح الناس يتدافعون لينظروا جثة الملك الطيب الذى بدا أمامهم فى ذلك الوقت وكأنه قديس. وبدأت الهمسات ترتفع لتصبح همهمات، ثم صيحات فيها كل الرغبة فى الانتقام، وارتفعت أصوات:

– لننتقم من القاتل..

وقال آخرون:

– لننتزع السلطة ممن اغتصبها..

وهتف البعض:

– ينبغى أن نرغم المعتدى على احترام ماهان أولى القديس.

وعلت صرخات جديدة:

– بل يجب أن نقرب الملك القاتل ذبيحة للروح التى دنسها.

وردت عليها الصرخات الهادرة هتافات ساخطة:

– أجل.. لننتقم لمليكنا..

– فليقتل القاتل..

– لنتخلص من المعتدى الجبان..

وفى تلك اللحظات، لم يكن الملك الجديد ليصدق عينيه وأذنيه وهو يشهد هذا التحول الذى بدا عليه الشعب. وماكان ليتصور قط أن مقايضته جثة الملك بالعبيد ستكشف سره وتثير عليه سخط الشعب. وملأ وجهه شحوب مميت، ووجد ساقيه عاجزتين عن حمله وهو لايزال بعد على عتبة القصر.

ولكنه تحامل على نفسه بالرغم منه. وانطلق مهرولا إلى داخل البلاط يدعو حرسه وحاشيته، ولكن صوته المذعور لم يستطع أن يجمع حوله أحدا من رجاله. فقد كانوا كلهم قد انطلقوا هاربين منذ ملأت أسماعهم صرخات الشعب.

وتردد الملك لحظة. غير أن الباب كان فى تلك اللحظة نفسها يرتج تحت ضربات الجماهير. وأسرع الرجل فى ذهوله ورعبه يجمع ماخف وغلا من الكنز الملكى. ثم امتطى أسرع جياد القصر. ومن فتحة السور الخلفى انطلق ينهب الأرض متجها إلى الغابة.

وارتفع صوت سارا فجأة:

– انظروا إيها الناس. لقد هرب الجبان. أرأيتم أى ملك ذلك الذى ورث عرشكم؟ ولكن لتنتظروا وتخففوا من سخطكم ياسادة. فلايزال أمامنا الآن واجب أهم.. هو أن نهتم بجنازة ماهان أولى.. ولتكن جديرة بذكراه.

وكان سارا أول من انحنى على الجثة.. وأول من قام بأداء المراسم المطلوبة لجنازة عظيم.

وتبعه الشعب.. وراح يستمع إلى أوامره فى هذوء غريب..

وخلال يومين، كان سارا قد أتم إعداد ترتيبات الجناز الملكى بطريقة أثارت دهشة الجميع. وبدأ الناس يتأملون ذلك الفتى الشجاع الذى عرف كيف يسيطر على النظام ويحفظه، ويجزل العطاء لأشد الناس فقرا من أموال الملك الهارب..

وراح الناس يتابعون تلك الأوامر التى راح الفتى يصدرها لتنفيذ أعمال كثيرة طالما تمناها الشعب ولم يحصل عليها.. كإنشاء طرق صالحة للتنقل وحفر آبار جديدة فى مناطق كانت من قبل ملهوفة إلى نقطة ماء..

من أجل ذلك لم يكن غريبا حين اجتمع الشعب ليختار من يجلس على العرش، أن ارتفعت الأصوات كلها فى وقت واحد:

– سارا.. سارا..

ولكن الفتى هز رأسه وهو يقول:

– شكرا لكم أيها الأصدقاء الذين اخترتمونى وأنا غريب بينكم وآثرتمونى على من هم من نسلكم ومن أبناء بلدكم. غير أنى مع ذلك مازلت حدثا بعد لا أقوى على

تحمل أعباء الحكم. فإذا كنتم مصرين على اختياركم فسأجيئكم بأبى، فلديه الخبرة التى تعوزنى ولديه من السن مايجعله محبا للسلام يعطيه ويحفظه للرعية.. وسأكون أحد وزراء أبى.. أعاونه وأساعده فى المهام التى تعهدون بها إلينا..

وهتف الشعب طويلا لسلوك الفتى الرائع. ونهض كبارهم ليكونوا ضمن بعثة الشرف التى ذهبت لتأتى بوالده إلى حيث يجلس على العرش..!

وإذا كان شقيقا سارا قد امتلآ حسدا وحقدا على أخيهما حين علما بما كان.. إلا أن الرعب كان قد استولى عليهما وهما يتصوران مقدار الانتقام الذى سينزله بهما سارا بعد أن كشف جرمهما.

على أن سارا كان صاحب قلب كبير.. حتى أنه تغاضى عن الجريمة التى ارتكباها فى حقه، تماما كما تغاضى عن جريمة الملك المعزول الهارب. فلم يكتف بالعفو عنهم جميعا، بل أرسل اليهم من العبيد عشرات، ومن قطعان الثيران والبقر مئات عديدة، كان فيها الكفاية لتخفيف حدة الحسد والشراسة التى أكلت منهم الأكباد.

أما الملك الجديد.. فقد جلس على العرش يحكم بالعدل بمعونة سارا. وعندما تخلى عن سلطاته لولده بعد أعوام.. كانت الجملة الوحيدة التى قالها له:

– تسلم العرش يابنى.. فهذه هى المملكة التى استحققتها بإبرتك..

وإنها لقصة يرويها الاقدمون!

التوأمـــــــان

حكاية من غانا

هناك على قمة الغمامة (كرال) كان يعيش الإله نيامى. وكان يملك قطيعا من الماشية وحقلا جميلا، ولكن أحدا قط لم يكن يشاركه هذا الثراء.. وفكر آخر الأمر أن يتخذ زوجة. وأثارت هذه الأنباء هرجا ومرجا بين العذراوات اللاتى يعشن فوق السحب.. فلبسن العقود والخلاخيل.. وتدهن بالزيوت فوق أجسادهن ليزداد جلدهن بريقا.. على أمل أن يجتذبن أنظار الإله.

وكان من بينهن أربع صبيات غاية فى الملاحة والجمال حتى أن نيامى وجد من الصعوبة عليه أن يفضل أيا منهن على زميلاتها. وراح يتأمل عروضهن ليختار.

وكانت أولاهن قد وافقت على أن تكنس له الحقل وتنظفه وتنظم له البيت وترتبه إذا هى أصبحت زوجة الإله. وعرضت الثانية أن تغزل جبلا من القطن، وتذهب إلى النهر كل يوم لإحضار الماء إذا تزوجها نيامى. أما الثالثة - وهى أكوكو - فقالت إنها ستطبخ أنواعا رائعة من الأطعمة ولاتشكو أبدا مهما بلغ عدد الذين يحضرون الولائم ولو جاءوا بغير دعوة.

وفكر نيامى: « ماذا هناك أكثر من أن يرغب الإنسان فى امرأة لاتشكو أبدا». وقرر أن يتخذ أكوكو زوجة له. وقبل أن يعلن قراره تكلمت الفتاة الرابعة:

- تزوجنى أى نيامى.. وسأعطيك ابنا من الذهب الخالص.. وولدا من الفضة أيضا.

ولم يكن أمام نيامى إلا أن يقبل العرض المغرى.. وأعلن قراره بالزواج من الفتاة الرابعة.

ولم تكن أكوكو لتطيق أن تضيع منها الفرصة التى كانت قلب قوسين منها. وامتلأت حقدا مريرا وإن تظاهرت بالسرور، تماما كما ظهر على الفتاتين الأخريين للحظ السعيد الذى أصاب صديقتهن.

وبعد وليمة العرس، عندما ذهبت عروس نيامى لتعيش فى المزرعة الواسعة، كانت أكوكو تزورها كل يوم. وبرغم أنها بدت كأنها معجبة ومحبة للفتاة، إلا أنها

كانت قد اعتزمت لها شرا.. وإن كانت مرغمة على الصبر والاحتمال طالما كان نيامى يطوف بالمكان، فما كانت لتجلب على نفسها نقمة الإله.. الذى كان ذا مزاج حاد إذا أثير.

وفى خلال عام.. انجبت زوجة نيامى توأمين طفلا وطفلة.. ولكن الأول كان من ذهب والثانية من فضة. وامتلأ نيامى فخرا بولديه فما كان هناك مثله أب قط. وذهب ليشرب فى صحة ولديه مع الآلهة الأخرى فوق السحابة المقدسة.. مطمئنا إلى سلامة عائلته فى رعاية أكوكو. ولم يكد يمضى، حتى انطلقت المرأة الغادرة إلى التوأمين فوضعتهما فى سلة، وأخفتهما فى جوف شجرة.. وأحضرت ضفدعين قبيحين فوضعتهما على سرير الطفلين..

وعاد نيامى وهو مشوق إلى طفله وطفلته الحبيبين. فوجد مكانهما الضفدعين.. يحملقان إليه من خلال الفراش..

وأرسل الإله فى طلب أكوكو، وهو يصخب ويضج.

وصرخ نيامى:

– ماالذى حدث لطفلى؟

ورفعت أكوكو يديها فى استغراب ساخر. وقالت:

– أوه.. ألم تقل لك زوجك، كما قالت لى، إن الطفلين الذهبى والفضى قد يتحولان إلى ضفدعين إذا مر عليهما اليوم الرابع!؟ إن هذا هو المتوقع عادة للأطفال المصنوعين من الذهب والفضة. فهم شواذ على اية حال..

وزمجر نيامى:

– إذن لقد خدعتنى الغادرة.. وكان أجدى لى أن اتزوج واحدة من الأخريات.

وألقى الضفدعين إلى جوار شجرة. وقذف بزوجته المسكينة التى لم تفهم سر ماحدث إلى السحابة السوداء.. بينما مضت أكوكو سعيدة راضية إلى دارها..

ولكن الطفلين برغم أنهما من ذهب وفضة.. كانا يستطيعان البكاء والعواء.

وعندما كانا ملقيين إلى جوار الشجرة صرخا فى يأس.. وبينما كان أحد الصيادين يتجول بالقرب من الشجرة بحثا عن صيد، وفى يده رمحه، شرع الرمح وهو يظن أن الصوت صادر من وحش رهيب. وعندما اقترب سمع الصوت رفيعا صغيرا، ووجد السلة تتحرك وتهتز إلى تجويف الشجرة.

واقترب الصياد ورفع الغطاء فى رجفة وهو يتراجع خوفا من أن يقفز فى وجهه شئ غريب. وعندما لم يجد أكثر من طفلين صغيرين، وعيون دامعة صغيرة تحملق فيه، مد يديه ورفع الصغيرين. وفتح عينيه فى دهشة وهو يطل إلى البريق الغريب الذى يتألق من كل منهما فى ضوء النهار.

وانطلق الصياد بالوليدين الرائعين إلى كوخه الطينى البسيط المتواضع. وعندما وضعهما على الفراش.. فوجئ بكفيه وقد امتلأ بتراب الذهب والفضة..

وفى اليوم التالى.. بينما كان الطفلان يحبوان على أرض الكوخ.. كانا يتركان آثارا من تراب المعدنين الغاليين. وراح الصياد يكنسه ويجمعه ليكون منه ثروة، لم يحلم بها من قبل.

ولم يكن من المعقول أن يخطر للصياد أن يتنازل عن التوامين الرائعين.. ولاكان يهمه أن يبحث عن مالكهما الحقيقى برغم انه كان على يقين من أنهما ملك لشخص معين، وإن كان يجهل من يكون.

ولم يكن ذلك فى الواقع من الأمانة فى شئ. ولكن الحقيقة أن الصياد اعتنى عناية كبيرة بالتوأمين، وعاملهما معاملة غاية فى الرفق والحنان.

ومضت ست سنوات، وكبر الوليدان وأصبحا صبية وصبيا راشعين. وأصبح الصياد غاية فى الثراء حتى أن بيته أصبح مليئا بالذهب والفضة، وأصبح بريقه يبدو واضحا على بعد أميال كثيرة مع ضوء النهار.

وحدث أن الإله نيامى نفسه رأى الأشعة على ضوء النهار. فتتبع مجرى الشعاع حتى بلغ بيت الصياد. وكان الصياد يجلس خارج الدار ومعه التوأمان الذهبى والفضى.

وسأله نيامى:

- أين وجدت هذين التوأمين الجميلين؟ إنهما يشبهان كل الشبه ولدى اللذين فقدتهما وتحولا إلى ضفدعين.

وبدا للصياد أن نيامى لابد أن يكون والد هذين الثروتين الرائعتين.. ولكنه كان قد قرر ألا يدعهما فقال:

- إن هذين ليسا ضفادع.. ولكنهما ولدا شقيقة زوجتى.

وقال نيامى وهو يتأملهما:

- ولكنهما مصنوعان من الذهب والفضة.. إن الآلهة فقط هى التى يمكن أن يحدث لها ذلك.

ولكن الصياد هز كتفيه وهو يخطئه.. وقال:

- إنه ضوء الصباح الباهر هو الذى يتألق على جلد الطفل حتى يبدو كأنه من ذهب..

- وهذه الطفلة الفضية.. إنها دون شك ابنتى..

- أبدا.. إنه الضوء البارد الباهت الذى يشع ويأتى من التلال البيضاء الجنوبية هو الذى يلمع على جلد الطفلة فتبدو كأنها مثل الفضة..

وهز نيامى كتفه فى يأس.. واستدار ليمضى..

وفجأة.. أطل فإذا ذرات تحت الطفلين قد تناثرت. ومد يده فتحسس بأصابعه التراب.. فإذا بها تخرج وعليها آثار المعدنين النقيين. وعندئذ أيقن نيامى أنهما طفلاه الضائعان.. وأيقن الصياد أن اللعبة قد انكشفت وأخذ نيامى الطفلين. وكان يمكن أن يعاقب الصياد لكذبه، لولا الصبى الذهبى الذى كان له قلب من ذهب، فتوسل إلى أبيه ليعفو عن الرجل الذى عاملهما بكل رقة وحنان. وعندئذ انفرجت أسارير نيامى.. خاصة عندما وقفت الطفلة الفضية على يديه.. وسارت عليهما. فابتسم الإله وعفا عن الرجل.. لقد كان للطفلة مزاج فضى أبيض يجعل أى إنسان يبدو مرحا.

وعندما أخذ نيامى ولديه إلى داره، أرسل يستدعى أكوكو، التى وجدت الطفلين سليمين على قيد الحياة.. فسقطت على ركبتيها تطلب المغفرة. ولكن الإله الذى تأكد أن الوجه الجميل يخفى فى أعماقه نفسا خبيثة. قلب المرأة إلى حية قبيحة بشعة يمكن لكل من يراها أن يلمس خبثها..

وأرسل الإله إلى زوجته. وليخفف عنها ماقاسته، من الظلم، منحها وصيفة جديدة تخدمها..

أما التوأمان فقد أصبحا عند شبابهما هما الشمس والقمر، اللذان يطلان من قمة السماء بين الليل والنهار.. حيث تزوجا فى رعاية الآلهة.. وأنجبا ابنة رائعة الجمال عاشت معهما فى السماء.

فى ذلك الوقت كان هناك على ظهر الأرض فتى يسمى كياتومبا.. كان يأبى الزواج ويقول لأبيه كل يوم:

– فى الحقيقة ياأبى.. لاتوجد على ظهر الأرض المرأة التى يمكن من أجلها أن أتخلى عن حريتى.

ولكن اباه كان زعيم القبيلة.. وكانت كلمة الزعيم هى القانون وقال أبوه فى ضيق:

– اختر فتاة من السماء.. إذا لم تكن نساء الأرض كلهن فيهن الكفاية..

وقال كياتومبا وهو يحدث نفسه:

– أوه.. هل للشمس والقمر بنات حقا..!؟

أجاب الأب:

– أجل.. للشمس والقمر إبنة بالفعل.. اذهب فتزوجها إذا استطعت.

وكان واضحا أن الزعيم يعلم جيدا أنه لن يستطيع. ولكن كياتومبا كان لابد أن يظهر أنه يستطيع..

وكان أول مافعله هو أن اقترب من الصقر.. الذى كان رفيق صيده العجوز وقال له:

– أيها الصديق الصقر.. لقد قررت أن أتزوج ابنة الشمس والقمر. وأجاب الصقر:

– هذا كل شئ!؟

أجاب الفتى:

– ليس كل شئ تماما، ولكنى أتساءل، هل تكون بالفعل طيبا وصديقا حتى تطير إلى السماء وتستأذن لى من أبيها!؟

وأجاب الصقر محذرا:

– إنك تنتظر أكثر من اللازم ياكياتومبا. فجناحى اللذان تراهما لايستطيعان الوصول إلى السماء. ولكن حاول مع العقاب.. فربما استطاع مساعدتك.

وعاد كياتومبا إلى الدار حيث كتب رسالة انطلق بها إلى العقاب، وقال له:

– أيها العقاب الصديق.. أتكون طيبا لتطير إلى السماء وتعطى الشمس هذه الرسالة.. فقد قررت أن أتزوج ابنتها؟

وحملق العقاب من فوق غصنه فى عجب وقال للفتى:

– أطير إلى السماء!؟ إن من السهل على أن أسقط على الأرض دون أن أصل إلى مثل هذا الارتفاع. ثم إنه لابد أنك تعرفنى جيدا فلاتفكر فى أنه من الممكن أن أساعد أى إنسان إلا نفسى!

وبذل كياتومبا كل جهوده مع الطيور الأخرى، ولكن أحدا منها لم يكن يستطيع قط أن يطير إلى السماء.

لقد كان واضحا أن أباه كان على حق. وأنه لن يستطيع الزواج من ابنة الشمس والقمر قط.

وأحس كياتومبا يأسا وغما. وجلس فوق صخرة ليقرر موقفه.

وفجأة رأى ضفدعة تقفز أمامه.. وتكاد تصطدم به.. ثم ذهبت تحملق فيه بعينين واسعتين. وقالت له الضفدعة:

– إذن أنت تريد الزواج من ابنة الشمس والقمر؟

– كيف عرفت؟

– إن الكل يتحدثون عن القصة . حسن. هناك شخص واحد يستطيع أن يحمل رسالتك إلى السماء.. ذلك هو أنا

وحملق فى الضفدعة:

– أنت!؟ إنه لم يوجد الطائر الذى يستطيع أن يطير إليها. فكيف بضفدعة غير ذات جناح!؟

– برغم كل ذلك سأفعل.. هات الرسالة.. وسيتسلمها الشمس!

ولما لم يكن هناك شئ غير هذا.. فقد أعطى كياتومبا الرسالة إلى الضفدعة.. وهو فاقد الأمل فى إمكان وصول الرسالة إلى السماء.

وعلى أية حال.. فقد كانت الضفدعة تعرف شيئا أو اثنين.. وكان أحد هذين الشيئين هو أن وصيفات الشمس والقمر تهبطن من السماء مع كل يوم ليأخذن ماء.. فقد كانت البئر التى تذهب إليها الجارية هى نفسها بيت الضفدعة.

ووقفت الضفدعة فى انتظار الوصيفات حاملة فى فمها الرسالة– حيث كن يهبطن على إحدى السحابات من السماء. وعندما اقترب أحد الأباريق من الضفدعة قفزت فيه.. حيث صعدت إلى السماء على كتف إحدى الوصيفات التى لم تحس شيئا قط.

وهناك فى السماء، وضعت الوصيفة الإبريق، وإن كانت الضفدعة لم تكن مرتاحة تماما لتغير الجو..

واقتربت الضفدعة من حافة الإبريق. وتلصصت ببصرها فرأت الغرفة مليئة بأشعة دافئة جميلة. فقد كان الشمس قد حضر بنفسه ليطفئ عطشه المحرق. وعندما لمح الرسالة فوق المائدة فتحها فى عجب وراح يقرأها.

وصرخ الشمس:

– من هو هذا الذى يطلب يد ابنتى.. دون أن يقدم البائنة التى تستحقها!؟ شئ غريب.. أنا لم أسمع من قبل مثل هذا الطلب ولن أسمح!؟

وارتفعت الحرارة واشتدت حتى أن الضفدعة كادت تشوى حية. واستردت أنفاسها عندما مضى الشمس وغادر المكان. وعندئذ استطاعت أن تنتظر إلى اليوم التالى عندما كان على الوصيفات أن يذهبن بجرارهن لملء الماء.

ولم يكدن يصلن إلى الأرض مرة أخرى، ويدلين الجرار فى الماء، حتى قفزت الضفدعة، آمنة إلى بيتها.

وثار عجب كياتومبا وحزنه أيضا عندما قصت عليه الضفدعة مغامرتها. وازدادت به الرغبة شدة وازداد تصميما على زواج ابنة الشمس والقمر. ليس فقط ليثبت لأبيه انه يستطيع، ولكن لأنه كان فتى شجاعا يرحب باجتياز الصعوبات وتحطيم العقبات.

– أيتها الضفدعة الحنون. لقد كنت مجتهدة تماما فى محاولتك الوصول إلى السماء. ولكنى أتوسل إليك أن تكرريها، وتأخذى إلى الشمس هدية مقابل طلب يد ابنته.

ولكن الضفدعة هزت رأسها وهى تتذكر اللحظات التى كادت تشوى فيها لشدة الحرارة.

ولكن اليأس البالغ الذى كاد الفتى ينهار معه، أثار عطف الضفدعة الحنون وشفقتها. فعادت توافق على القيام بالمهمة الشاقة.

وانطلق كياتومبا إلى قريته، وأعطاه الزعيم حقيبة مليئة بالذهب كبائنة لابنة الشمس.

وأسرع الفتى إلى الضفدعة وسلمها الحقيبة مع رسالة جديدة إلى الشمس.

وقفزت الضفدعة إلى بئرها واختفت هناك حتى الصباح فى انتظار الوصيفات الملائكيات الهابطات من السماء.

ومن جديد، تقفزت الضفدعة إلى إحدى الجرار التى أدليت لتملأ ماء. ومعها حقيبة الذهب والرسالة فى فمها.

وكما حدث فى المرة السابقة وضعت الجرار كلها على المائدة. وعندما غادرت الوصيفات المكان، قفزت الضفدعة لتضع حملها على المائدة.

ومرة أخرى ازدادت حرارة المكان بينما كان الشمس يقترب من الحجرة ليطفئ ظمأه. وعندما رأى الرسالة راح يقرأ:

– أيها الملك الشمس. لقد طلبت يد ابنتك مرة ولكن كان عبثا. والآن أنا أرسل إليك حقيبة مليئة بالذهب، أملا فى أن تطفئ هذه الهدية غضبتك منى. هل أمل فى إجابة أخرى راضية، أنا كياتومبا أحد زعماء الأرض.

وصرخ الشمس :

– أيتها البرودة.. كيف يجرؤ أحد على أن يخاطبنى بذلك الكلام؟ إنها ليست أقل أو أكثر من سفاهة.. ثم ماهذا الذى يرسله.. كهدية إلى الشمس الأعظم..؟ قطع من الذهب؟ ألا يعلم هذا الكياتومبا أن كل ماالمسه يتحول إلى ذهب.. وبهذا تكون هديته لاشئ قط.. لاقيمة لها قط..

وأحست الضفدعة كأنها فى قدر من ماء تغلى.. وكادت تختنق لولا أن الشمس غادر المكان ومعه مزاجه الحار.

واستطاعت الضفدعة العودة إلى الأرض فى الصباح فى جرار الوصيفات. تماما كما حدث من قبل.. وإن أقسمت هذه المرة ألا تكرر هذه المغامرة أبدا،

غير أنها التقت مرة أخرى بكياتومبا وقصت عليه ماحدث. وازداد هذا تصميما على تنفيذ رغبته وزواجه من ابنة الشمس.

– سأكتب لأمها القمر.. فهى سيدة.. وربما كانت أشد حنانا وعطفا من الأب.. أما أنت أيتها الضفدعة الشجاعة فلاشك أنك ستقبلين أن تفعلى من أجلى هذا الجميل، فتأخذى رسالة إليها مع حقيبة من الفضة هدية لها.

وهتفت الضفدعة رافضة الرجاء:

– إبحث لنفسك عن رسول أخر..

- لايوجد من يطاولك ذكاء واجتهادا وشجاعة ليصل إلى القمر مثلك..

ولم تجد الضفدعة بدا من المغامرة من جديد. وأحضر الفتى حقيبة الفضة.. وكتب الرسالة وحملتها الضفدعة لتعيد المغامرة من جديد.. فى إحدى الجرار إلى السماء..

وكما حدث من قبل.. وضعت الجرار على المائدة. وقفزت الضفدعة لتضع حملها على المائدة.

وفجأة.. امتلأت الغرفة بسنا رائع مضئ وامتلأ المكان برودة.. وبدأت الضفدعة ترتعد وتنتفض.

وكانت القمر قد دخلت المكان ولمحت الرسالة وبدأت تقرأ:

- أيتها الملكة القمر لقد طلبت يد ابنتك مرتين. ولكن عبثا. والآن أنا أرسل إليك هذه الحقيبة المليئة بالفضة.. أملا أن تدفئ الهدية قلبك وتلينه من أجلى. هل أطمع فى رد حنون. أنا كياتومبا ابن أحد زعماء الأرض.

وأحست الضفدعة وكأنها قد وضعت فى ثلاجة. فما كان أبرد الضوء الذى كان يشع من القمر. وقالت الملكة:

- أيتها الحرارة، كيف يجرؤ أحد على مخاطبتى بتلك اللهجة. إنها سفالة ثم ماهذا الذى يرسل هدية إلى ملكة القمر العظيمة.!؟ قطع من الفضة؟ ألا يعلم هذا الفتى أن أى شئ ألمسه يتحول إلى فضة!؟ وبذلك تكون هديته عديمة القيمة تماما!؟

ومضى وقت ليس بالقليل قبل أن تستعيد الضفدعة صوابها وتعود الحرارة إلى جسدها الذى كاد يتجمد. ولكن اليأس لم يأخذ بها هذه المرة. فلم تكد تحس أن الجو قد أصبح خاليا، حتى قفزت من مكانها وانطلقت تبحث فى كل غرفات الدار حتى دخلت غرفة وجدت فيها ابنة الشمس والقمر.

كانت نائمة.. فقد كان الشمس قد ذهب لينام. وتناولت الضفدعة ورقتى شجر سحريتين جلبتهما معها من الأرض، ووضعتهما على عينيها المغمضتين. ثم عادت مسرعة إلى الحجرة الأولى وقفزت إلى داخل الجرة.

وفى الصباح، عندما ذهبت الوصيفات إلى الأرض ليملأن الجرار كانت الضفدعة فى إحداها. ولكنها هذه المرة لم تضع وقتا قط، بل أسرعت إلى كياتومبا فأخذته معها إلى البئر ووعدته بأن عروسه ستحضر قريبا جدا إذا هو انتظر بعض الوقت.

وهناك فى السماء.. عندما حان موعد استيقاظ ابنة الشمس من نومها كانت عاجزة عن الإبصار. ومع حزن الشمس والقمر الشديد لإصابة ابنتهما بالعمى لم يتمكنا من تصور حقيقة الأمر. ذلك لأن ورقتى الشجر السحريتين كانتا غير مرئيتين.. ولم يكن أحد يدرى شيئا عنهما قط عدا الضفدعة.

وأرسل الوالدان الحزينان خدمهما إلى الطبيب الساحر، الذى وضع على رأسه قناعه السحرى وانطلق إلى هذه الحالة الخطيرة. وأطل إلى وجه الصغيرة.. ولكنه كان عاجزا أيضا عن رؤية ورقتى الشجر. ولم يستطع أن يصنع شيئا قط لعلاج الأميرة.

ولكنه كان لابد أن يقول شيئا حتى لايبدو عاجزا.. فأعلن أن الأميرة واقعة تحت تأثير سحر رهيب..

وقالت القمر:

- هذا السحر جاءنا دون شك فى الرسائل القادمة من كياتومبا.

وأنبئ الساحر بطلب الشاب المرسل من الأرض.

وقال الساحر:

- لاشك أن السحر جاء عن طريق ذلك الفتى الأرضى. وإننى أنصح أن تسمحا له بالزواج من ابنتكما.. إذا أردتما أن تفتح عينيها من جديد..

ولم يوافق الأبوان على هذا الاقتراح. ولكنهما كانا يحبان ابنتهما كل الحب وكانا يرغبان أن تشفى. وعندما قالت الفتاة بنفسها أنها راضية بالزواج من الفتى الأرضى.. طالما أنه فعل المستحيلات واجتاز المصاعب من أجل الوصول إليها، عندئذ فقط رحب الأبوان وباركا الزواج.

وهكذا لبست الفتاة أجمل الثياب.. المرصعة برموز الشمس والقمر أبويها.. وتلامست أيدى الأبوين لترسلا معا إشعاعات كانت جسرا بين السماء والأرض خطت عليه العروس، وهى تحرك يديها مودعة أبويها، وهبطت بقوة من خلال السحب فى الطريق إلى الأرض. وبينما كياتومبا يقف إلى جوار البئر مع صديقته الضفدعة، رأيا ضوء السماء وذلك الجمال الرائع المنحدر نحوهما. ومن خلال الضوء الباهر هبطت عروس رائعة الجمال. ولم تكد الفتاة تصل إلى الأرض حتى زالت من فوق عينيها الورقتان السحريتان. وبينما عيون الفتاة تلتقى بعيون الفتى ارتعش كلاهما ووقعا فى حب غريب رائع من النظرة الأولى.. وشعر كياتومبا بحريته تضيع.. ولكنه كان ضياعا لذيذا مع ابنة الشمس والقمر.

وعاش كياتومبا مع زوجته بين السماء والأرض.. وراحا ينجبان من الأبناء أولادا كثيرين وبنات.. ظلوا يملأون أجواء السماء وأنحاء الأرض.. حتى جاء وقت ضاق فيه الأبوان من الضجيج الذى يسببه الأبناء خلال انتقالاتهما الكثيرة، فإذا السماء تزداد ارتفاعا وإذا الأرض تزداد ابتعادا. ووجد كل من الأبناء الموجودين هنا وهناك أنهما لايستطيعان الرحيل بعد .

واستقر بعض الأبناء فى السماء فكانوا هم النجوم التى تطل كل ليلة إلى الأض، تسترق البصر إلى الأخوة الآخرين الموجودين هناك على شكل جزر وقارات، والأمل يملأ قلوبهم أن يأتى يوم يستأنفون فيه رحلات الماضى .. بين السماء والأرض.

صديق بوكو

حكاية من الصومال

عندما وقف الملك يطل فى ضيق إلى كل تلك الخطوط المتشابكة التى خطها سحرة المملكة على الرمال، لم يكن يدرى كيف يفعل مع الجميع. فقد كان يعرف جيدا أنهم لايستطيعون أن يكذبوه قط، وأن مايجمعون على قوله لايمكن أن يكون محض صدفة أو افتراء. فقد تعود - تماما ككل من سبقه من ملوك الجنوب - أن يؤمن بالطالع الذى يجتمع عليه السحرة دائما كلما رزق الملك بولد جديد.

وكان هذا هو ماحدث عندما ولد لملك الجنوب ولده بوكو. فقد تجمع كل السحرة من كل أنحاء البلاد، وجاءوا تتقدمهم الطبول وهم فى أبهى الحلل، على رؤوسهم تيجان من ريش متعدد الألوان، وحول أجسادهم دروع من جلود الأفاعى، وعلى وجوههم أقنعة مخيفة تعلوها قرون الثيران وتكسوها قلائد من المعدن والزجاج، تطلق أصواتا كثيرة منغومة كلما تحرك الساحر، أو خطا خطوة أو خطوتين..

واجتمع السحرة كلهم حول الوليد. وراحوا يتفرسون فيه، ويتفحصون كل أعضاء جسده الصغير، ويرسمون على الرمال خطوطا هندسية كثيرة متشابكة، ولايكادون يطيلون فيها النظر حتى يعود كل منهم ينظر إلى زميله وهو يغمغم، ثم يهز رأسه، ولايتكلم على الإطلاق. وأخذت الحيرة بالملك، وصاح بهم وقد فرغ منه الصبر:

- أريد أن أعرف كل شئ.. ماذا هناك!؟ هل من مستقبل منكود يدل عليه طالع ولدى..!؟

وهز شيخ السحرة رأسه فى حيرة وهو يقول:

- كيف يكون منكودا طالع ابن ملك؟ أبدا. بل إن الطالع ليبشر لولدك بمستقبل زاهر وهو يجلس على عرش أجداده. وإن قبائل الشمال والغرب والجنوب لتتسارع للانضواء تحت لوائه وتحارب تحت إمرته متى نفخ بوق القتال. وستكون له قطعان من البقر تفوق أمواج النيل عدا، ومن الأسرى عدد يستطيع أن يملأ به مائة قرية، أما الموت فلن يقربه إلا بعد عمر مديد، ويومها سيكون له مأتم حافل كبير.. تذبح فيه

نساؤه الثلاثمائة، وعبيده الذين سيزيد عددهم عن الألف.. قبل أن يخلفه على عرشه ولد زاهر جدير به..

وعادت الطمأنينة إلى قلب الملك.. وتساءل هذه المرة فى هدوء:

– أحسنت.. فهذا هو أجمل طالع فى الوجود.. ولكن.!؟

وهز الساحر رأسه فى حيرة وهو يقول:

ـ أجل .. ولكن..!

وقطب الملك جبينه من جديد.. وهتف:

– تكلم.. ماذا هناك.. ماالذى يجعلكم جميعا تتبادلون النظرات وكأن على رءوسكم الطير.. أجب أيها الشيخ؟

وانتصب شيخ السحرة قائلا:

– هناك ماكتب على الرمل.. هل ترى هذه الحصاة يامولاى، تلك التى تكبر سواها حجما؟ عندما رسمنا خطوطنا تدحرجت هذه الحصاة حتى استقرت على أول الخط..

– ومامعنى هذا؟

– إن مستقبل ولدك الزاهر قد يهدده خطر فى سنواته الأولى.. خطر يأتيه من الخارج..

– ومانوع هذا الخطر؟

– من يدرى؟ قد يكون مصدره نبات أو حيوان أو إنسان.. فالريح تستطيع نقل أى شئ وحمله إلى هنا وقتما تشاء.

– وماذا يمكن أن نفعله إذن؟

– فى استطاعتنا أن نرعى الصبى بأنفسنا حتى يجئ طالع آخر يخبرنا أن الخطر قد زال..

وهز الملك رأسه فى حيرة وذهول. ثم انتبه إلى الشيخ يسأله كيف يمكن أن يتم

ذلك. فذكر له أن الطالع يقرر الحاجة إلى أن يشيد للصبى بيت صغير يقيم فيه خلال سنواته الخمس الأولى، لايتصل به أحد ولايراه مخلوق سوى مرضع تتحرك تحت حراسة السحرة، الذين يتناوبون السهر عليه.. أما الطعام فيقدم إلى الصبى من خلال كوة، على أن يتذوق الساحر والحارس من الطعام قبل أن يقدم للصغير..!

وكان الغد.. ونقل الوليد «بوكو» إلى بيت مستدير مرتفع منيع.. وسد عليه وعلى المرضع الباب..!

مضت السنون حتى بلغت الخمس، والصغير لايشكو الانفراد والوحدة قط.. ولكن هذا الإحساس أخذ به ذات يوم حين انقضى آخر أيام العام الخامس، وصدرت الأوامر للمرضع بمغادرة المكان، وبدأ الطعام يرسل إلى الصغير وحده عن طريق الكوة.

وبدأت الوحشة تأخذ بالصبى.. وبدأ صوت نحيبه يرتفع ويعلو والحراس لايحاولون الاقتراب منه فى انتظار ظهور الطالع الجديد..

على أن نحيب الصبى لم يستمر طويلا.. فما أسرع ماسكت الصوت فجأة..

وظن السحرة الحراس أن الفتى قد ألف مصيره فاستسلم للهدوء والوحدة.

غير أن الحقيقة كانت بخلاف ذلك تماما. فما كان سُكوت الصغير إلا لأنه استطاع أن يجد رفيقا جديدا فى منفاه الذى وضع فيه.

وكان الرفيق الذى أزال وحشة الصغير شيئا وجده ينفذ إليه من ثقب تحت السور، له عينان كبيرتان، وأذنان طويلتان، ذكره على الفور بذلك الشئ الخرافى الذى طالما سمع مرضعته تحكى الآلاف من حيله البارعة التى كانت تنتهى دائما بانتصاره. ووقف الفتى مشدوها لحظة، ثم صفق فرحا وهو يصيح:

– سيدى الأرنب!؟

وأومأ الأرنب للأمير الصغير برأسه وقال:

– نعم أنا هو.. لقد خطر لى أن أزورك فما أكثر ما لعبت فى هذا المكان.. وأخذتنى

الحيرة لتلك الظلمة التى تحيط بك.. فحتى شعاع النور لايحق له أن يتسلل حيث أنت.. ألا ترى إذن أنى أعظم من النور مادمت قد وصلت إليك!؟

ومد بوكو كفه إلى ظهر الأرنب وراح يمسح فراءه الأبيض وينفض عنه التراب.. ثم قال له:

– يا أرنبى الصغير.. ماأجمل تلك الزيارة. ولكن كن على حذر..

فالدخول هنا محرم على أى كائن، ولسوف تقتل شر قتلة لو عثر أحد عليك.. فتلك مشيئة أبى الملك.. وهو يمثل على الأرض الإله زاناهارى الأبدى.

ورد الأرنب قائلا:

– لاتخش شيئا.. فأنا أعرف كيف أتخلص من كل الصعاب

ورفع الصغير حاجبيه وهو يقول:

– حتى الملك!؟

قال الأرنب:

– أى ملك؟ هناك ملوك كثيرون.. فرس البحر ملك البحيرة، والفيل ملك الصحراء، والتمساح ملك النهر، والأسد ملك الغابة..

– أقصد ملك هذا البلد حيث نحن الآن؟

– لست أخشاه هذا الملك.. فكلابه أشد منه هولا وأكثر عدوا.. ولها أنياب تثير الرعب والخوف..

– الحق معك.. ولو أتتك هذه الكلاب أو شمت ريحك لهلكت.

– لاعليك.. فقد جعلت مسلكى للدخول إلى هذا المكان من خلال مجموعة من الأشجار حادة الشوك لايجرؤ على الاقتراب منها أحد. دعك من الخوف.. ولنفطر الآن معا. هيه.. أجل.. قرب منا ذلك الطبق الملئ بالأرز.. فإنى لأراه فاخرا لذيذا. أجمل بكثير من كل ماتناولته من طعام فى الأيام الماضية.

وقرب الصبى طبق الأرز من الأرنب وهو يقول:

– ألم تأكل بشهية فى الأيام الأخيرة؟

قال الأرنب، وهو يلعق الطبق فى سرعة ونشوة:

ـ لقد ساءتنى فى الواقع الإقامة فى الغاب.. أما سبب ذلك فحديثه طويل، ولكن يكفى أن تعلم أنه حتى الأسد والفيل يعجزان تماما أمام حيل الأرنب.. وإن كان هذا لايمنع أننى فكرت فى التنسك والبعد عن خداع الآخرين.. لهذا جئت لأكون ضيفك، نتبادل الخدمات معا.. فأسلم وتنجو من وحشة الانفراد..!

وتضاحك الاثنان.. وزالت الوحشة عن قلب الصغير الذى أسرع إلى تهيئة مرقد لصديقه تحت الكوة التى ينفذ إليه منها الطعام.. حتى لايرى الحراس صديقه الجديد..

راحت الشهور تمضى، والصديقان متلازمان فى البيت المغلق، يلعبان، ويصخبان، ويضجان.. ولايكاد التعب يأخذ منهما حتى يجلس الأرنب أمام الأمير الصغير ويروح يروى له أجمل وأبرع قصص السهل والغاب.. وهى قصص كان لها أثرها الكبير فى تثقيف الصبى وتحريره من الجهل الذى كان لابد لحياة العزلة أن تغرقه فى خضمه العريض.

ومضت سنوات ثلاث..

وذات يوم، أحس واحد من السحرة الحراس بما أذهله. فمن خلال كوة صغيرة ضبطها الحارس انطلقت إليه أصوات الضحكات الرقيقة الصاخبة المرحة التى أرسلها الصبى وهو يستمع إلى إحدى قصص الأرنب الصغير. ودهش الساحر للضحك الصاخب يصدر عن سجين يعيش وحيدا بين أربعة جدران، فاقترب من الكوة وأصاخ السمع. وفوجئ بحديث الصديقين المفعم بالحياة وبرغم أنه لم يستطع أن يدرك الحقيقة، إلا أنه انطلق إلى الملك يقص عليه ماملأ سمعه.. ولم يستطع الملك إلا أن ينطلق مع رجاله مسرعا، ويأمر بكسر الباب الذى ظل مغلقا لايفتح لعدة سنوات.

وانهار تحت ضربات الفئوس.. واندفع الملك إلى غرفة صغيرة فما وجد سوى الأمير، يرتعش وينتفض.. ولاشئ بعد..

وارتفع صوت الملك:

- من كان معك هنا.. أين من كنت تتحدث إليه؟

وسكت بوكو. وظل علـى صمته رغم معاودة الملك السؤال. ولم يـكن هنا ك معنى للسكوت سوى الاعتراف بالحقيقة..

وصرخ الملك .

- حسنـا.. اهدموا البيت وفتشـوا الجدران ومزقوا الأرض.. وابـحثوا عمـن خالف أوامرى. أما هذا الصغير فسيذهب معى إلى القصـر.. وليبق تحت حراستى..

ونفـذت أوامر المـلـك.. وافتـرق الصبـى عن صديـقه الـذى كان قد اخـتفى فـى النـفق الصـغيـر تحت الـكوة، وعجـزت الجدران المـهدمة والأرض المحـروثة عـن الوصـول إلى أكثر من مدخل الممر حيث لم تعثر الكلاب عليه وقد عنى بإسقاط التراب وراءه..

وهتف الملك فى سحرته عندما علم بأمر الثقب الذى يجهل إلى أين ينتهى:

- أريد أن أعلم من هو العدو المجهول الذى يجابهنا.. من هـو.. ومامصيره؟

وتبادل السـحرة النظرات.. وانطلق كبيرهم فى صوت باهت:

- سيكون الموت جزاء المجـرم الذى عصـى أوامر الملك.. واعتدى علـى الشـرائع التى رسمها لحماية الأمير.. أما من يكون فلا أظنه إنسانا قط.. فما تستطيـع هـذه الثغرة أن تسمح بالنفاذ منها لغير حيوان صغير.

وأطل الملك إلى السحرة فى استغراب وقال:

- إذا كان غريمنا حيوانا فإن الأمر ليثير قلـقى.. ولو أننا حاولنا الانتقـام منه فلن نعـدم أن ينشـب صراع بـينـنا وبـين سكان الـغاب بـعد أن سيـطر الـهدوء والأمـن بين الجميع..

وقال شيخ السحرة:

- لنعمـد إلى الحيلة يامولاى.. ولـندع جميع الحيوانات إلـى وليمة.. وبعد انتـهائها نستطيع أن نقنع الأمير بأن يضع حصاة أمام الحيوان الذى كان يزوره فى البيت.

لم يكن من المعقول أن يقبل الصبى الصغير أن يكشف عن صديقه، خاصة بعد أن استطاع أن يدرك المصير الذى أعد له. غير أن الأب عرف كيف يخدع ولده وهو يؤكد له أنه إنما يريد معرفة صديقه ليقدم له الشكر وينعم عليه بالهدايا جزاء ماعلمه وثقفه..!

واقتنع الصبى آخر الأمر..

وانطلق المنادون فى السهل والغاب يدعون كل حيوانها إلى الوليمة التى يقيمها الملك احتفاء بتحرر ولده. وتدافعت كل ألوان الحيوان إلى حيث وليمة الملك، ينعمون ويأكلون ويصخبون، ومن بينهم الأرنب الذى كان أول من جاء ليلبى الدعوة، وقد سره أن يعلم أن صديقه قد نال حظوه عند أبيه واستعاد حريته..

وفجأة.. اصاخ الأرنب السمع إلى فأرين صغيرين كانا يقضمن بنهم بعض حبوب الذرة، ويتحدثان. قال احدهما للآخر:

– أرجو ألا يضع الأمير الحصاة أمامى فتضيع حياتى.

أجابت الفأرة الثانية:

– لاتخش شيئا.. فسيتجه الأميرفورا نحو صديقه وهو يجهل أنه إنما يتسبب له فى الموت رغم أنفه.. تماما كما رسم شيخ السحرة.

ورفع الأرنب أذنيه الطويلتين وسأل جاره الفأر:

– عم تتحدثان.. وأى حصاة تعنيان؟

– أوه ألم تعرف القصة.. اسمعها إذن فربما كان فى ذلك نفع لك أو لأحد أصحابك.

وحكى الفأران للأرنب تفاصيل مادار بين الملك والسحرة.. وذكرا له كيف أن المكان تحيط به الآن الكلاب لترقب أى فرد يحاول الهرب قبل انتهاء الوليمة ومايتبعها.

وارتفعت دقات الطبول فى تلك اللحظة تطلب من الجميع أن يصطفوا صفين حيث يمر بهم الأمير ليقدم الشكر لهم فردا فردا. وتقدم الأمير فرحا وفى يده حصاة

وراح يبحث بعينيه الصغيرتين عن صديقه الذى وعد الملك بمنحه جائزة مضاعفة. وأخذ الأمير يتأمل كل صفوف الحيوانات ذات الفراء والآذان الطويلة التى كانت تميز الصديق الذى كان يصحبه فى سجنه الطويل..

ورغم كل المحاولات التى راح الأرنب يبذلها ليختفى وراء جيرانه من الحيوانات.. إلا أن الأمير بوكو استطاع أن يكتشف صديقه آخر الأمر. فاتجه إليه، وهو يهتف به مرحبا. ولم يكد يلقى الحصاة أمامه حتى كان السحرة قد قبضوا عليه، وانطلقوا به سريعا وهو يرتجف إلى حيث كان الملك. وارتفع صوت الملك مزمجرا:

– هو أنت إذن.. لتدفعن غاليا ثمن جرأتك على تحدى أوامرى وتدخلك لإفساد طالع ولدى.. خذوه إلى الموت.

غير أن الأرنب كان أسرع إلى التفكير من الملك.. فقال فى هدوء:

– مرحبا بالموت يامولاى.. لكننى أرجو ألا تنسى أننى لم أكن المجرم وحدى.. فالسحرة الذين كلفتهم بالحراسة أحق بالعقاب. فأنا لم أعدك بشىء.. بينما تعهدوا هم أمامك وأقسموا لك بمنع أى كائن عن ولوج مكان الأمير. ومادامت هذه هى الحقيقة فمن العدل أن يموتوا معى إذا حكم على بالموت..

وفكر الملك لحظة.. ثم هز رأسه وهو يهتف:

– الحق معك.. أقبضوا على السحرة.!

وبرغم أن الحرس ماكانوا يجرؤون قط على مخالفة أوامر الملك، إلا أنهم ترددوا بعض الوقت.. فقد رأوا أن اعتقال السحرة مجلبة للكوارث..

واستغل شيخ السحرة فرصة تردد الحراس.. ورفع صوته يخاطب الملك:

– أيها الملك.. هل تذكرت جيدا تفاصيل طالع ابنك الأمير بوكو؟

أجاب الملك:

– نعم. حتى يبلغ الخامسة من عمره، لاتفارقه مرضعة، وبعد ذلك يحيا وحده دون أن يتصل به أحد.

وأجاب الساحر بحدة: ليس هذا كل الطالع.. بل هناك أيضا «طالما لم يدلنا طالع آخر على زوال الخطر الذى يتهدده»

وهز الملك كتفيه وهو يقول:

– إن ذلك لن يثنينا عن عزمنا، فالطالع الآخر لم يأت بعد..!

وقال الساحر وهو يتلفت إلى زملائه السحرة: بل لقد رأينا الطالع الجديد ساعة استعاد الأمير حريته.. أليس كذلك أيها الإخوة!؟

وهتف الجميع: نعم .. رأيناه.. رأيناه.

وصرخ الملك غاضبا: ولماذا لم تذكروه لى من قبل؟

أجاب شيخ السحرة: لقد أردنا أن نذيع النتيجة والكل مجتمعون ليكون برهانا على عظمتك ودليلا على مستقبل ولدك الباهر.. ثم إن الطالع الجديد يذكر شيئا عن المدة التى يجب أن يقضيها الأرنب مع الأمير فى عزلته.. ماهى تلك المدة أيها الأرنب؟

أجاب الأرنب: ثلاث سنوات.

وهتف الساحر وهو يظهر الفرحة والانتصار: بالضبط.. ثلاث سنوات.. هذه هى المدة التى حددها الطالع بالضبط.. أليس كذلك أيها الإخوة؟

وهتف السحرة جميعا: تماما..

وتكلم الملك فى حيرة: وماذا يقول الطالع؟

أجاب شيخ السحرة.. وهو ينقل النظر بين الملك.. السحرة.. والحراس:

– ينبئ الطالع بأنه فى الساعة التى غادرت المرضع فيها الأمير قد زال الخطر.. وإذا مرت ثلاث سنوات وكنت أنا وإخوتى نقوم بحراسة باطلة.. فأمرنا يكون بعد ذلك بين يدى الأمير..

قال الملك:

– إذن.. فلستم أنتم ولا الأرنب مخطئين..

وصاح الساحر وهو يضغط على أسنانه:

- بل يؤخذ على الأرنب عصيانه أوامر الملك.

فصاح الأرنب: أيها الغبى.. ويؤخذ عليكم غباؤكم فى مهنتكم..

وسكت الساحر، وكأنما أدرك أن من الأفضل ألا يراوغ الأرنب.. فأكمل كلامه قائلا:

- على أنى إذا أخذ بمشورتى أرى أن تغفر للجميع هفواتهم ليمكن الانصراف إلى الفرحة بالأمير..

وهتف الجميع والملك يصدر أمره بالإفراج عن الجميع.. وانطلق الأرنب يقفز نحو صديقه الذى حمله إلى صدره.. وارتفع صوت الصديقين يطلبان من الملك السماح ببقاء الأرنب مع صديقه بوكو..

وتردد الملك قليلا.. وتغيظ شيخ السحرة فهمس فى أذن الملك بكلمات هز لها رأسه ثم قال:

- سألبى ذلك الطلب إذا نفذ الأرنب ثلاثة أشياء يتمها قبل أن تمضى أيام ستة.. أولها أن يأتينى بنابى فيل، وثانيها بحليب بقرة وحشية، وثالثها بشعرات من رأس الجنى..

وصرخ الأمير وقد أدرك أن صديقه لن يستطيع أن يأتى بهذه المعجزات التى تعمد شيخ السحرة أن يهمس بها فى أذن الملك. غير أن هذا فرك عينيه بيديه الصغيرتين.. ثم صاح أمام الملك فى لهجة ساخرة:

- سأفعل.. وإلى اللقاء..

وانطلق الأرنب فاختفى من أمام الجميع..

فى اليوم التالى.. بينما كان كبير الفيلة يقود قطيعه للوصول إلى النهر.. إذ بالأرنب يعدو مسرعا قادما من الطريق. واستغرب الفيل الأمر واقترب من الأرنب. وأشار إليه يسأله:

- ماذا هناك؟ هل شبت النار فى الغاب؟

وأجاب الأرنب وهو يلهث:

- أوه.. هو أنت أيها الفيل؟ ماأسعد حظى بلقياك ولحاقى بك قبل أن تصل إلى النهر؟ فالرب ويندى يمنعك من الشرب اليوم وقد أرسلنى لأبلغك هذا التحذير.. وإنى لسعيد حقا بوصولى فى الوقت المناسب لإنقاذ حياتكم من الهلاك..

ورفع الفيل عينيه إلى السماء حيث كانت السحب الكثيفة تغطى كل شئ. وتساءل:

- ولكن .. بأى شئ أوغرنا صدر ويندى علينا.. فما أذكر أننا أسأنا اليه.

قال الأرنب:

- لاتسألنى عن أسباب سخطه السماوى الذى تدل عليه تلك السحب.. إن الأجدر بكم أن تذهبوا إليه وتطلبوا عفوه وغفرانه..

وأطل الفيل نحو السماء وهو يغمغم:

- ولكنه مرتفع جدا.. وماأصعب الوصول إليه..

قال الأرنب:

- أبدا إن الأمر أسهل مما تتصورون. فماعليكم إلا أن يعلو بعضكم بعضا حتى تبلغوا بابه.. وعليكم أن تسرعوا قبل أن يزيد بكم غضبه ويحرمكم من الشراب أياما..

واقتنع كبير الفيلة، وطلب من قطيعه كله أن يعلو كل منهم الآخر فوقه حتى يبلغوا باب ويندى..!

ورفع الأرنب صوته وهو يخاطب الفيل الذى بلغ القمة:

- ألم تبلغ باب السماء بعد!؟

وجاء صوت الفيل الصغير:

- لاتزال هناك مسافة صغيرة .

وقال الأرنب لكبير الفيلة:

– أسمعت أيها الوالد؟.. لاتزال هناك مسافة ضئيلة.. تستطيع بلوغها لو وضعت قدمك على ظهر هذه السلحفاة الكبيرة التى تمر بجوارك.\ورفع الفيل قائمته ليضعها على ظهر السلحفاة.. غير أن الأرنب كان قد دفع السلحفاة فتعثر الفيل وانهار هرم الفيلة.

وكانت مجزرة أنياب هائلة.. وامتلأت الأرض بأنياب الفيلة..

وهتف الأرنب وهو يصفق:

– شكرا لويندى.. لقد استجاب لكم وعفا عنكم.. فانطلقوا الآن إلى الماء واشربوا قبل أن يعود إليه الغضب..

وجمعت الفيلة شملها غير مبالية بما أصابها، وانطلقت تهرع الى النهر، بينما كان الأرنب يجرى بين أكوام سن الفيل حيث التقط أجمل اثنين منها.. وانطلق بها إلى مخبئه.. وقد استطاع أن يحقق أول شروط الملك.

وانطلق الأرنب يبحث عن بقرة وحشية لينفذ الشرط الثانى. وعندما وجد البقرة اقترب منها وفى يده قرص من الشهد سرقه من خلية نحل مجاورة وقال يخاطبها:

– طاب يومك أيتها البقرة العزيزة؟ أوه.. ماهذا العشب الذى تأكلين..؟ أترينه صالحا حقا؟ أيكون أحلى مذاقا من ذلك الشهد الذى أحصل عليه من تلك الشجرة التى تقوم بجوار جحرى؟

قالت البقرة الوحشية:

– شهد.. على الشجرة؟ أهو شئ حقيقى؟

قال الأرنب وهو يلعق من العسل:

– بوسعك أن تذوقيه.

ولحست البقرة من قرص الشهد فأعجبها مذاقه..

وقال لها الأرنب:

– إذا كنت تريدين أن تأكلى كمية أكبر من العسل فما عليك إلا أن تنطلقى إلى

الشجرة وتأكلى الشهد الذى تقطر به أغصانها.. كل ماعليك هو أن تنطحى الشجرة بقرونك تتساقط منها أكوام العسل الذى أعجز أنا عن الحصول منه إلا على كميات ضئيلة جدا لضآلة جسمي.

وهزت البقرة رأسها.. واجترت.. ثم انطلقت تتهادى إلى الشجرة ذات الفروع الكثيرة المتشابكة من أجل أن تحصل على أكوام الشهد..

وهتف فيها الأرنب:

– انطحيها بعنف وشدة.. هيا..

وتراجعت البقرة إلى الخلف، وانقضت بقرنيها على الشجرة التى كان الأرنب قد احسن اختيارها.. فإذا بقرني البقرة وقد اشتبكا فى الأغصان القوية وتعذر عليها الإفلات..

وراح الأرنب يعمل بسرعة. قيد قوائم البقرة.. وحلب ضرعها الذى كان يفيض حسيبا.. ثم ابتعد حاملا إناء اللبن وقد نجح فى تنفيذ الشرط الثانى للملك..

وفى الجحر جلس الأرنب ينتظر هبوط الليل.. وعندما غادر الجحر انطلق يأخذ طريقه خلال الظلام إلى حيث يعرف المكان الذى يرتاده الجن..

واقترب من أول جنى رآه وقال له:

– عم مساء ايها الجنى.. أوه.. كيف حالك.. أراك تمضى وقد نسيت شعرك فتركته أكثر طولا من شعور رفاقك.. الا تخشى أن يجعلك شعرك الطويل أقل خفة فى الحركة منهم وأنتم تلعبون ألعابكم البهلوانية فيشتبك شعرك وتسقط فى أى مكان!؟

وقال الجنى وهو يتلفت حوله يحاول رؤية الشعر:

– شعرى طويل.. ولكنى لاأصدق..

وقال الأرنب وهو يتظاهر بالمضى فى طريقه: على رسلك.. لقد أعذر من انذر..

واضطرب الجنى.. وعاد ينظر إلى شعره من جديد..

ووقف الأرنب وقال:

– أستطيع مساعدتك على أى حال.. فإذا كنت تريد أن تقصه قليلا فأنا أستطيع تنسيقه فتبدو أكثر أناقة من كل أصحابك..

وابتسم الجنى.. وشكر الأرنب على صنيعه ورجاه أن يقص الطول الزائد فى شعره ويمشطه ليزداد أناقة وجمالا. وفعل الأرنب. وانطلق حاملا غنيمته من شعر الجنى..!

وفى اليوم التالى.. كان الأرنب يقف عند قدمى الملك.. وقد ألقى أمامه نابى الفيل.. وإناء اللبن، وشعر الجنى. وقال الأرنب بعد أن عانق صديقه بوكو:

– لقد نفذت شروطك.. أما أنا فألتمس بدورى هبة منك.

– ماهى.. إنك لعظيم وتستحق أن ألبى كل ماتريد..

– لاشئ.. أكثر من أن تعتق مملكتك من ذلك الساحر الخبيث.

قال الملك:

– أعدك برأسه..

قال الأرنب فى ازدراء:

– لست بحاجة إليه.. فأنا لاأهوى اللحم النتن.. يكفى أن تطرده من المملكة لتتلقاه الضباع وتخلص القبائل من خبثه وكذبه..

وقد كان..

المجـــــزرة

حكاية من السودان

هناك..فى الساقية قرب الطاحونة.. حيث الصخور الكبيرة تجعل الماء يجرى كالمخنوق فى عنق زجاجة.. وضعت سمكة عملاقة عشها، واستقرت تحت صخرة ضخمة ترقب بعينيها اللامعتين مرور السمك الصغير، فتتلقفه بين فكيها وتبتلعه فى أقل من طرفه عين..!

ولعل النجاة كانت تبدو هينة للاسماك الصغيرة، إذا هى امتنعت عن المرور من الجدول إلى الساقية، فتتفادى بذلك أن تكون طعما للمجزرة. إلا أن الأمر لم يكن سهلا كما يبدو، ففى الطرف الآخر من الجدول، حيث منعطف شديد الضيق، أقامت سمكة ماردة متوحشة، فى عش صنعته من البوص والخيزران، تروح وتغدو بين النهار والليل، تطوح فى أعماقها كل مايمر بالمكان من صغار السمك والهوام، وتطفو احيانا على سطح الماء فاغرة فمها، فيظهر الموت بين فكيها الشرهين..!

وهكذا لم يعد من الممكن للأسماك الصغيرة عبور الجدول إلى الساقية.. ولا الهبوط منه إلى الترعة، فهنا وهناك يتربص الموت.. والخوف يملأ كل نفوس الأسماك فى الجدول الصغير.. خوف أشد قسوة من الموت نفسه..!

وبدأ الغذاء يقل فى المنطقة المحصورة من الجدول. فالأسماك تتوالد وتزداد، والطعام يقل ويفرغ، والبطون تخوى وتثور، والعيون تتحول من طول الجوع جامدة كالزجاج..!

وكان لابد من الاستسلام للموت..!

وتجمعت الأسماك تتشاور وتتساءل.. أى أنواع الموت أهون شرا، وإلى أى ناحية من نواحى الجدول يكون اتجاهها..!!

قالت أقدم الأسماك العارفة بأسرار الساقية:

– خير لى أن أموت جوعا فى الجدول، من أن أسلم نفسى طعما فى فم أى من الوحشين الهائلين!

واتجهت الأسماك إلى «الحنكليس».. أدق الأسماك جسدا وابرعها انسلالا وأخفها حركة. وسألته الأسماك:

– ما الذى نستطيع أن نفعله ياسيدنا الحنكليس؟

أجاب الحنكليس:

– ليس هناك أمل ياسادة.. فالغذاء يتناقص ويختفى.. والوحشان لايكتفيان بابتلاع مايمر من الأسماك، بل يبتلعان أيضا كل مايحمله الماء من أنواع الغذاء والهوام والحشرات التى نقتات بها.

قالت الأسماك:

– ولكن ماالذى يجب أن نفعله؟

أجاب الحنكليس:

– إنه ليبدو أن التضحية بعدد منا خير لنا من التضحية بالجميع. والرأى عندى أن نفكر فى الرحيل الشامل مجتمعين فنجتاز أحد الجانبين. وعندما يفاجأ الوحش بجموعنا الهائلة فلن يستطيع مهما فعل أن يفترسنا جميعا.. بل سيبتلع البعض بينما يسرع الباقون فى طريق الهرب..

وتبادلت الأسماك كلها النظرات.. وارتفعت همهمة الرفض..؟

وعاد الحنكليس يقول:

– إذا لم توافقوا على تلك الخطة فليس أمامنا إلا البقاء كما نحن فإذا لم نمت جوعا، فأنا أعلم أن كلا الوحشين يتربص للآخر.. فعملاقة الطاحونة ووحش الخيزران يتباريان هولا ونهما، وكل منهما يضمر للآخر الشر، ويريد أن ينتهز الفرصة ليخدعه، ويقترب من مكانه ويفترسه. وعندما يحدث ذلك سيكتسح الوحش أمامه كل من ظل على قيد الحياة ويبتلعنا من أجل أن يمتلئ قوة تمنحه القدرة على مغالبة منافسه!

وقالت الأسماك:

– إذا بقينا كما نحن يوما أخر فسنختنق. وغدا يفقس البيض الذى وضعناه، وتخرج فراخنا، فإلى أين تذهب؟ وكيف تستطيع أن تحصل على الغذاء؟ إنها ستموت كما نموت نحن أيضا قبل أن تبدأ المعركة بين الوحشين. وإنا إذن لمن الهالكين..!

وسكت الجميع.. وراح الحنكليس يفكر. وفجأة برقت عيناه وهتف:

– استمعوا لى. لقد خطرت ببالى فكرة تنجينا من المأزق دون أن نفقد كثيرا من الضحايا.

واجتمعت الأسماك من جديد والتفت حول زعيم الجدول وهتفت:

– ماهى الفكرة؟ دلنا على الوسيلة.

قال الزعيم:

– إن خطورتها ستصيب واحدا منا فقط، هو الذى يقبل أن يكون له فخر القيام بها، والتضحية بنفسه قربانا للآخرين.

وسكت الجميع، فلم يكن هناك أحد يريد أن يسلم نفسه للموت، من أجل شرف التضحية.

وخرج صوت رفيع من بين الأسماك:

– إنك أنت وحدك يازعيم تملك أن تنال هذا المجد. فأنت قائدنا وزعيمنا. ومن العدل – إذا كان فى المخاطر مجد – أن يكون المجد لك..؟!

وصاحت الأسماك كلها:

– أجل.. أجل.. المجد لك يازعيم.. المجد لك..!

وامتعض الحنكليس وقد أدرك أن زعامته ستكلفه حياته. لكنه عاد يفكر من جديد. وذكر أنه أسرع الجميع سباحة وأبرعهم انسلالا. وهو لطول عهده بالجدول يعرف جيدا كل حفره وزواياه. وأى الأماكن فيه أكثر حظا للنجاة وأيها أكثر تعرضا للخطر..

وأطل أمامه إلى الأسماك الصغيرة فوجدها لاتزال ترتعد فزعا ورعبا. فأشفق عليها، وملأت حمى الزعامة رأسه، وقرر أن ينهض بالأعباء التى ألقتها على كاهله تلك الزعامة.

وتكلم الحنكليس فى صوت عميق:

– لنبدأ إذن.

واستعدت الأسماك جميعا لتأدية الدور الذى تكلف به. وبدأ القائد يلقى أوامره:

– عليكم جميعا أن تزدحموا بشدة على الضفتين.. وعلى من يستطيع منكم القفز إلى الشط خارج الماء فليفعل عند أول إشارة أصدرها.. حتى نفسح ممرا واسعا وسط الجدول الصغير. ابدأوا الآن.. وليحذر أى فرد منكم مخالفة أوامرى .. فنجاتكم جميعا رهن بالطاعة العمياء..!

وانطلق الزعيم فى لحظة سابحا فى اتجاه الطاحونة، وملأ القلق والرعب قلوب الأسماك فصاحت به:

– إلى أين تذهب يازعيم؟ هل تريد أن تستدعى عملاقة الطاحونة للمبارزة..!؟

أجاب الزعيم:

– نعم!

قالت الأسماك:

– حذار يازعيم.. فماذا عسانا نفعل إذا فقدناك!؟

ولم يجب الحنكليس، بل ظل فى انطلاقه مسرعا فى اتجاه عملاقة الطاحونة. وعندما بلغ المكان صاح بها:

– أيتها السمكة الجبارة.. ياأميرة الماء وسيدة الطاحونة وربة الساقية.. إنى أحمل إليك تحديا من سلطان الخيزران..!

وانتفضت السمكة العملاقة. وانطلقت من عينيها شرارات الغضب. وخرجت من تحت الصخرة تطل فى غيظ إلى الرسول الذى يحمل إليها تحدى سلطان الخيزران، وقالت له:

– من هذا الذى يجرؤ على أن يتحدانى؟ وما الذى تعنيه بذلك؟ ومن أنت؟ تكلم فإن بطنى لخاو، وإن بى لرغبة فى ازدراد ذلك الجرئ.. وحامل رسالته..!

وتظاهر الحنكليس بالهدوء بينما هو يرتعد، ويرقب فى حذر كل حركات العملاقة المتوحشة. وقال:

– أنا لاأمتنع عن التقدم إليك بنفسى لازدرادى.. غير أنى لاأنصحك أن تفعلى.. فقد يكون لك شأن مع من هو أشد منك سلطانا وأعظم قدرا وأكثر جبروتا. إنه سلطان الخيزران الذى أرسلنى إليك سفيرا ولن يغفر لك الإهانة التى توجهينها إليه فى شخص رسوله الضعيف..!

وازداد الغضب بعملاقة الطاحونة وانفجرت تقول:

– اخرس أيها الوقح.. أتقول لن يغفر لى؟ من هو هذا الذى يملك أن يغفر أو لا يغفر!؟ وهل أنا بحاجة إلى أن أستدر غفران ذلك الطاغية المزعوم؟ ذلك الدعى الذى تسميه سلطان الخيزران..! ياللسخرية.. سلطان الخيزران! أيظن نفسه سلطانا بينما أنا الملكة هنا.. وسيدة كل الأسماك!؟

قال الحنكليس يستزيد إثارتها:

– معاذ الله..! كيف تكونين ملكة المكان وسيدة الأسماك كلها، وهو يؤكد أنه وحده صاحب السلطان المطلق على الجدول والساقية والخيزران جميعا..!؟ لقد طالما سمعت منه أنك إذ تتمتعين بأن تكونى سيدة التيار حيث تقيمين فما ذلك إلا لأنه هو صاحب السلطان.. قد منحك حتى الآن بعض الحرية.. وهو يملك أن يسحبها منك متى أراد!

وصرخت ملكة الطاحونة:

– القصاص القصاص..! إن هذا الزهو الذى يملأ صاحبك ليوجب علىّ أن أربيه وأرد له الصواب وأنزل به أشد العقاب..!

وأجاب الحنكليس وهو يتحفز للهروب:

– للعقاب؟ إن العقاب سينزل بك وحدك، فقد رأيته قبل حضورى إلى هنا يستعد للقدوم إليك ليؤدبك تأديبا شديدا، ولينزل بك العقاب الدامى كما يقول. لقد سمعته يهتف وهو يستعد للقضاء عليك بأنه سيتخلص منك ليستطيع الحكم وحده فى هذه المملكة بموجب الحق الذى أعطاه إياه «ويندى».. والذى منحته إياه قوته وأهله وشرف سلالته وأجداده..!

وقهقهت ملكة الطاحونة فى سخرية صاخبة وهى تقول:

- إذن فسأنتظره.. وسنرى إذا كان الأمر كما زعمت وزعم صاحبك الأفاق.. إنى لأنتظره هنا فى شجاعة ولهفة واشتياق.

بينما كانت ملكة الطاحونة تستعد للمعركة، كان الحنكليس قد انطلق كالسهم إلى الجهة المقابلة حيث يقيم وحش الخيزران. وصاح به وهو لايزال يجرى متجها إليه:

- استعد يامسكين. فإن مولاتك قادمة لتنزل بك العقاب جزاء انتقاصك سلطانها، ومحاولتك انتزاع قطعة من مملكتها، والسيطرة على ذلك الجزء من جدولها..!

وبرقت عينا الوحش، وضغط على فكيه بشكل مخيف وهو يقول:

- مولاتى! وهل لى سيد هنا؟

أجاب الحنكليس:

- ملكة الساقية وصاحبة الجحر المجاور للطاحونة.. لقد ملأها الغضب عندما عرفت أنك وضعت يدك على أطراف مملكتها، وقررت أن تبرهن لك أنها السيد الأوحد هنا.. وقالت أنها ستقتلك إذا حاولت أن تزهو وعمدت إلى المقاومة..!

صرخ الوحش فى صخب:

- فلتأت ملكتك المزعومة. فأنا لاأخشى أحدا. ولولا أنى أكلت منذ لحظات لابتلعتك لأريك وأرى سيدتك ماهى قيمة التهديدات التى ترسلها إلى والأوامر التى تلقيها على..!

قال الحنكليس:

- مسكين أنت.. إنى لأنصحك أن تنقذ نفسك وتبتعد عن المكان، أو تختبئ فى الأعماق، لعلك بذلك تثنيها عن تصميمها على القضاء عليك..!

ووثب الوحش غاضبا يصرخ:

- أختبئ..!؟ أختبئ..!؟ أجل سأختبى ولكن فى الجحر الذى تقيم فيه ملكتك المزعومة لتعلم ان الموت جزاء من يدعى الملك سواى..!

وقبل أن يبدأ الوحش اختراقه للماء، كان الحنكليس قد أسرع إلى أفراد شعبه من

السمك الصغير، وأصدر أوامره فى سرعة بالابتعاد عن الطريق والاختباء فى الزوايا وبين الأعشاب، والاستلقاء على جانب الجدول لمن استطاع..

واقترب وحش الخيزران، بينما اقتربت ملكة الطاحونة.. ونشبت المعركة صاخبة عنيفة وسط الجدول الذى اخلته الأسماك فى لحظات لتفتح الميدان للصراع الجبار..

وظل الخصمان يسبحان وينفخان فى الماء، ويضربان بذبنيهما العريضين وبمراوح زعانفهما، والعيون منهما تندلع شررا ونارا، وكل منهما فاغر شدقيه ليبتلع غريمه إذا استطاع.

وبين الضرب والعض تطايرت القروش وتمزقت الزعانف واصطبغت مياه الجدول بالدم.

وأطل الحنكليس يتابع المعركة. لقد صدق سلطان الخيزران إذ كان أقوى من ملكة الطاحونة. فقد حاول الوحش أن يبتلعها آخر الأمر. ودخل أغلب جسدها العملاق فى حلقومه. وإن لم يستطع إزدراده.

وفتح الحنكليس عينيه فى دهشة وتبعته كل الأسماك..

لقد هدأت المعركة فجأة. وكان وحش الخيزران يلهث ويثب وثبات تضعف وتختلج شيئا فشيئا، بينما جسد عملاقة الساقية يهمد ويسكن إذ رأسها كله فى حلقوم الوحش.

وفى لحظة، سكن كل شئ، وطفت على سطح الماء كتلة سوداء يدفعها التيار..

لقد مات الغالب مخنوقا بجثة المغلوب..!

سامبا .. ابن الشعب

حكاية من الكميرون

كان كل ماتركه وراءه عندما مات، زوجته وابنه، ومهره الصغير. ولم يكن ذلك لأنه عاش حياته كلها فقيرا، ولكن لأن الملك كان قد وضع يده على كل ماتركه من أرض، ومال، ومتاع، تماما كما كان يفعل دائما مع أبناء الشعب الذين طالما تحملوا من طغيانه وجبروته الكثير.

على أن الجواد الصغير الذى تركه الملك لسامبا ولأمه، لم يكن ليغنيهما عن جوع قط. فقد كان صغيرا هزيلا، وإن كانت له فى الوقت نفسه قيمته عندما يكبر كجواد أصيل. لهذا فقد كانت المرأة تبالغ فى الاهتمام به. فهو يأكل بينما هما يجوعان، وهو يسمن بينما هما يهزلان. ولم يكن أحد على ظهر الأرض مسئولا عن الحالين. فالعشب والحشائش لاتشترى ولاتكلف سوى عناء المضغ، بينما الخبز يشترى ويباع، والفقر يتحكم دائما فى طريقة التعامل به فى كلا الحالين.

وكان سامبا الابن المسكين، يبذل جهدا كبيرا منذ مات أبوه. فماتسنى له أن يربح غير خبزه اليومى. بل إن هذا الخبز نفسه كان يتعذر العثور عليه فى أوقات أخرى كثيرة.

وماأكثر مانظر سامبا وأمه إلى مهرهما الصغير وحسداه.. فقد كان يجيد الرعى على منحدرات السفح، يأكل بشهية، ويمتلئ ويتخم، ولاينتبه إلى أن كلا من سيديه يتمنى لو يحل محله.. حتى يخلص أمعاءه الخاوية من إذلال الجوع.

وقالت الأم لابنها الهزيل ذات يوم وهو يتأمل مهرهما السمين:

– وماذا بعد ياولدى؟ ماالذى يحل بنا إذا فقدنا ذلك الشئ العزيز؟ بل ما الذى نجنيه من ورائه الآن وهو لايزال حدثا بعد..!؟

وهز الفتى كتفيه وهو يفكر ثم قال:

– سينفعنا جيدا ياأماه.. وسأعرف كيف استغله فى استرداد ثروة أبى!؟

وهزت الأم الجائعة كتفيها وهى تقول:

– أهذا الجواد الصغير يمكن أن يكون وسيلتك لاسترداد حقك من الطاغية؟

أجاب سامبا:

- أنا أعرف طريقى ياأماه.. وكل ماعليك هو أن تمنحينى بركتك، وتعطينى قطعة الذهب التى تلقيتها من والديك لتصنعى منها قرطا..

وهتفت الأم:

- حتى قطعة الذهب التى بقيت لى.. تريد أن نفقدها؟

أجاب الإبن وهو يطمئنها:

- اطمئنى ياأماه.. فأنا لن أبيعها أو أفقدها.. ولكنى سأعيدها إليك كما هى تماما.. بعد أن أجعل منها وسيلتى لمواجهة الملك واسترداد حقى منه..

ووضعت الأم فى يد ولدها قطعة الذهب.. وهى تستحقه أن يحافظ عليها ويهتم بها.. فهى كل ثروتهما فى ذلك العالم الكبير..

ونهض سامبا فوضع قطعة الذهب فى جيبه، وقاد مهره إلى مكان فى مدخل المدينة اعتاد الملك أن يجتازه خلال رحلة صيده كل يوم. وهناك ربط سامبا المهر إلى وتد، وراح يمسح جسده فى اهتمام، ويد لكه فى عناية، ويعمل المشط باحترام فى ذؤابته وذنبه وركبتيه..

وخلال ذلك كله كانت نظراته لاترتد عن الطريق قط.. حتى إذا ماظهر موكب صيد الملك من بعيد، ابتسم سامبا وهو يعتدل، وراح يضاعف اهتمامه بالمهر ويصقل حوافره. ويعامله كأحسن مايعامل خير الجياد.

واقترب الملك وأطل نحوه. وعندما شهد ذلك الاهتمام توقف عنده وهو يقول:

- ماأجمل هذا الجواد الرائع يافتى.. من أنت ؟

قال سامبا:

- أنا سامبا يامولاى.. صاحب هذا الجواد.

وأطل إليه الملك طويلا ثم قال:

- ولكنك تتمادى فى تدليله والاهتمام به.

وأجاب سامبا بينما يوجه بصره فى فرس الملك وكأنه يستصغر شأنه:

– إنه لأهل لذلك يامولاى.

قال الملك مندهشا:

– لماذا؟ أليس كغيره من الجياد؟

وهز سامبا كتفيه فى استغراب وهو يقول:

– ليس كذلك يامولاى.. إن له لميزة تجعلنى أبذل له كل نفسى وجهدى.

قال الملك:

– ماذلك يافتى!

أجاب سامبا:

– إن روثه من ذهب يامولاى..!

وغضب الملك وهو يظنه يسخر به. غير أن الفتى أشار على كومة من الروث كان قد وضع فيها قطعة الذهب التى أخذها من أمه، وقال :

– أنظر بنفسك يامولاى.. فهذا من روثة الآن.

وأطل الملك أمامه فى دهشة وهو يقول:

– ماهذا..؟ أتسخر بى!؟

قال سامبا:

– عفوا يامولاى.. ولكنى لاأظن الروث يخلو من الذهب، وإن كان ذلك يتصل إلى حد كبير بالطعام الذى تناوله..

وأمر الملك عبيده بالبحث عن الذهب فى روث المهر. ولم تكد تمضى لحظة حتى مد أحد العبيد يده إلى الملك وبين أصابعه قطعة صغيرة من الذهب.

قال سامبا مبتهجا:

– انظر أيها الملك.. هاهو الذهب فى روث مهرى..!

وكان الملك قد تناول قطعة الذهب فتأملها، ثم راح يعرضها على رجال بلاطه وقد أمن بصدق الفتى وقال له:

– أجل.. إنك لصادق.. وإنه لذهب خالص براق.. فبكم تبيعنى ذلك المهر أيها الفتى..!؟

واحنى الفتى رأسه خاشعا وهو يقول:

– لاأستطيع أن أبيعه أحدا أيها الملك.. فهو عزيز علىّ.. ولكن.. ولكنى لاأستطيع أيضا أن أعصى امرك يامولاى.. فأنا أرضى ثمنا له عشرة ثيران وخمس بقرات..!

ولم يساوم الملك .. فقد كان كل همه أن يحصل على المهر الذى يخرج من بطنه كنز الذهب.

وعندما عاد سامبا إلى بيته فى المساء كان يسوق أمامه خمس بقرات وعشرة ثيران.

أما الملك.. فقد أمر بالمهر الثمين فأرسل إلى أجمل حظائره، وقدم له خير الطعام، وراح ينتظر فى شوق ولهفة قدوم الصباح..

ومع مطلع الشمس نهض الملك ليشهد بنفسه الذهب الذى فى روث المهر ولكن العبيد لم يجدوا شيئا فى الروث على الإطلاق.

ولم يشك الملك فى الأمر.. فقد خطر له أن تغيير طعام المهر جعل امعاءه عاجزة عن الإتيان بالثمرة المرجوة إلا بعد أن تعتاده. وقرر أن ينتظر أياما أخر..

غير أن الأيام راحت تمر ومن خلفها الأسابيع. وروث المهر لايتغير ولايخرج منه الذهب..!

وأخذ الغضب بالملك. وأمر بالقبض على سامبا وإحضاره بين يديه .

وأحس سامبا بالخطر. وقبل أن يمضى مع الجنود، ذبح ثورا وأخذ دمه فوضعه فى كيس من الجلد صغير، دفعه إلى أمه وطلب منها أن تعلقه على صدرها تحت الثياب. وهمس فى أذنها بما تقوله وتفعله عند ماتذهب معه وتمثل بين يدى الملك..!

ووقف الفتى يرتعد والملك يصب عليه جام غضبه، ويصفه بأنه كاذب شرير. واشتركت الأم فى لوم ولدها.. وهى تقول:

– صدقت أيها الملك. إن ولدى كاذب شرير لايحترم أحدا. وهو أجدر أن يلقى فى سجن مظلم أو يسلم إلى الجلاد حتى يعرف أقدار الناس..!

وصاح سامبا متظاهرا بالغضب:

– أهكذا تدافعين عن ابنك أيتها الأم الملعونة!؟ هل هذا هو المصير الذى تطلبينه لولدك وتدفعينه إليه. من أجل إرضاء الملك؟

وأجابت الأم وقد تصنعت الغيظ:

– أنك جدير بالموت أيها الكذاب الذى يجرؤ على لعن أمه.. وصرخ الفتى فيها:

– ألعنك!؟ هل هذا هو كل ماتستحقينه..!؟ إن لسانك لأحق بأن يقطع ويخرس حتى لاتطلبى لولدك الموت.

وبكت الأم وهى تقول:

– أنا يقطع لسانى أيها الولد..!؟ لقد فقت أباك الذى لم يستطع أن يلزمنى الصمت ويخرسنى.. وتريد أنت أن تقطع لسانى وتخرسنى.!؟ أواه أيها الملك.. أرأيت مدى الشر الذى تمتلئ به نفسه المجرمة..

وضرب سامبا رأسه بيديه وكأنه عجز عن أن يملك نفسه وصرخ:

– اسكتى أيتها الشريرة.. أتجرؤين على اتهام ابنك ومهاجمته..!؟ ألا فلتحل عليك اللعنة..!

قالت الأم وهى ترفع قبضتها مهددة:

– وعليك أولا ياسامبا. ليكن ملعونا ذلك اليوم الذى أخرجتك فيه من بطنى ورأيت النور. ليكن ملعونا ذلك اليوم الذى أرضعتك فيه ولم أقتل شرك. ألا ليتنى ماولدتك وماأرضعتك.. إذن لما شتمتنى وصرخت فى وجهى وطلبت أن تحل على اللعنة..!

وبدا على سامبا كأنه فقد زمام نفسه.. وصرخ وهو ينقض على أمه شاهرا خنجره:

– فلتذهبى إلى جهنم يامجرمة..!

وقبل أن يتمكن أحد من الاقتراب، كان الفتى قد غرس خنجره فى صدر أمه..!

وانبثق الدم قانيا من صدر الأم.. أو على الأصح من الكيس المملوء بالدم. والذى شقه الفتى فى براعة وهو يبدو وكأنه قد طعن أمه..

ولقد كانت الأم هى الأخرى بارعة.. فقد اتقنت تمثيل الدور، واستلقت على الأرض كجثة هامدة.. والدم يغمر ثيابها ويسيل كأنه ينبثق من شريان..!

وصاح الملك فى غضب وذعر:

– ساقتلك أيها القاتل الشقى.. يامن طفح كيل إجرامك حتى قتلت أمك. وسينزل بك انتقامى مرتين.. مرة للجرم الذى صنعت معى.. ومرة للجرم الذى صنعت مع أمك..!

واغمض سامبا عينيه، ثم فتحهما وهو يهز رأسه فى عنف وكأنه يوقظها من كابوس. وأطل أمامه وكأنه ينكر الجثة الملقاة تحت قدميه.. ثم حملق فى الخنجر الذى لايزال يلوث يديه.. ثم بدا كأنه قد أدرك أنه قتل أمه وهو غافل عن نفسه.. وراح يبكى..!

وفجأة، سكت سامبا.. ثم نظر إلى الملك فى هدوء وقال :

– لاعليك أيها الملك.. فلايجب أن يحزنك الأمر.. وتكلف نفسك عناء الانتقام.. فأنا الذى أستطيع أن أجعل الجريمة كأنها لم تقع قط.. إذ إننى أعرف سر إحياء الموتى.. أصدر الأمر إلى حرسك أيها الملك أن يبعدوا أيديهم عنى.. ودعونى أعمل فى هدوء وفق هواى.. وسترى أن هذه الجثة الهامدة أمامك سترتد إليها الحياة فى لحظات..!

وفتح الملك عينيه فى ذهول.. بينما راح الفتى يصرخ فى رجال البلاط:

– مالكم واجمين..!؟ ائتونى بإناء به ماء صاف.. وسترون كيف أعيد إليها الحياة..!

وأومأ الملك إلى الحراس فأتوا إليه بإناء به ماء.. وحدق سامبا فى الإناء وكأنه يتأكد

من صفائه، ثم انتزع من تحت كمه ذيل الثور الذى ذبحه منذ ساعات، وغمسه فى الماء ثلاث مرات.. ثم نضح صدر الميتة ورأسها وقدميها.. وهنا فقط تحرك الجسد الميت، وفتحت المرأة عينيها وكأنها تفيق من نوم عميق.. ثم انتصبت واقفة..!

وأحاط الجميع بالمرأة، وراحوا يتحسسونها بأيديهم ليستوثقوا من أنها حية حقا. ودهش الملك وقال لسامبا:

– أعطنى ذيل الثور الذى تحيى به الموتى.. فأعفو عنك!

ولكن سامبا أجاب الملك:

– لاأستطيع التخلى عنه يامولاى.. وما أغلى ثمنه. ومع ذلك فأنا أخشى لو تخليت لك عنه مقابل ثمن غال، أن يفقد قيمته بين يديك كما فقد روث المهر قيمته عندما بعته إياك.!

قال له الملك:

– لاشأن لك بذلك.. بعنى الذيل أعطيك الثمن الذى تريد، ولو كان قطيعا من اربعمائة ثور ومائتى بقرة..

وأحنى سامبا رأسه وقال فى استسلام:

– ليكن ماتريد يامولاى.. إن ثمنه لايقل عما عرضته.. فاصدر أمرك إلى عبيدك بتسليمى القطيع أعطيك الذيل العجيب..

وتمت الصفقة..

وبينما كان سامبا يسوق القطيع ومعه أمه إلى بيتهما، كان الملك قد بدأ يجرب سحر الذيل فى إحياء الموتى.

أمر الملك أحد الضباط بالاقتراب منه، ثم طعنه بسيفه فى صدره تماما كما طعن سامبا صدر أمه. وطلب إناء به ماء صاف فأحضر إليه، وغمس ذيل الثور فى الماء مرات ثلاث، ثم نضح به صدر الميت ورأسه وقدميه..

ولكن الحياة لم تعد إلى الجثة قط..

وأمر الملك بطائفة من الأسرى يعيد عليهم تجربته، ولكن الأسرى المساكين لم يعودوا أبدا إلى الحياة..

وجن جنون الملك.. وعرف أن سامبا قد سخر به..!

وأصدر أوامره بأن يساق الفتى الكذاب إليه، بعد أن ينقض عليه الحرس ويضعوه فى جلد ثور يخيطوه عليه بشدة..

وعندما عاد الحراس إلى الملك وهو يحملون جلد الثور، وبداخله الفتى يصرخ، رفسه الملك برجله فى جنبه وهو يقول:

–والآن لاعفو عنك أبدا.. وستعرف عندما تلقى فى البحر أن الكذب لن يغنيك.. وعندما تتعلم وسيلة أخرى فى العالم الآخر وتتقنها، فعد إلينا لنتعلمها منك!

وأمر الملك عبيده أن يحملوا الكيس ويلقوا به فى البحر وهم فى طريقهم إلى العمل، ولكنه فوجئ بالفتى يضحك ساخرا وهو داخل الكيس ويقول له:

– أيها الملك، لقد أخطأت فى الحكم على دون أن تسألنى وهاأنت ترسلنى إلى الموت برغم أنى أعرف أشياء كثيرة قد تنفعك .

وأجاب الملك فى سخرية:

– أخبرنا بها عندما تعود.. أما الآن فطريقك إلى البحر..!

حمل العبيد الكيس الثقيل ومضوا ينفذون أمر الملك.. وبينما هم فى الطريق، والحمل ثقيل، والشمس محرقة، والجو لافح، توقف أحد العبيد يمسح العرق. واقترح على زملائه أن يضعوا الحمل الثقيل ويمضوا إلى العمل، ثم يعودوا إليه وقد خفت الحرارة قبل الغروب، فيلقوا به فى البحر.. وبذلك ينفذون أمر الملك.. ويريحون أنفسهم من التعرض للشمس المحرقة وهم يحملون الكيس الثقيل..

وكان الجهد والحر قد أقنعا زملاءه قبل أن يحاول هو إقناعهم.. فوضعوا الكيس على حافة الطريق ومضوا إلى الحقل البعيد..!

أما سامبا.. فبعد أن كاد يختنق داخل الكيس، امتلأ من جديد أملا فى أن يعيش. فقد كان لايزال امامه وقت طويل يمتد حتى الغروب..!

وراح سامبا يتسمع لعل أحدا يمر.. غير أن الوقت راح يمضى.. ولا أحد يمر بالطريق قط..!

وراحت الشمس تميل نحو الغروب، ولا أحد يقترب.. والأمل فى قلب سامبا يتحول إلى يأس مرير.

وفجأة، أصاخ سامبا سمعه.. لقد كان هناك من يسير فى الطريق، بطئ الخطو يتمتم فى تثاقل.

ولقد كان على حق. فقد كان هناك عجوز زاهد يسير فى الطريق يتمتم بصلواته ويتلوها فى بطء.. ولايدرى أن سامبا قد قرر أن يخدعه ليسترد هو حريته..!

وبدأ سامبا يقوم بدوره.. وكان الدور يقضى أن يتصنع أصواتا كثيرة مختلفة.. تتشاجر وتتعارك وتناقش بعضها بعضا..

وضربت الأصوات سمع الشيخ فوقف ينصت.. ولايدرى من أين تصدر الأصوات المتعاركة المتباينة..

– تعال معنا. كيف تريد أن تهرب؟

– لا.. لا آتى معكم.. اتركونى..

– كيف لاتريد أن تذهب معنا.. إننا لانستطيع أن نذهب إلى الجنة بدونك..!

– ولكنى لاأريد أن أذهب معكم.. إن أمامى أعمالا كثيرة فوق الأرض يجب أن أنتهى من إنجازها..

– اترفض أيها الأحمق الذهاب إلى الجنة حيث تنتظرك السعادة الأبدية، من أجل أعمال ضئيلة حقيرة يستطيع غيرك إنجازها؟

– لاأريد السعادة.. ولكنى أريد أن أظل على الأرض.

– اتبعنا أيها الجاهل ولاتضطرنا إلى إسعادك بالقوة.. إن الجنة تنتظرك والأبواب مفتوحة لاستقبالك..

– لاأستطيع أن أذهب معكم، فثيرانى فى حاجة لرعايتى.

– أيها المسكين.. أترفض الجنة من أجل بضعة ثيران حقيرة..؟ فكر يابنى وسندعك لحظات.. ثم نعود إليك وقد قررت رأيك..!

وكان الشيخ الزاهد يسمع إلى المناقشة فى استغراب وذهول، ويعجب من الرجل الذى يرفض الذهاب إلى الجنة مع من يريدون أخذه إليها، واقترب من الكيس الذى يصدر منه الصوت وسأل:

– من هنا..!؟

سمع الصوت يجيبه:

– أنا سامبا الفلاح.. يريد الملائكة أن يأخذونى بالقوة إلى الجنة.. ويجبروننى على أن أترك ثيرانى المسكينة التى لاأستطيع أن أتركها وحيدة.. إننى أعرف أن الطريق إلى الجنة سهل.. ولكنى لاأريد أن أذهب إليها الآن.

قال الزاهد:

– لاتذهب فى عنادك إلى هذا المدى يابنى.. فتغضب الملائكة وتأبى أن تعود إليك لتأخذك إلى الجنة بعد ذلك..!

ولكن الصوت عاد يقول له:

– لايهمنى عادت الملائكة أو لم تعد.. فليذهب معها أى إنسان آخر. أما أنا فلا أريد الذهاب إلى الجنة الآن أبدا..

وهز الزاهد رأسه وهو يقول:

– وحق السماء لولا أنى مكلف بأن أحمل ذلك الصندوق المملوء بالذهب هدية من قريتى الى كبير الزهاد فى المدينة.. لذهبت بدلا منك

قال له الصوت:

– إذا كان عبء الصندوق وحده هو الذى يمنعك أيها الزاهد الصالح.. فأنا أحمله عنك وأسلمه إلى صاحبه بنفسى وأنا فى طريقى إلى قريتى.. وأنا كفيل بعد ذلك بأن أسترضى الملائكة لتعود إلى بعد أن أتم واجبى نحو ثيرانى وبقراتى العزيزات..!

وفرح الزاهد وهو يقول:

- مادمت تطوعت يابنى بحمل الصندوق وإرساله إلى صاحبه، فلابأس عندى من أن أحل محلك وأذهب بدلا منك فى الرحلة الجميلة إلى الجنة.. ولكن كيف الوصول إلى المكان الذى أنت فيه..!؟

قال له سامبا:

- إن الأمر سهل.. يكفى أن تقطع بسكينك الخيط الذى يضم أطراف شقى جلد الثور.. ولكن حذار من أن تغمد شفرة السكين أكثر من اللازم فتجرح أحد الملائكة..!

أجاب الزاهد وقد خشى أن يجرح الملائكة:

- كن مطمئنا..

ومد الزاهد سكينه وراح يقطع بها الخيط فى عناية وحذر.. ووثب سامبا من داخل جلد الثور فى فرح كبير وهو يقول للشيخ..

- والآن ادخل أنت فى الكيس ولأخيطه أنا عليك. وانتظر حتى تعود الملائكة فتحملك، ولكن عليك أن تشهر السكين فى يدك. ومتى شعرت بالبرودة تتسرب إليك، فشق الكيس تجد نفسك فى داخل الجنة..!

وشكر الزاهد سامبا لتنازله له عن رحلة الجنة.. وسلمه صندوق الذهب، ثم دخل فى جلد الثور حيث خاطه سامبا عليه، ثم مضى فى طريقة فرحا يقفز ويرقص.

أما الزاهد فقد ظل ينتظر حضور الملائكة لحمله.. وفى قلبه خوف من أن يكشفوا أمره ويعرفوا أنه ليس الشخص الذى كانوا يحملون. وانقضت ساعة سمع بعدها همهمة وكلاما، فراح يستعد للحظة التى قد يكتشفونه فيها، ولكن الفرحة ملأته عندما شعر أن الكيس يرتفع به. فقد أدرك أن الملائكة لم يكشفوه.. وأنه الآن فى طريقه إلى الجنة..!

وشعر الزاهد أن الطريق الذى يسير فيه الملائكة طويل.. فأشفق عليهم. وعندما توقفوا عرف أنه قد وصل إلى المكان المعهود.. وبداالكيس يهتز من جديد إلى أمام وإلى خلف عدة مرات.. ثم شعر الزاهد بأنه يطير..

وأحس صدمة قوية.. شعر بعدها بالبرودة..

وتذكر الزاهد نصيحة سامبا، فمد السكين وشق به الكيس ليهبط إلى الجنة.

وما كاد يفعل حتى وجد نفسه محاطا بالماء من كل جانب .. فراح يسبح ويسبح.. ولولا أنه ظل يسبح بقوة نحو الشاطئ لبلغ فعلا أبواب السماء..!

في ذلك الوقت كان سامبا قد بلغ المدينة.. ولايزال صندوق الذهب في يده.. واختبأ الفتى خلف شجرة حتى مر به عبيد الملك عائدين من العمل وعندئذ ظهر سامبا، وسار في طريقه ببطء ليبلغ القصر بعد عودة العبيد بوقت يكون كافيا لإبلاغ الملك خلاله بنجاح مهمتهم..!

وبينما كان الملك مستلقيا على بساط البلاط مغتبطا بنجاحه في الانتقام من الفتى الكذاب بإلقائه في البحر.. فوجئ به هو نفسه يقف فوق رأسه..

وصرخ الملك في ذعر.. وامتلأ القصر بالعبيد والحراس.. بل وبكل أهل المدينة بعد أن بلغهم نبأ ذلك العائد من الموت.. وبين أهل المدينة كانت أمه تقف في ذهول، وتحاول الاقتراب منه.

وصرخ سامبا يمنع أمه وقال لها:

– ابتعدي ياأماه.. لاتلمسيني. فجسدي تغطيه ذرات الكواكب التي كنت أسير بينها منذ قليل. إن كل من يلمسني يشتعل كالنار قبل أن تنقضي ساعات. ولابد أن يمضي بعض الوقت قبل أن تسقط ذرات الكواكب الملتصقة بي...

والتفت الملك إلى العبيد وصرخ فيهم في غيظ:

–أيها العبيد المجرمون.. الموت لكم جميعا نظير كذبكم علي وادعائكم انكم ألقيتموه في البحر..

وسجد العبيد أمام الملك وهم يقسمون أنهم قد ألقوه في البحر .

وتكلم سامبا مخاطبا الملك في هدوء:

–إنهم صادقون يا مولاى وأنا عائد الآن من العالم الآخر طوع أمرك. أنسيت أنك

طلبت منى أن أعود عندما أتعلم شيئا جديدا هناك لأعلمك إياه. فها أنا قد عدت لأعلمك طريقة جديدة للوصول إلى الغنى والثروة.!

وبهت الجميع وسكتوا..خاصة عندما كشف لهم سامبا غطاء صندوق الذهب..وراح يقول:

-عندما ولجت باب السماء، أحاطت بى ملائكة طويلة الشعر ترتدي أشعة الشمس وتبرز من ظهورها أجنحة تلمع كأجنحة الفراشات. وراحت الملائكة تنشد لى الأناشيد وتقدم كل واحد منها لى هدية. فهذه تقدم لى ماسا، وأخرى تقدم ياقوتا، وثالثة تقدم ذهبا وفضة وقلائد وأساور.. ولكنى رفضتها جميعا، إلا ذلك الصندوق المملوء بالذهب، حتى لاأثقل كاهلى بحملها جميعا عندما أعود إلى الملك سريعا كما طلب منى، لأخبره بوسيلة الوصول إلى الغنى والثروة. إن ماتعلمته هو أن الغنى فى السماء أسهل منه على ظهر الأرض. وكم أسفت إذ لم تكن معى عربة أستطيع أن احمل فيها كل تلك الهدايا الكريمة التى قدمت لى. غير أنى سأعود مرة أخرى، وسآخذ معى كيسا كبيرا أضع فيه كل الهدايا التى قدمتها لى الملائكة ووضعوها عند باب الجنة حتى أعود..!

وقال له الملك وهو لايزال مذهولا:

– ولكن كيف لم تمت.. وكل امرئ أغرقناه من قبل مات ولم يعد..!؟

وأجاب سامبا مبتسما:

– ذلك لأنك وضعتنى فى جلد ثور.. والثور مقدس كما تعلم فهو يمنع الموت أن يخطفنا.. والدليل على ذلك هو أننى لاأزال حيا بين يديك..!

وفجأة انطلق من أقصى القاعة أحد ضباط الحرس، وسجد أمام الملك فى سرعة وهو يقول فى توسل:

– مولاى.. أرجو أن تضعنى فى جلد ثور لأذهب إلى الجنة وأعود بالثروات المتروكة على بابها.. فأنا أخشى أن يأخذها سامبا إذا ذهب، ثم يختفى بها بعيدا عنا..!

وفى الحال.. راح الضباط الآخرون يتقدمون من الملك وهو يتوسلون:

– ونحن أيضا.. ونحن أيضا أيها الملك..

وهتف فيهم الملك فى قسوة وعنف:

– أتريدون الذهاب لتثروا، وأظل أنا فقيرا..؟ إن هذا لن يكون فلتسلخوا من الثيران ثورا يكفينى لأذهب إلى الجنة وأعود بهدايا الملائكة..!

وصفق الجميع للملك.. وإن بدت فى أعين الوزير فكرة قرر إلا أن ينفذها حالما يمضى الملك.. وهى أن يتبعه فى كيس آخر من جلد الثيران.. ويحاول أن يسبقه فى الحصول على الكنز..

وذعر سامبا وهو يرى الملك قد بدأ ينفذ خطة الانطلاق إلى السماء..

وبدأ ضميره يؤنبه، وإن ظلت فى الأعماق منه نداءات بضرورة الانتقام من الطاغية..

وبين الصراع النفسى الذى راح يصطرع فى أعماق الفتى.. وهو يشهد الملك يدخل فى الكيس والعبيد يخيطون أطرافه ويضعونه فى عربة لتنطلق به إلى النهر.. عجز الفتى عن السيطرة على نفسه.. فهتف فى الملك الذى يستلقى فى فرحة داخل الكيس:

– مولاى.. لاتفعل.. لقد كنت كاذبا.. أخرج من الكيس. فإنك ستموت غرقا لامحالة..

غير أن الملك من داخل الكيس، أصدر أمره إليه بالابتعاد وهو يصرخ:

– اسكت أيها الكذاب.. هاأنت تكذب الآن أيضا لتمنعنى من الحصول على الثروة.. اقتلوه أيها العبيد إذا اقترب منى مرة أخرى.. وسأعرف كيف أربيه وأرد صوابه عندما أعود..

وأوقف العبيد سامبا.. وانطلقت العربة فى الطريق إلى البحر..

وسكت سامبا.. ثم هز كتفيه. وانتظر بعيدا حتى ألقى العبيد بالكيس فى البحر.. وعادوا ينتظرون عودة الملك.. وإن كان الشعب كله قد ملأته أمنية بالايعود..

وكان هذا هو ماحدث بالفعل..

فقد مضت أيام كثيرة والملك لايعود إلى الشعب قط.. وبدأ الناس يستغربون تلك الغيبة وإن كانوا فى الأعماق منهم يتمنون على السماء الا يعود..

ووقف سامبا ذات يوم بين أفراد الشعب الذين كانوا يتساءلون عن سر غيبةالملك.. وأجاب سامبا:

– إنه لن يعود أبدا..

وتساءل الناس:

– لماذا .. نريد أن نعرف السبب.

أجاب سامبا:

– لقد طمع فى كنوز السماء تماما كما طمع من قبل طول حياته فى كنوزكم وثرواتكم..

وبدأ الناس يطلون بعضهم إلى البعض الآخر.. وبدأت الهمسات ترتفع والأصوات تختلط.

قال أحدهم:

– نعم.. لقد ظل يسرقنا طوّل حياته.

وانطلق أخر:

– كلام صحيح.. لقد استولى على كل أموالنا وأراضينا.

وارتفع صوت ثالث:

– إنه لص.. لقد أجرم فى حقنا. وسرق أقوات الشعب وأمواله..

وتكلم سامبا من جديد:

– نعم.. إنه لص طماع.. ألم تروا كيف طمع أيضا فى مسرات الجنة فلم يهتم بكم وأبى أن يعود إليكم.. لقد وجد هناك كنوزا أكثر من كنوزكم، وأموالا أكثر من أموالكم..

وهز الناس رءوسهم، وقد بدأوا كلهم يقتنعون..

وأطلوا بعضهم إلى بعض، ثم انطلق صوت منهم:

– ولكن.. ما الذى يحدث بعد.. إننا نريد حاكما سواه.

وارتفع صوت آخر.. وتبعته أصوات تختلط به:

– نعم.. نريد حاكما من بيننا.. يحس آمالنا وآلامنا..

وبدت همهمة، راحت تتزايد وتعلو لتقول:

– ليكن حاكمنا سامبا.. إنه واحد من الشعب..

– أجل.. لتكن أنت ياسامبا.. إنك أنت الذى خلصتنا من الملك الطاغية. لتكن أنت زعيمنا ياسامبا..

وفتح سامبا عينيه.. ثم أحنى رأسه وهو يستسلم لمشيئة كل الشعب..

ويروى التاريخ أنه لم يعرف منذ ذلك الوقت أصدق من سامبا زعيما ولاملكا قط..

تنفيذ وطبع محمد سويدان
بيروت ـ لبنان

هذا الكتاب

كل المحاولات الاستعمارية المغرضة، لم تنجح فى طمس معالم التراث الإفريقى. فلازالت هناك بقايا من حكايات وأساطير الشعوب الإفريقية، تعكس أفكارها الإنسانية وتصوراتها فى مختلف مجالات الحياة. وإذا كان الجانب الأكبر من هذا التراث الشعبى الإفريقى قد ضاع بسبب «خفوت دقات الطبول» التى كانت تمثل للإفريقى حروف الكتابة بالنسبة لأى شعب آخر، كما كانت عند الإفريقيين أسرع الوسائل لنقل المعلومات وأقدرها على النشر والإبلاغ إلى أكبر عدد ممكن من الناس.. إلا أنه مايزال هناك كثيرون من المخلصين من أبناء القارة من المهتمين بدراسة التراث الإفريقى يعملون جهدهم على جمع مابقى من هذا التراث، لكى يكون صورة حية للضمير الإفريقى، وللفكر الإفريقى. وكل ذلك يتم فى مرحلة من التاريخ تحتاج منا نحن أبناء هذه القارة المجيدة إلى كشف كل الأستار التى أسدلها الاستعماريون على تاريخ القارة وحضاراتها.

وهذه «الحكايات الإفريقية» التى يقدمها الكاتب ليست فى الحقيقة إلا صورة من حياة الإفريقى الفكرية والروحية والاجتماعية. وهى مهما بعدت عن الواقع، إلا أنها تمثل الحقيقة التى كان يعيش فيها إنسان هذه القارة. فليست كل الحقائق شيئا ملموسا، بل إن الحقائق قد تكون شيئا محسوسا أيضا. وإذا كانت هذه الحقائق ليست إلا حقائق قديمة.. حقائق فكرية بالنسبة للعصر الذى اكتشف فيه الإنسان خداع تفكيره أو إحساسه، إلا أنها مع كل ذلك تؤكد أن التاريخ ليس فقط تاريخ الحروب والغزوات والأسر المالكة، ولكنه أيضا تاريخ الشعوب.. والشعوب لاتنحصر صفاتها فيما كانت تمارسه فقط من ماديات الحياة، بل وأيضا من معنوياتها وخيالاتها..

وبعض هذا فى الحقيقة.. هو مايحاول أن يعرضه هذا الكتاب ..

الناشر



MADBOULI BOOKSHOP

6 Talat Harb SQ. Tel. : 5756421 ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: ٥٧٥٦٤٢١